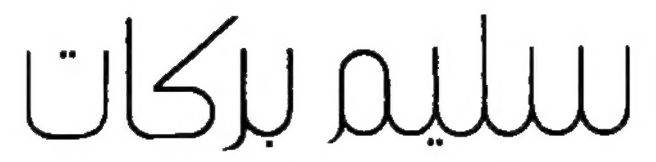


البراهين التي نسيها «مَمْ آزادْ»
في نُزهته المضحكة إلى هناك

أو :

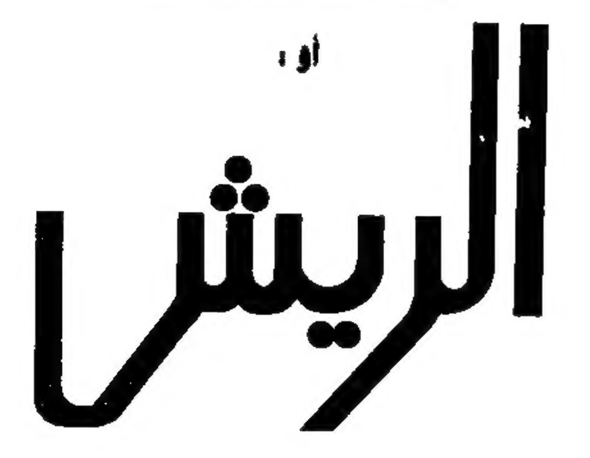






البراهين التي نسيها دَمْ آزادْ
في نُزهته المضحكة إلى هناك

أو :



الشخوصُ المُنْتَخَبَةُ للإشكال القدريِّ

كردستان (بلادٌ يستطيع «حمدي آزاد» تحديدها)

مَمْ بن حَمْديْ آزادْ (الشاب الذي يفتتحُ الحقيقةْ)

حمدي آزادْ (بائع قماش)

المُلّا سليم البَدْلِيْسيْ (صاحب ثورة مغدورة)

القنصُل الروسي وزوجُه (مُضيفا الملّا سليم)

الشيخ محمد سعيد النقشبندي (قائد انتفاضة الكرد الأولى)

«الرجل الكبير» (شخص لا يظهر في الرواية)

أربعة رجال (واسطة مَمْ إلى «الرجل الكبير»)

رجل ذو يدٍ كالجناح (جار مَمْ)

حسين مُقرْيانيْ (صاحب أول مطبعة كردية)

ثلاث شجيرات ورد (شجيرات، لا أكثر)

شجيرة فلفل ذابلة (نبتة مُعَذَّبة)

طائران ذوا قنزعتين (طائرا حقلٍ يكرّران ظهورَهما)

قبر غير مكتمل (قبر في عراء لصق شارع)

أحمد كَلِيْم (صيّاد لم يقتفِ غزالاً قط)

دِيْنُو (توأم مَمْ)

أحمد خاني (شاعر كرديٌّ قديم. مؤلِّف مأساة «مَمْ وزِيْن»)

هيْفِينْ (١٨ سنة) وَلاَتْ (١٦ سنة) عَيْشَانَة (١٤ سنة) رحيمة (١٢ سنة)

رُوْهَاتْ (٩ سنوات) هِيْلِينْ (٥ سنوات): بنات حمدي آزاد.

كَسْتُوْ (أم مَمْ. زوج حمدي آزاد).

القاضي محمد (رئيس الجمهورية الكردية الأولى)

مَهَابادْ (بلدة أُطْلِقَ اسمها على أوّل جمهورية كردية في العام ١٩٤٦).

اسماعيل سِمْكو آغا (رجل ذو أخبارٍ عابسة)

ي« (فتاة ذات اسم مُهْمَل)

حصّادات آلية منكود الحظ)

رة بِسمكو آغا في جيبه)

مْنو)

الثلة حمدي السرياني)

لحكايات)

نات كثيرة)

ان عن أية أشجار كينا)

ـة ضخمة. حصان أسود. حصّادات آلية. بنات آوى. نهر. مستشفى.

مصائر. مطر، وثرثرات.

الجزء الأول

الفصل الأول

تخطيطٌ غير متجانسٍ للوقتِ
قبل انتحار «مَمْ»، والتفاصيلُ
المُغْلَتةُ مُغْلَتةٌ على عواهنها.

حين أخرجت ملابسي كلَّها من الحقيبة الجلدية، عَلِتْ في قاعها المعتم، بغتةً، ريشةٌ رمادية صغيرة، دارت حول نفسها، ثم تمايلت في انحدارها لتستقرَّ على القاع ذي الثنايا الظاهرة في خشونةٍ. فالذي فصَّل هذه الحقيبة، تحديداً، لم يتفكّر قطُّ في أن أنظر، على هذا النحو المتفحِّص، إلى قاعها، حيث الخيوط السميكة تتشعب وتنفلتُ أطرافُها، مقصوصةً بِجَذْبٍ من اليد لا من المقَصّ.

مددتُ يديْ ورفعت الريشةَ، التي لم تعُدْ رماديةً في الضوء، إلى خارج الحقيبة. تأمَّلتُ ظاهـرها وباطنها. خليطٌ من الرماديِّ والأبيض. صغيرةٌ جداً. مشَعَّثةٌ. هممت بإلقائها جانباً لكنني توقّفت. أفلتُّ إصبعيَّ عنها فنزلتْ، ثانيةً، إلى قاع الحقيبة.

لم أسائل نفسي عمّن ألقى بها بين ثيابي، فلقد سرحتُ مأخوذاً بتمايُلها أولاً، في ظلام الحقيبة، وباللون الذي أَشْكَلَ عليَّ ثم اتّضح في الضّوء، مما حدا بي إلى أن أُلْقِي بها، من جديد، إلى الظلام المُنْبَسِطِ على ثنايا القاعِ، المحبوكِ من خيوط ظاهرةٍ في الجلد المشدود بعضه إلى بعض.

ولماذا أسائل نفسي في أمر ريشة واحدة؟ أأنا أبحث عن برهان يؤكّد أن الحقيقة فضيحةٌ يُتْقِن البعضُ إلقاءها إلى فخاخ الآخرين كفتافيت الخبز؟ . ريشة. ريشة واحدة مثل انتحاري المزعوم. أينتحر الإنسان مرتين؟ يحاول مرتين، لكنه لا ينتحر مرتين. إذ

حاول قد ينجو، وإذا انتحرَ ماتَ. وماتَ يعني أنه مات. لا معنى ثانٍ أو ثالثُ للخبر. وأنا قررت الانتحار، قبل فتح تلك الحقيبة التي عَلَت الريشةُ الرماديةُ في قاعها المعتم.

تفكرتُ قليلاً في مسائل فلسفيةٍ أشبه بمظلّتي التي ركَنتُها إلى زاويةٍ خلف الباب، بسبب ما علق بها من مطر. قلت لنفسي - والموقف لم يكن يستدعي تخرّصات من هذا النوع - «يولد المرء شريراً بطبعه، ويقضي سنيّ عمره في برهانٍ أنه ليس شريراً». أقصدُ، من أعماقي، أن الموقف - لم يكن ليسنَحَ بثرثراتٍ داخلية من هذا النوع، ما دام الشخص - الذي هو أنا - مُقدِماً على الانتحار.

والإنتحار، دون رويته، أمر مضحك إلى درجة إنقاذِ الروح من الفكاهة. أعني أننا ننتحر عندما نضجر من القدر الهائل للفكاهة التي تطغى على الروح. والحكاية، بتبسيطٍ قليل، أشبه بحال من يضحك حتى ينفجر قلبه.

هكـذا، إختـلالٌ بسيط في المقادير المرعيَّة للحياة: تضحك فتنفجر. تغضب فتنفجر. تأكل فتنفجر. تجوع فتنفجر. تنام فتنفجر. تأرَقُ فتنفجر. تحبّ فتنفجر. تُعْتِمُ فتنفجر. تُضَاءُ فتنفجر. تَحْكُمُ فتنفجر. تُسْتَعْبَدُ فتنفجر. تتنفسُ فتنفجر. تختنقُ فتنفجر. هكذا. اختلالٌ بسيط في المقادير كالطُّهو. والحياة طهوٌ. لذلك قررت الإنتحار ذلك اليوم، وأنا أنظر إلى المطر الهاطل، غزيراً، من وراء نافذة المطبخ. رأيت زوجين من طيور الحقل ذات القنازع، في الفناءِ الخلفي للبيت. حملتُ مظلّتي واتجهت، من باب المطبخ ذاته، إلى حيث جثم الطائران متقاربين، وقد تكوَّرا تحت المطر، فما يَبِيْنُ لهما عُنُقٌ. وإذ اقتربت طارا. لم أفهم لماذا طارا. كنتُ مثلهما تحت المطر بمظلّتي، وقد ارتـأيتُ أن أحميهما مثلي. لا أعرف إذا كنتُ سأجلس في الفِناءِ الخلفي للبيت، أو سأظلُّ واقفاً حتى يهدأ المطر. كلُّ ما أعرفه، بأعماقي، أنني كنتُ مُقبلاً على حماية الطائرين، لكنهما طارا.

«الـطيور لا تفهمني». قررتُ ذلك، في أعماقي، بثقَةٍ مُرَّة، وعدتُ إلى داخل البيت، كئيباً أكثر، وذلك ما زاد من إصراري على الانتحار. وأنا لستُ في حاجة إلى أسباب إضافية، لكن كلّ إضافة تبدّد معنى الإطالة في الحساب: «فَلأَمُتِ الآن».

غير أنني أودّ التصـريح لنفسي بثغـرات في قراري. تتعلق بالبحث عن أسباب إضافية إلى الأسباب الأساسية التي اعتمدتها ـ دون جدال، بل في ضجر كبير ـ لإحالة روحي إلى التقـاعـد. فالإضـافـات مُغْرية. هذا هو اعترافي: الإضافات مُغْرية. كلُّ تفصيل، مهما صَغُر، يُشْدِهُك بالحزم الذي فيه، وبقدرته على الإقناع. تماماً كحكايتي مع طائري الحقل اللذين طارا. فكيف إذا تفكَّرتَ مثلي على النحو التالي: «سيموت الجميع. فما الفارق بين عددٍ من السنين أقلَّ أو أكثر؟». لكن الذي كان يعرِّضني للتأمُّل سؤال باهت: «لماذا انتحرتَ؟»، أيْ أن يسألني أحدهم: «لماذا انتحرتَ؟». والسؤال في غير محله، على أية حال، فمـا من أحـد سيسـألني بعدما أنتحرُ حتى عن ملاقاة أقربائه. لكنني لا أستطيع مُجاوزة ذلك الاحتمال، أيْ أن يسـائلني شخص مّا: «لماذا انتحرتَ؟».

«انتحرتُ». لربّما علي أن أجيبَ بحزم وصلافة: «انتحرتُ. هكذا. انتحرتُ» والأسباب؟ الأسباب حكاية أخرى. إنها تفاصيل.

«إنتحاري تفاصيل، إذاً». أقول ذلك لنفسي. ومن التفاصيل، مثلاً، أنني أستحم ساعة كل صباح، حتى أنني لا أعرف الصباح إلاّ بوصفه ماءً ورغوة صابون، بينما يعدّد لي الأصدقاء ما يعنيه ذلك الدليلُ ـ أعني الصباحَ بالطبع ـ لهم. فهو حَمَّالٌ من طراز لا نعـرفه بين حمّالي الأمتعة في مدننا. والصباح ـ بحسب زعمهم ـ مائدة شهية. إفطار شهيّ. تأمُّلٌ عائليٌّ. فاتورة يدفعونها للنهار دون تذمُّرٍ قط. وهذا ما لا أعرفه. فأنا أنهض مغمض العينين إلى الحمـام. أستحم ساعةً. ليس ساعةً بالتحديد، بل بما تستغرقه مُسْتَتْبِعات الإستحمام، فأجد نفسي، بعد ذلك، على عجلة من أمري للخروج من البيت.

تفصيلٌ مُضْجِرٌ، لكنه مُحْكَمٌ، تتأمّلُهُ من داخلٍ، لأنك أسيرُه. لكن الأكثر إثارةً بين التفاصيل كلِّها هو وجودي هنا. أعني وجودي في هذا البيت الواسع، الذي تحدّه حديقة صغيرة شمالاً، وفِناءٌ عُشبيٌّ مزيَّن بدالية كبيرة، وشجرات تين، وزيتون، وبرقوق، من جهة الشرق، بينما تترامى أرض بورٌ إلى جهته الجنوبية. بعد مترين من شجرات الليمـون القـريبة من سياج شرفة غرفة النوم الواطىء. ويفصل هذا البيت عن العمارة

الغربية ممر يتسع لعربة، ينمو فيه نعناع برّي، وزنبق لا يدوم طويلاً. وأنا، حين أقول «لا يدوم طويلاً» ففي كلامي ما يدلُّ على بقائي طويلاً في المكان حتى تتكوَّن لديَّ ملاحظة كهذه. لكنني أعود إلى التفصيل المثير، ثانيةً، وهو سؤالي عن وجودي هنا!

أكره العودة بذاكرتي إلى التقاط الحكاية متسلسلةً. ذاكرتي كسولة، وأنا أحبها هكذا. لذلك عشت كل هذه السنين هنا، في هذا البيت، دون حنينٍ يجعلني أشعر أن ما عشته هنا كان طويلاً، وأن عليَّ الالتفات، بشيء من أعماقي، إلى ماضٍ مّا.

ذاكرتي كسولة. أنا كسول. حنيني كسول. وبسببٍ من هذا الخلل ظلَّ إقدامي على الانتحار كسولاً، أيضاً. ولمّا أخرجت ثيابي، اليوم، من الحقيبة الجلدية، فقد أخرجتها بعد سنين من رقودها في الظلام، لأنني، أزمعت ـ بحقٍّ ـ أن أُفرِدَها على سريري حتى تكون مكشوفة للذين سينقلون جثماني من البيت، بعد انتحاري. لكن هذه الريشة لم تكن في الحسبان، أعني الريشةَ الرمادية التي عَلَتْ من قاعِ الحقيبة المُعْتم.

نسيتُ ذِكْر حلبة سباق الخيل التي تقع إلى شرقي البيت أيضاً، حيث في استطاعتي رؤيتها من الحديقة الأمامية، ومن الأرض البور، خلف البيت، معاً. نسيت ذِكْر الضوء البرتقالي، الذي يضيء الحديقة من أعلى عمود الكهرباء، وهو ضوء جيء به حديثاً، بدلاً من المصباح الشحيح السابق، الذي يهيّج البعوض بقدرةٍ قادر. نسيتُ الجار العجوز، القابع أبداً في حديقة بيته الميتة، شمال شرق الشارع، وما أنْ فاتحتُ نفسي باحتمالٍ يشيك لموته حتى مات. فاكتأبتُ، وأنا أرى زوجَهُ تجلس الجلسةَ ذاتها في الحديقة، بعد رحيله. لكنها لم تمتْ، لأنني لم أكاشف نفسي باحتمالٍ وشيكٍ لموتها، خوفاً من أن تموت، بدافع من إعجابي بشهوتها إلى المرطّبات. فما أن تمرُّ العربة التي تقودها عجوز أخرى، معلنة عن مجيئها بمكبّر صوتٍ صديءٍ متهدِّجٍ، حتى تخرج الأرملة إليها، متكئة على عصاها، وترجع، من ثَمَّ، وهي تلتهم قُمْعاً تعلوه مرطّبات من ألوان شتّى.

أنسيتُ شيئاً آخر؟ سأتذكَّرُ الأشياء في حينها على أية حال، إذ سأعود بنفسي إلى خياري الكسول، والمُضْجِر: أيْ أنْ أنتحرَ. لكن هذه الريشة الحمقاء أثارت حنقي، فعلاً: ما الذي تفعله هنا؟. لم أنقل مخدّات ـ مثلاً ـ في هذه الحقيبة. كانت في بيتنا

منذ سنين، ووضعت فيها ثيابي هذه، ثم لم أفتحها بعد ذلك. كانت لديّ ثياب إضافية اشتريتها يوماً بعد آخر ولم أفتح الحقيبة. وكنتُ مزمعاً ألاّ أفتحها قط، لأنني - حين أغادر هذا المكان - سأغادرُ حاملاً الحقيبة وحدها، تاركاً ورائي كل شيء آخر. لا أعني أن حنيناً مّا كان يشدني إلى جهةٍ بذاتها، لأحفظ من أجلها عذرية هذه الحقيبة، كتقدمةٍ خفيفةٍ من شخصٍ ضائع، بل حفظتها بمزيج من الكسل، وبحبٍّ بليدٍ من أن يكون لي سرٌّ، حتى لا أكون مكشوفاً على هذا النحو الفاضح: دون حنين، دون لعبة، دون حكاية أيضاً. وها أنا، بذكاءٍ لم أشهدْه فيَّ من قبل، أفتح الحقيبة تَقْدِمَةً سخيَّةً من كَسلي - كإنسانٍ - إلى الموتِ كشريكٍ جديد.

سأموت. أعني أنني سأقرِّر هذا الموتَ انتقاماً من مفاجأةِ الموت. والأمرُ، بعامَّةٍ، بضعُ لحظاتٍ تفصل اليقظة عن الغيبوبة الرحيمة. غمضةُ عينٍ. شهقةٌ. إنكسارٌ صغيرٌ من أنَّ الحياة قد خذلتك إلى هذا الحدِّ، أو أنها أقلُّ من أن تخذُلَ ساعةَ تريدُ لنفسك حدوداً مّا تلجمُ ارتطامَ روحك بيقينٍ ناقصٍ.

لن تفكّر كثيراً في الذي سيجري بعد تلك البرهة الخاطفة، الثقيلة أيضاً، إذ سيكون كلُّ شيء مهيَّأً على نحوٍ واضحٍ، محسوبٍ، رقيقٍ أو فظٍّ. لن تفكّر في الذي سيجري، فحسبُكَ أنك عبرتَ تلك الفضيحة التي استدرجتكَ - في جنونٍ - إلى كمالها، أعنيْ: الموتَ. وأنا سأموت. أعني قرَّرتُ أن أُحْدِثَ إرباكاً في اللُّعبة، وكلُّ انتحارٍ إرباكٌ للُّعبة.

لكن وجودي في هذا البيت يثير إرباكاً في أعماقي الواثقة من جسارتها على الانتحار. وأنا عنيدٌ وعنيف. لا أحزن، بل أستسلم للألم كأنّه خاصّيَّةٌ تجعلني متوازناً جداً. ولا أرتبك أيضاً. لا أرتبك. لديَّ بداهةٌ تخفّف، في سرعتها، من وطأةِ الآخرين وذكائهم، ومن وطأة المواقف التي لا أتحسّبُ لها. وسرعة البداهة هذه، التي تبعدُ عنّي الإرتباك، هي الإنفعال الغاضب، وبذلك أحسم المجادلات.

وها أنا، فجاءةً، موجود هنا، في هذا البيت، وعليَّ التفكُّر - منطقياً - في سيرورة وجودي هنا، دون انفعال، لأنني لستُ في مواجهة شخصٍ مّا، أو موقف يستدعي التخلّصُ منه إقداماً جريئاً على فعل صاخب. أنا، ببساطة، في بيتٍ لم أكن فيه من

قبل، وعليَّ تحديد موقعه، وحدوده، وتاريخه، قبل الإقدام على هذه الرغبة الجامحة في الانتحار، وهي رغبةٌ زادَها عبثُ أنْ أجدَ نفسي هنا، مُقدِماً على فتح حقيبتي التي عَلَتْ في قاعها ريشةٌ رمادية صغيرة جداً.

إنه الريشةُ التي تقف بيني وبين انتحاري. هذه الريشة؛ هذا التمايلُ المُنتظَمُ في انسيابها إلى قاع الحقيبة، مثل انسيابي ـ تماماً ـ إلى مكتب استئجار البيوت، حيث دلّتني امرأة تتخابثُ في كلامها، دون حذاقةٍ، على بيتي هذا.

احببته. أحببتُ البيت منذ رأيته أوّل مرّة. لذلك اعتقد أن وجودي كان مدروساً، وليس مفاجئاً كما ادّعيتُ من قبل، في هذا المكان. بدليلِ أن الحديقة الخلفية ذكّرتني بحديقةٍ نسيتها، وذكّرني العراء الممتدُّ إلى الجهة الجنوبية بعراءٍ لم أنسه بعد، وخامرني أن شعاعات الشمس، التي تدخل غرفة النوم من خلل شجرات الليمون، هي ذاتها التي كانت توقظني، صباحاً، في وقتٍ مّا من سنينَ بعيدةٍ لا تشبه سنينَ هذا المكان. وأنا، على أية حال، لستُ ممن يبحثون عن مفاضلةٍ بين السنين هنا، والسنين هناك، لأنني شخصٌ ذو حنينٍ كسول، مقبلٍ على الانتحار، حيث لا أجد متّسعاً لشيء في أعماقي، إلاّ للريشة التي عَلَتْ في قاع الحقيبة.

لا أعرف كيف حوّلني قراري بالانتحار إلى رجلٍ خاوٍ على هذا النحو، هادىء جداً، دون رغبة، ومع ذلك عنَّ لي أن أفرد ثيابي على السرير، حتى تكون مكشوفة للذين سينقلون جثماني، وارتـأيتُ، باندفاعٍ غامض لم أفكر في فحواه، أن أحمي طائريْ الحقلِ بمظلّتي، فَخَذَلاني. لكن هذه الريشة التي استقرّت، ثانيةً، في قاع الحقيبة، أطبقت على فكري، وأيقظته على ما ينبغي أن أتفكّر فيه بإلحاح.

وقد مددت يدي، من جديد، بعد هذا، إلى قاع الحقيبة، وتلمّستُها باحثاً عن الريشة فلم أعثر عليها لصغرها. فنقلت الحقيبة إلى ضوء الحديقة الخلفية، ثم تأمّلتها وأنا أميل بها على الجهات كلّها حتى يكشف الضوء قاعها، فإذا بالريشة هناك، رماديةً كما تعرّفتُ عليها، فأخرجتها بإصبعين، وتأمّلتها بانكسار.

شعرت بانكسار مّا. هذه أوّل مرة يحدوني فيها شعور كهذا، فأنا عنيد، ولا أميل إلاّ إلى الغضب. وقد رفعت عينيَّ عن الريشة إلى شجرات الليمون، المرتفعة خلف

غرفة النوم، في هدوء، كأنني سأعرف سبب انكساري هناك، بين غصونها المتشابكة، ذات الأوراق البليدة، في أوائل هذا الربيع الذي لم يعرِّفْ عن نفسه بعد. فارتعش جسدي.

لم أرَ شيئاً بين الغصون تلك، لكنني سمعتُ - أو خُيِّل إليَّ - ارتطام طائر بالأوراق، كأنما يحاول أن يحطّ فيختلُّ توازنه. ثم هوت ريشة واحدة، كالتي في يدي، وهي تتمايل مترنّحة من غصنٍ إلى الذي يليه، حتى استقرَّت على الأرض الرطبة تحت الشجرات، حيث نَمَا أقحوان قزمٌ، وإشناتٌ، وبعض النباتات الشوكية الملتصقة بالتراب.

تقدَّمت، منحنياً، لأنظر إلى الغصون العالية، من تحت. فما وجدت طائراً. لكن الريشة كانت هناك، على سنتيمترات من حذائي الأبيض غير المصبوغ، فتناولتها عائداً، بالإنحناءة ذاتها حتى أتلافى الغصون الواطئة، إلى حيث تركتُ الحقيبة. ثم قارنت الريشتين، إحداهما بالأخرى، تلقائياً، فكانتا في حجم واحدٍ، ولا اختلاف في لونيهما.

لقد ازداد انكساري، حتى اغرورقت عيناي، فأمسكتهما عن البكاء بعناد، لأنني لم أتعوّد البكاء من قبل، بل تحطيم ما حولي أو تحطيم نفسي. فما الذي داهمني آنذاك؟ أثمت فاجعة تجري في مكانٍ مَا ولا أقدر على لَجْمها؟ ثمت فاجعة في كل مكان، وأنا لستُ مفوَّضاً بتذكير نفسي، في كل لحظة، بأمر كهذا. إنها حكمة البقاء، التي لا تترك الأمور جميعها أن تحصلَ في المكان ذاته، دفعةً واحدةً، بل توزِّعها توزيعاً حسناً، مقبولاً، يحفظ القلوب الضعيفةَ ضعيفةً أبداً، والقويةَ قويةً أبداً.

وها أنا قوي، لكنني منكسر قليلاً، وهو ما لا ينبغي لشخص مقبل على الانتحار مثلي. فإن شعرتَ بانكسارٍ فذلك يعني تأسِّيك على نفسك، مما يعني أنك لن تَعْذُرها على فعلٍ صاخبٍ كالانتحار، فتمضي في التأجيل منتظراً أن تفرغَ من كلِّ شعور، لتُداهمَ حرِّيتك. إذ ذاك ستغدو الحكاية دوّامةً من التحسُّبات، والتقديرات، وستبقى حرِّيتك هناك، على مقربة منك، لا تجرؤ على اقتحامها، لأنك أسيرُها.

وأنا، الذي قرّرت ألاّ أعود أسيراً لحرّيتي، بل أدفع بنفسي إلى حيث ينبغي أن أكون، منكسرٌ قليلاً، الآن، دون أن تفارق عيناي الريشتين. وإذ هبَّتْ، بغتةً، ريحٌ

رطبةٌ، وقضمتِ الغيومُ الرماديةُ، المهرولةُ، شقيقاتِها البيضاوات، حملتُ الحقيبةَ الجلديةَ الفارغة عائداً بها إلى الداخل، وقد رميتُ بالريشتين إلى قاعها المفتوح كفم السحلية.

أقفلت باب المطبخ من خلفي، وسط صخبٍ قادم من وراء حديقة البيت المترامية أمام مدخله. لم أنتبه للضجيج برغم وضوحه. كنتُ غارقاً في انكساري؛ غارقاً فيَّ، حيث الثغرةُ البيضاءُ التي سألقي بنفسي فيها منّي إلى ما لا يحدُّني. لكنني، إذ وضعت الحقيبة على الأرض، في الممرِّ بين غرفة الجلوس وغرفة النوم، أمستِ الحركةُ التي تجري خارجاً أكثر وصولاً إلى مسمعي، فتقدّمت إلى النافذة المطلّة على الحديقة الأمامية، مستطلعاً من وراء الستارة الشفيفة على الذي هناك، فألفيت رجلاً وامرأة غارقين في معطفين سميكين، ينقلان صُرَراً مضمومةً، وأكياساً، وحوائج ملفوفةً في جلودٍ، إلى داخل البيت المهجور الذي يحدُّ الحديقة الأمامية شمالاً. وكان بيتاً معروضاً للإستئجار، منذ سنين، أربع أو ثلاث، أمّا نزلاؤه السابقون فلم أنتبه إليهم. كانوا عائلة على ما أعتقد. لا أجد أثراً لهم في الظهيرة، حين أعود إلى البيت، ولا حين أغادر في الصباح. بيد أنني سمعتهم يصرخون مراراً بأصوات متداخلة من إناث عديداتٍ ورجل واحد.

راقبت الاثنين القادمين ـ ولا أجزم إن كانا زوجين أو أخوين ـ في فضول، وهما ينقلان الأمتعة، قطعةً قطعةً، بعد جَدَل هامسٍ. وكان واضحاً أن المَرْكَبَة التي أقلّتهما إلى المكان ألقت بالحوائج كيفما اتّفق، على الشارع الأسفلتي وقارعتِهِ الرملية معاً، ثم مضتْ.

وجدتُهما طريفين. لا. استرعتني حركاتهما الواثقة حتى وهما يتخاطبان، كأنما يقيسان بأذرعتهم مسافاتٍ تفصلهما عن مَشْهدٍ ينسجانِه هَمْساً. والمعطفان؟! لماذا يرتديان معطفين، والربيع الذي لم يفصح عن نفسه، بَعْدُ، عالقٌ في مصيدة الأقحوان المتفتّح تَوّاً؟ المرأة قصيرة، ذات حاجبين كثّين. هذا ما لاحظته. خَفِرةٌ في نظراتها. قلقةٌ قليلاً، أو مُحْرجةٌ. الرجل نحيل، أطول منها. ذو صرامةٍ في شفته السفلى المتهدِّلة، وعينيه المنكسرتين. ينظر إليها ولا ينظر إليها. كان حاضراً، ربّما، لأنَّ الأمتعة في حاجة إلى من ينقلها بذراعيْ رَجُل.

غادرتُ النافذة عائداً إلى الداخل، متأمّلاً ثيابي الملقاة على السرير، قطعةً إلى جوار أخرى، تنتظر الأيدي التي ستجمعها، بعد انتحاري، وهي تكاد تعتذر إليّ. فالموتى يستدرّوْنَ اعتذارَ الأحياءِ، عادةً، حين يقوم الأحياءُ بإخفاء آثار الموتى من المنازل. وهو اعتذارٌ غير مسموع على أية حال، يقوله أناس تعبون من الاعتذار لأناس ليسوا في حاجة إلى اعتذار. لكنني أسمع الأيدي التي ستجمع هذه الثياب، بأنامل خشنةٍ وناعمةٍ معاً، وهي تطويها في رفقٍ خشية أن توقظ الجسد الشاحب الذي نقله موظّفو الموت إلى مشرحة المدينة، أو دفنه الحريصون على وحشته في الحديقة.

لا أعرف لماذا يعنّ لي أن أُدفَنَ في الحديقة الخلفية، أو أُبعَدَ بمترين حيث الأرضُ البور. ولو كنتُ هناك، اليوم، تحت القشرة الرملية التي حطّ عليها طائرا الحقل ذوا القُنْزُعتين، لَلَمحْتُ منقاريهما من أسفل، ينزلان ويرتفعان بنقْرٍ مدروس. ولاستطعت إحصاء آثار أرْجلهما على امتداديَ في الظلام الذي يدغدغني، من وقتٍ إلى آخر، بجذور الزّهر البرّيّ، أو بجذور الهندباء التي تعلوني بأوراقها الخشنة.

لكنني لستُ مدفوناً هناك. وإذْ أتملّى ثيابي على السرير تقتحمني صورة الشخصين، اللذين أطبقا باب البيت المجاور خلفهما فسمعت اصطفاقَهُ: كان معطفاهما طويلين جداً، حتى أعقاب أحذيتهما، بُنّيّين حالَ لونُهما، مرفوعَيْ الياقتين حتى الآذان، كأنما تختبيء المرأةُ من الرّجل، والرَّجل منها. وهي كانت تلفُّ رأسَها بعصابة عريضة، دون غطاء يحجب شعرها المجدول من الجانبين، أما هو فكان حاسر الرأس، مشعَّثَ الشعرِ كمن قضى أياماً نائماً على مقعد باص. ربّما. بيد أنه لم يُخْرِج يدَهُ اليمنى من جيبه قط. كان ينقل الأمتعة باليسرى، ويكلِّم المرأة باليسرى، ويقيس مدىً غيرَ معلومٍ في حوارهما باليسرى.

لم يَطُلْ تفكيري فيهما، لأنني عُدْتُ إلى مساءلة نفسي عن جدوى نَشْر ثيابي على السرير، هكذا. لَمَمْتُها دون بحث عن جواب، إذ كان ينبغي أن أَلُمَّها. فالتفاصيل التي تجرُّني إلى التشبُّث الأخْرق بنفسي في ذاكرة الآخرين عمياءُ، مُقْلِقةٌ، وما أنا مُقْدِمٌ عليه لا يتوخّى، قط، أن يجعل امتدادي في الآخرين قوياً كتعويضٍ عمّا لا تستطيع الحياةُ تأمينَهُ لي من امتدادٍ فيها. ولمّا أقرِّر إلغاءَ نفسي، مُنْتَحِراً، فعلامَ أبحثُ عن حضورٍ من

خلال ثيابي هذه؟ أوه.

رميت بثيابي في قاع الحقيبة المفتوحة، أبداً، كنسيانٍ مفتوحٍ، ودفعتها بقدمي إلى إحدى الزوايا، عائداً إلى المطبخ ثانية، ثم خرجت من بابه إلى الحديقة الخلفية ذات الهواء الرطب. بينما كانت الغيوم تزداد جهامة، مثلما كانت قبل ساعتين، أو أقل، حين نَشَرَتْ أعماقها السائلة على طائريْ الحقل، اللَّذين. . . يا للطائرين! . تأمَّلتُ الأرضَ البور، المترامية خلف الحديقة، كأنني سأجدهما هناك من جديد، أو أجد شبيهيهما، لكن دون رغبة في حمل مظلَّتي لحمايتهما من مطر وشيك.

سيطيران. سيطير الأحمقان إذا اقتربت منهما. سيجثمان أوَّلاً. سترتفع قُنْزُعتاهما راصدتَيْن حركةَ الريح، كأنما يوجِّهانها متواطئَيْن مع رغبة الأجنحة في انسيابٍ أكثر فتنةً، وسيطيران.

حين دخلتُ هذا البلد لم أفكِّر في الوقوف، هكذا، مكسوراً، أمام طائرين. منذ أكثر من ست سنين لم أفكِّر في الوقوف هكذا، أو على نحوٍ آخر، أمام عراءٍ مهتوك، تحدثه جرّافةٌ على بكرة أبيه صيفاً، مقتلعة ما ينمو فيه، بحسب البذور المجروفةِ، ريحاً عن ريحٍ: سرخسٌ، وأقحوان، وهندباء، وزؤان، وشوكيات، وباقلاّء بريّة، وحلزون منثور على كل شيء بقواقعه الفارغة، ذوات الصمغ اليابس.

لم تكن لذلك العراء، وراء الحديقة الخلفية، هويةٌ ثابتة إلاّ الحلزون، الذي يجتاح الحيطان والنبات معاً، في كل فصل، حتى يكاد يدخل الأسِرَّةَ. أما زَرْعُهُ الخجول فكان يتفاوتُ في سيطرته بين نوع وآخر، من فصل إلى فصل؛ فقد يكون الأقحوان أكثر سطوةً، وقد تكون الهندباء (وهما أعظمُ حظوةً، على أية حال). ولربَّما احتكر السُّنْبُل الفارغ ـ الذي ليس قمحاً ولا شعيراً ـ مدى العراء ذاك، أو توزَّعَتْهُ شقائق نعمان، وخُبَيْزٌ، وحُمْحُمُ (لا أعرف من أين يأتي)، وثوم بريٌّ، وخليطٌ آخر متداخلٌ، ينبغي فحصُه عن قُربٍ.

كان عراءً مهتوكاً بجسارةِ حُرِّيَّته، وأنا أريده هندسيّاً، حُرّاً في عبوديّته. وإذ أقول «أنا» فإنما أعني نفسي المنسوجةَ من انتظارٍ فادحٍ، في عاصمة هذه الجزيرة التي تتكلَّمُ اليونانية، ولا أعرف منها غير ألفاظ تبعث على الضحك بعد ست سنين.

وأنا رجلُ انتظارٍ، ذو شكيمة قوية كالعبث، وإلاّ كيف أفسّر لنفسي، ولأيٍّ آخر، هذه الفخاخ الصغيرة التي اشتريتها؟ من يشتري فخاخاً في مدينة تُدعى عاصمةً، ذات عمارات عالية، وسيارات، ودراجات هوائية ونارية، وحلبة لسباق الخيل، وقوى من «الأمم المتحدة»، تقفز من فوق حواجزها الناعمة ـ كقفازاتٍ ـ شتائمُ الذين تقاسموها في متاريسهم المتقابلة، على مبعدة أمتار قليلة؟

جزيرة مقسومة كالقهقهة، وأنا أشتري الفخاخ للعصافير فيها، بعدما عرفت أن الصيد يحوجُهُ ترخيص مُكْلِفٌ، كالإقامة التي تدبَّرها لي أولئك الرجال الذين استدعوني لمقابلة «الرّجل الكبير». وها أنا، بعد ضجري الهائل حتى من الصيد بالفخاخ هذه، أحاول حماية طائريْ الحقل فيطيران.

لماذا هما عجولان؟ لم أكن عجولاً لِستِّ سنين. تركتُ ثيابي نائمة في الحقيبة ذاتها ستَّ سنين. تأمَّلت نفسي، يوماً بعد آخر، منزلقاً إلى مجادلات أكثر حكمةً، في الصمت الذي يحيط بي. كانت لغتي هي التي تنمو، كأنما أفضح عظامي أمام الوقت ـ وأنسلُّ أنا إلى فراغ الكِبَر ـ بما أمتلك من فصاحةٍ لتبرير اليأس الساحر.

أزدادُ صِغَراً، ويكْبُرُ الكلام. اللغة، وحدها، تنمو في الصمت. السنوات تنمو، واليقينُ مروحةٌ في يدِ عبدٍ مّا. ولأنني حرٌّ، كأسيرٍ، فأنا أزداد يأساً أيضاً، كأنما يتمِّمُ اليأسُ الحكمةَ، وأغدو ـ بنفسي ـ مُشرفاً على انتظاري كالحَكَمِ المُشْرِف على لُعْبةٍ.

«لماذا أتعلّم اليونانية؟»، ساءلت نفسي مراراً. لا أحتاج إلى محاورةٍ، بل إلى بضع ألفاظ للتّدليل على الخضار أو الفاكهة. المحاورة أمرٌ آخر. المحاورة تشهد كمالها في الصمت، لا في النُّطق. ولم يكن هنالك، على أية حال، أشياء كثيرة يمكن قولها للآخرين. لم يكن هنالك ما يقال. ويكفي أن تشير بيدك إلى جهة الجبل ليعرفَ جارك أنك أمضيت يومك بين الصنوبر العالي، أو أن تشير إلى جهة البحر ليعرف أنك تناولت سمكاً في مطعم مّا. أمّا الأناس الذين يتحدثون لغتك فهم لا يتكلمون قط. إنهم صدى أصواتهم. يسردون الحادثة الواحدة، بالنسق ذاته، حتى يتعب الكلام. ومن رتابة أيامهم الهائلة يمعنون وصفاً في المتعة التي يتسقَّطونَها من اختلاف التوابل، حتى أنك تفتح منخريك، لا أذنيك، وأنت تتنشَّقُ أقوالهم.

كان صعباً أن أتعلَّم رنين لغة أخرى، وأنا أنحدر، رويداً رويداً، إلى الفراغ المقفل في لغتي ذاتها. وسط انتظار لا تحتاج فيه إلاّ إلى شخص غامض ينقر على كتفك بإصبعه، ويشيرُ أنْ تتبعهُ فتتبعُهُ صامتاً. كان صعباً أن أكسر صمت الغريب الممتلىء بالعرفان لصمته، فيَّ. وكنتُ أرى في اللغة اليونانية عَقْداً، كأية لغة إضافية أخرى، بين المتخاطبين، تستوجب قدْراً من البحث عن منفذ إلى ما وراء الوحشة. لكنني لم أكن مستوحشاً، بل في حاجة إلى استنفاد خاصَّيَّة الأُنْسِ ذاتها؛ إلى استنفادِ أيِّ شيء يجعلني أنيساً، وهي خاصَّيَّة عرفتها من مَقْدرتي على الاستماع إلى الأحاديث اليومية، المتكرِّرة نأْمةً عن نأْمةٍ، متأمِّلاً في طنينها. وإذا لم يكنِ الأمر هكذا فكيف أفسِّر عدم انتحاري حتى الآن؟

غير أنني سأنتحر اليوم. سأنتحر. طائرا الحقل الأبلهان ملآني حيرةً وحَنَقاً. أكان ينبغي أن يطيرا؟ ألم أكن جزءاً من حركة الأرض البور، خلف الحديقة؟. أنا ريحُ الأرضِ البور خلف الحديقة، أطوِّقها مفتوحَ العينين أو مغمضَ العينين. أسبق موجة الهواء التي لم تصل بعد، من مكمن بيتي المفتوح إلى آخر عشب يبدو مصفرّاً قرب سياج حلبة «سباق الخيل». لم أراهن على نفسي من قبل، ولم أراهن على الهواء، لكن الحركةَ التي تتمايل بها نبتةُ الهندباء، والحركةَ التي يتقدم بها جسدي من الطائرين الأبلهين، هما مشيئةُ ريحٍ واحدة، فلماذا طارا؟

ربما عنَّ للطائرين أن يجتازا مواقع قوات «الأمم المتحدة» بين شطريّْ الجزيرة. ربما هما من الطيور المكلَّفةِ تدبيرَ حيلةٍ مّا توحِّدُ الهواء. غير أنهما كانا عجولَيْنِ كسيارات «الأمم المتحدة» ذاتها. المندفعة كالقَذر إلى مهمَّاتٍ مُخْتَلَقَةٍ؛ كالسيارات البيضاء تلك، التي تحمل صورة نعش دائريٍّ أزرق على هيئة الكرة الأرضية، وتصدم المارَّة، والحدائق، والحيطان، والعصافير، والأرصفة، والجنادب في الصيف، والزيزان، والأرواح الهائمة التي لا تُرى.

كانت مسرعة تلك السيارات، أبداً، في جزيرة لن تُقْدِم على قتالٍ. وكان الرجال البيض جداً، وبعض السود ذوي اللكنة المموَّهة كقبعاتهم الزرقاء، يتصرفون كجيش ذي دم أزرق، في شوارع المدينة وفي حاناتها معاً، ويتقبَّلهم السكان مُمَجِّدِيْنَ باسم عذراء

مَا وراء البحار، وكانت ثكناتهم مرفّهَةً كبشراتهم التي تجري من تحتها الجعة.

أمّا جنود الجهتين المتقابلتين، أتراكاً قبارصةً وأتراكاً يونانيين، فكانت متاريسهم الفقيرة واضحة في العراء، وسط ذلك المدّ من زهر البابونَج، غبراء كريح الجزيرة، يتقاذفون منها شتائم ثقيلة يبددون بها وحشة الليل، وفظاظة السُّهر. نعم. كانت المتاريس ترسم حدود أجسادهم، ويوحّدهم الصراخُ.

كانت ثمت حفرة خلف حديقتي، في الطرف القصي حنوباً للعراء الذي أترصّده. حفرة مموّهة قليلاً. وكان جنود قليلون يأتون، كل أحدٍ، ليتفقّدوها، فتهرع العصافير هاربة من حول فخاخي التي أزرعها. ولم يكن الأمر ليحتاج إلى حصافةٍ حتى أعرف ما الذي يفعلونه: كانوا يتأكدون من جدوى تلك الحفرة، مرةً بعد أخرى، كموقع لمدفع «هاون» صغير، ينصبونه قليلاً، ويشيرون بأيديهم، أو بعصيٍّ في أيديهم، إلى الجهات، ثم ينقلونه، ثانيةً، إلى «جيب» عسكري، ويرحلون. أما الحفرة فكانت تبقى مجرد حفرة، بقيَّة أيام الأسبوع، ينزلق إلى عتمتها الدافئة أطفال صغار، ويخرجون منها زحفاً على بطونهم، بعدما ملأوها صَخَباً.

كنتُ أتضايق من ذلك الرحم المموّه، المفضوح، في العراء الذي يلي حديقتي الخلفية، كأنما هو دعوة مفتوحة لإقلاقِ فخاخي أولاً، واقتحامُ غير مُبَرَّرٍ للصمت الذي ينبغي أن يحيط قبري ـ الذي أتمنّاه هناك ـ بأقفاله.

يحلو لي أن أُدفن في الأرض البور، أبعد من حديقتي الخلفية بمترين. تحت القشرة الرملية التي تحطُّ عليها طيور صغيرة، سريعة وبطيئة، مليئة وضئيلة، طائشة وحذرة، من يمامٍ، وهزّازِ ذيلٍ، ودوريٍّ، وسُمُّنٍ. يحلو لي أن يكون ظلام القشرة الأرضية لي، وأن يكون سطحها للفخاخ: أنا من تحت، والحديد البارد، المفتوح بما فيه من شهوة المعدن، من فوق.

اشتريت أربعة فخاخ، بعدما أعياني الحصول على سلاح آخر. قيل لي: «سيتدبَّر الرَّجل الكبير كل شيء». لكنني تعبت من انتظاره، ليتدبَّر لي حتى ترخيصاً لبندقية صيد، فآثرت فخاخاً صامتة لن يتذمَّر منها قاطنو الأبنية من حول العراء المفتوح، ذاك، الذي لا يحدّه غرباً إلّا حلبة سباق الخيل، المفتوحة، بدورها ـ من خلال السور

شَبكيٍّ - على أفقٍ متلصِّصٍ.
سأكون أكثر حكمة تحت قشرة الأرض الرملية، حتى لو لم أتصيَّد شيئاً بفخاخي.
إنّنا لن أتصيَّد شيئاً على أية حال، فقد ظننتُ العصافير تلك، النَّهمة - التي تلتقط مناقيرُها الديدانَ، والنملَ، والبذورَ، والرملَ، وحصى الشارع الإسفلتي، معاً - مدفوعة حمَّى حوصلاتها فقط، فزرعت الفخاخ مطمئناً إلى حيلتي. لكنني تقوَّضتُ. نعم، قوَّضتُ. سمعتُ خلاياي تنزلق، واحدتُها من فوق الأخرى، والغضاريفَ تطقطق، أما لعظام فتتنفّس باختناق، وهي تدفع العضل من حولها دفعاً يائساً لتغتنم الهواءَ خارج للحم: كانت سخرية العصافير، تلك، لا تُطاق.

موَّهتُ فخاخي طويلاً. موَّهتها بما لديَّ من حنكة المكان الذي جئتُ منه إلى هذه لجزيرة العائمة على ترابٍ سائلٍ اسمُه المياهُ. لم أدَعْ لثغرةٍ أنْ يبدوَ منها معدنُ الفخاخ ط، ثم نثرتُ عليها عشباً قصصته بيدي، لتستوي الأرض كما كانت. وقد فكرت برشِّ زيلٍ للرائحة على المكان حتى يعود عذريّاً لم يطأه غريب مثلي، لكنني ضحكت: عصافير تختبىء تحت ريشها كلابٌ صغيرة». يا للمزاح! أقدامٌ كثيرة تعبر، يومياً، هذا لمكان، والعصافير تحطّ غير عابئة برائحتها، فلماذا تكون لي، وحدي، رائحةٌ تُجفِلُها؟ بّما للفكرة رائحةٌ. ربما للفخاخ رائحة. ربما لهذه الشهوة الممسكة بتلابيبي، كمن توعُّدُ الآخرَ، رائحةٌ مّا.
تقوَّضتُ. سمعتُ خلاياي تتقوَّض وأنا أرى العصافير تقترب من فخاخي، ثم تدور ن حولها، ناظرةً في هزءٍ لا يُغْتَفَر. لكنني لم أكن أتوقَّع صيداً، على أية حال، بالرغم ن فداحة هذا الشعور العابق بخسارة معلومة سلفاً. فأنا، يقيناً، كنتُ أتأمّل قبري هناك، ، أرْجُلَ العصافير، وأتلمّس بالظلام المُخْتَزَنِ في أعضائيَ ظلامَ ما تحتَ القشرة الرملية لعراء ذاك، حيث سأكون أكثر اتّساعاً من يقيني ذاته، ولكلِّ شيء ممّا فوق تلك القشرة نهشّةِ رائحتي، لأنني أصعد ببخار طَبْعي الموحش إلى أعلى، بعدما أسلمتُ رسالة لكثافةِ إلى الكثافة، وانحدرتُ بخلاياي الذائبة إلى أسفل.
قبري هناك. بابونج، وسرْخَسٌ، وعشبٌ خجولٌ مُتْعَبٌ من فظاظة الأرض الرملية.

أمّا ما حولي فرَطْبٌ من أثر المطر الخفيف الذي قَدَّمَ تعريفاً خشناً بالربيع الفاقد لذاكرته.
ويداي رطبتان: حملتُ مظلّتي لحماية الطائرين فطارا، ثم عُدت إلى الداخل لأعلّقها إلى مسمار في حائط المطبخ. بعد ذلك خرجت، ثانيةً، لأستقصي ارتطامَ طائر ـ لم أر منه إلّا ريشةً واحدة ـ بغصون شجرات الليمون. لذلك يداي رطبتان، وأنا رطبٌ ممّا فيَّ من حماقة المتابعة لأمور لن تنتهي، منذ قرّرت الانتحار، صباحاً، حتى هذا العصر الذي بدأ يُعْتِمْ في تَسَارُعٍ، كأنما يهرب الوقتُ، بدوره، من ذاكرة الربيع.

قبري هناك. لكن عليَّ ـ أنا ـ أن أعود إلى الداخل مع المغيب المأجُور، المُقْبل في غير وقته، ليس لأنني أُزمِعُ القيامَ بترتيبات أخرى لإضفاء جمالٍ مّا على انتحاري، يُرضي فضولي كزائرٍ يتقدّم من الجثّة التي هي جثّتُهُ، ليراها على أكْمل ما تكون: هادئة. وديعة. مبتسمة ربّما. في وضع لا خشونة فيه. الرأس مسنود على الكتف. الساقان ممدّدتان. الشَّعر ممشّط، مع خصلة مُسْبَلةٍ على الجبين. العينان نصف مغمضتين، تنظران إلى حيث الورقة البيضاء الممهورة، على البلاط الأزرق النظيف، بكلماتِ تعزيةٍ من الميّتِ إلى الأحياء: «لا تقلقوا. القَدَرُ خَبْزان».

لا. لست مُزْمعاً على القيام بأيِّ ترتيب يضفي جمالاً على انتحاري، بل سأقدّمه كما هو، انتحاراً محضاً، عنيفاً بما فيه من شهوةٍ إلى الكمال الأخرس الذي يلي الجسد بشبرَيْنِ اثنين، أو الكمال الذي يستيقظ، في الجسد، إذا هدأتْ ثرثرةُ الدم. سأنثر دمي على كل ركن في البيت، ولن أنسى ثيابي النائمة في الحقيبة. سألطخها ثوباً ثوباً، حتى تكون تَركتي ثقيلة يحوجها غَسْلٌ قويٌّ، أو إتلافٌ. سأنتقل بنَزْفي من غرفة النوم إلى المطبخ، إلى غرفة الجلوس، إلى ردهة البيتِ، إلى أصص النبات القليلة، ولن أنسى الحيطان. سألقي بيدي حفناتٍ عليها، كلّما امتلأت راحتي بالدم. وسأنفخ بفمي على القطرات حتى تتشظّى في أشكال أشبه بأشكال السلطعونات. وهذا ما كنا نفعله بالحبر عادةً، حين تسقط قطرة منه على الدفاتر فننفخ عليها، ناسجين بأفواهنا صوراً للخلايا، والعناكب، والأخطبوطات.
لم أكن أدعُ الحبرَ يجفُّ إذا سقط على دفاتري المدرسية. كنتُ أنفخُ على القطرة

الزرقاء فتُسْلِمُ إليَّ أعماقَها الزاخرة بأشْكالٍ تفاجيء. كنتُ أعبث بها فتعبثُ بي. كنتُ أنفخ عليها في هدوء فتنفخ قطرةُ الحبر عليَّ في هدوء، وإذا نفختُ قوياً نفختْ هي قوياً: أنا أُشكِّلُها، وهي تُشكِّلُ ما يفاجئني. لكنَّ الاختلاف المُقْلِقَ أنْ ما من نفخةٍ منّي كانت تختلف عن أخرى (فالقويةُ قوية، والهادئةُ هادئةٌ) أما الأشكال التي تأخذها قطراتُ الحبر، بعد النّفخ، فلم تتشابه قط.

سأحرِّر دمي، إذاً، من أن يكون مجرّد خيوط سائلة على الحيطان، أو مجرّد بِرَكٍ صغيرة بين ركن وآخر. سأنفخ عليه وأنا أنزلق إلى الغيبوبة التي تُرشِدني إلى فضيحةٍ أكثر ترَفاً. لكنني سأستطلع، قبل تنفيذ هذه المهمة، ضجةً باتت غير لائقة بمحيط بيتي الصامت، من الجهة الشمالية بخاصّةٍ، حيث البيت الذي دخله النّزيلان الغارقان في معطفيهما. وفي غضب مكتومٍ تقدّمت من النافذة الكبيرة ـ ذات الستارة الرقيقة التي تضفي بهاءً على الحديقة الأمامية، والشارع، وعمود الكهرباء الذي يعلوه ضوء برتقاليٌّ مضحك ـ فرأيت جمعاً غريباً من رجال ودوابّ معاً، واقفيْنَ أمام ساحة البيت الذي قطنَهُ النّزيلان قبل قليل. أزحْتُ الستارة لأرى أوضحَ، ثم فتحت الدفّة الزجاجية، فهبّت عليَّ نسمة عابقة بخليط من التراب والورد، والهمسِ الذي تُحْدِثُه حركة أجساد الرجال، لا أفواههم.

كان حشدٌ كهذا حرياً بالإبلاغ عن قدومه في صخب كبير، لكنه كان هناك، أمام ساحة البيت المجاور، بغتةً. والذي اقتحمَ عليَّ شرودي لم يكن أصوات الدواب أو الرجال، بل طقطقةُ أجنحةٍ وتصفيقُها داخل أقفاص كانوا ينقلونها، من شخص إلى آخر، حتى تغيب في ظلام المنزل.

أقفاص كثيرة. أصوات طيور لا يمكن التأكد من أنواعها. رجال خُرْسٌ، في معاطف ثقيلة، وملاءات على الرؤوس كملاءات النساء المحتشمات، ودوابُّ بَدَتْ غريبةً تحت الضوء البرتقالي، لكنها خليط من الثيران والحمير البلقاء العالية. ولمّا انتهى هؤلاء من إنزال حمولتهم، دفعوا الدواب إلى الساحة الخلفية لذلك البيت، التي كانت مرآباً لمركبةٍ آلية، ومستودعاً لأغراضٍ مّا، ذا سقف مُرْتَجَلٍ من حصيرٍ وحبال معدنية، ثم غابوا جميعاً، واحداً إثر الآخر، داخلين إلى المنزل الذي لم أرَ ضوءاً فيه.

لم أغلق النافذة. كان المشهد شبيهاً بمشهد أبي وبعض رفاقه، ذات شتاء، وهم يعبرون ساحة البيت، بملاءات على الرؤوس، صوب غرفة الضيوف المفصولة عن باقي المنزل. آنئذ فتحت باب غرفتنا التي انسرب منها ضوء شحيح إلى الخارج، لأتأكد منهم بفضولي الصغير، فالتفت إليّ أبي، ثم أزاح الملاءة عن راسه ذي الشعر المجعّد الطويل، هامساً: «حضّر لنا إبريق الشاي».

كنتُ في الحادية والعشرين من عمري، آنذاك، مؤهَّلًا أن يرسم لي أبي مستقبلاً في صيغة أرادها خارج إحساسه بالخسارة التي كنا نستشفّها يوماً بعد آخر، في صمتٍ مُقْلِق. ولم يكن يتحدّث عن ذلك الدويّ الذي يقتحمه، ويقتحمنا معه، كأنّما يترك لنا أن نستنشق، بأنوفٍ معصوبة، تلك الريح الدموية القادمة من كردستان.

الأمور تتشظّى. تواطؤات هائلة ضد شعب يحاول إيجاد مكان مريح لأبقاره، وماعزه، وحنينه، وعظامه أيضاً. وأبي ـ الذي سمّاني «مَمْ»، بين دموعه الخرساء التي ذرفها مراراً على بَطَلِهِ «مَمْ»، الذي لم يترك شاعرُ الأكرادِ الأكبر الملاّ أحمد خاني منفذاً إلى تعذيبه لم يعذِّبْهُ منه، في حبه لـ «زِيْنْ»، حتى أن المُقْتَدِرين حفروا حفرتين في كتفيه، باقتلاع اللحم، وأوقدوا فيهما الشموع ـ كان ينحدر، بزائريه الغامضين تحت الملاءات، إلى شيخوخة عمياء، وهم يرسمون، بأخاديد وجوههم، المقاطعات الكردية التي تتساقط تحت ضربات جيوش كثيرة، من أقاليم كثيرة، لم يكن يجمعها شيء قط، من قبل، إلاّ اتفاقُها على حلم أبي.

كان غاضباً طوال الوقت، كأنّما كنا عقبةً في طريقه لدحر الكارثة. ويتفاقم انفعاله بسبب عجزه عن فعل شيء. لكنه يأتي، كلَّ مساء، بأناس غامضين، ومعروفين، تحت الملاءات، ليلتفت إليّ هامساً: «حَضّر لنا إبريقَ الشاي»، وكنتُ أُحضِّرُ إبريق الشاي على موقد الكيروسين الصغير، دون أن تنجو رموشي من اللهب الذي يخفتُ كثيراً، ثم يعلو، على نحو مفاجىء، كزهرة متفجّرة. أما شَعْر يديَّ، الذي كنتُ أتباهى ببروزه على معصميَّ، وجِلْدِ سُلاميّاتي، فكانت خسارتي فيه أَفْدَح، لأنه برهان رجولتي أمام عالمٍ أدركتُ، فيما بعد، أنه لا يأبه للشَّعْر كثيراً.

لم أعرف، حتى اليوم، ما الذي كان يهيئه أبي مع زائريه الغامضين، والواضحين،

لكنه ألقى عليَّ بثقله، وثقلهم، معاً، ذات يوم: «سنرسلك إلى الجزيرة ليُعني بك الرجل الكبير». وأنا، بالطبع، لم أناقش نفسي في مغزى صيغة الجمع في كلام أبي، بل استوقفتْني كلمة «الجزيرة». أية جزيرة؟ منطقة الشمال السوري يطلقون عليها اسم «الجزيرة»، بسبب المثلث الذي يطوِّقه نهر دجلة والفرات والخابور؛ لكن الحروف في لهجة أبي لم تكن لتدلَّ على الجزيرة السورية قطعاً. في استطاعته تسمية كل منطقة على حدة، أمّا أن يشملها بلفظة «الجزيرة» فذلك ما لم نكن معتادين على لفظه، إلاّ للغرباء عن الشمال: «نحن من الجزيرة». نحن من قرية «القبور البيض» شرقاً إلى أبعدَ من «رأس العين» غرباً. نحن من القرى المنثورة بلا أسماء على تخوم جبال طوروس شمالاً حتى تخوم جبال عبد العزيز وسنجار جنوباً. نحن من المثلث الذي تتغير فيه الأسماء الكردية، يوماً بعد يوم، بحكمةٍ مّا لا تحتاجُنا، ولا نحتاج إليها.

لم تمض أشهرٌ حتى كنتُ في هذه الجزيرة، التي تتحدث اليونانية، وتُدعى «قبرص»، بعد قرار أبي. خرجت على باخرة من الساحل السوري، ومعي توصياتٌ كثيرة، وتعهُّدات، وأرقام بيوت وشوارع، ورسائل، إلى «الرجل الكبير» الذي سيتدبَّر كلَّ شيء، لأن مهمتي كانت غير واضحة، على أية حال. وفي المرفأ، عند الجهة الثانية من البحر، كان في انتظاري أربعة رجال تدبَّروا دخولي، بعدما بدوت مرتبكاً أمام الرجال الحكوميين بأسئلتهم عن وُجْهتي، ومكان إقامتي، وغرض الزيارة. وقد اختصروا الأسئلة كلها بجواب واحد: «نحن نتكفَّل بوجوده». وهم تكفَّلوا بوجودي ستّ سنين، حتى الآن. أخذوني إلى امرأة تتخابث في كلامها، وهي تدير مكتباً لاستئجار البيوت، فدلتني على بيتي هذا. استأجرتُهُ وانتهى الأمر.

ست سنين. تدبَّر لي رجال «الرجل الكبير» إقامتي، ومصاريفي، ودلّوني على مطعم صغير، قرب البيت، يتحدث بعض روّاده لغتي، «ففي ذلك أُنْس لك» كما قالوا. وغابوا. فاستغرقت، ستَّ سنين، في الحديث ـ مع رواد المطعم الذين يتحدثون لغتي ـ عن التوابل، والأطعمة التي تتهتَّك أمام التوابل، وحروبِ التوابل، ويقين التوابل، والمستقبلِ الذي سيعصف بالبشرية إذا انقرضت التوابل، والقيامةِ التي سيُسْألُ فيها الشخص عن توابله المفضلة وهو يمضي إلى الفردوس أو الجحيم. لكنني لم أكن أطهو

الطعام في البيت قط، بل آكل في المطعم ذاك، ثم أعود إلى الغُرف الموحشةِ منتظراً رجال «الرجل الكبير» ليصطحبوني إليه، دون جدوى، مقرفصاً في أقرب مكان إلى الباب، حتى لا يفوتني ـ وأنا اليقظان أبداً ـ قرعٌ على الخشب السميك الذي يفصلني عن الجهة الثانية من مستقبلي.

لقد عنَّ لي، مراراً، أن أكتب رسالة إلى أبي: «لم ألتقِ صاحبكَ يا أبي» . . وردُّني أنَّهُ قد يراني دون اقتدارٍ على إدارة شؤوني: «ما همَّ. لم تلتقِ به. إلْتقِ بنفسك». نعم. سأنتظر، حتى لا أسمع منه، أو أقرأ: «تدبَّر لقاءك به. هذا شأنك الآن». وكيف أتدبَّ لقائي بمن لا أعرف عنه شيئاً؟ فتحت الرسائل التي كانت معي، والتي ينبغي على «الرجل الكبير» أن يقرأها، فوجدتها فارغة إلاّ من كلمات قليلة، مكرورة في كلِّها: «لا تُنصِتْ إليه كثيراً. اهتمَّ به حتى نسترجعَهُ».

«لا تُنصِتْ إليه . . .»!! يا لله. أهذا كلُّ ما لديهم من توصية؟ لماذا جئت إذاً؟ غير أنني ارتقبت مفاجأةً مّا، تقلب هذه التوصية رأساً على عقب. فإن التقيتُ «الرجل الكبير» سأجعله ينصت إليَّ، يقيناً، حتى لو بدوت ثقيلاً، لمرَّةٍ واحدة وإلى آخرِ ما هو مُقدَّرٌ لي. إذ ذاك، ربّما، سأكتبُ إلى أبي، دون تردّد: «لقد أصغى إليَّ يا أبي. كيف أصف لك اللقاء؟ يا للرَّجل. أوصلني أربعة من رجاله، في «بيك أب» إلى داره الفارهة، خارج المدينة، حيث السياجات الهائلة من أشجار الميموزا المقصوصة على أشكال هندسية، وكذلك شجر الغار والسرو». لا. أظن أن نوع المركبة لا يليق بمقام الرجل وبي رغبة في استبدالها: «أوصلني الأربعة الرجال في سيارة تستطيع أن تمدِّد ساقيك فيها دون بلوغ المقعد الذي أمامك. ولمّا وصلنا إلى داره الفارهة يا أبي . . . لم أرَ الدار أول الأمر، ونحن نحاذي السياج العالي الذي تحده، بكثافة، أشجار القيقب، واللوز، لكن البوابة التي انعطفنا صوبها أرتني المدخل العريض الذي لا يليق إلاّ بدار فارهة. وإذ عبرنا مشاتلَ من نبات كثيف، مُزهر، بدت الواجهة العريضة، ذات الأعمدة الرخامية، للمنزل الجاثم خلف النوافير الصغيرة. . وكان الرجل هناك . . ».

أعليَّ أن أشرح لأبي كيف عرفته؟. سأقول: «كان هناك، مبتسماً». وربما لم يكن هو، بل رسولٌ ينوب عنه. لا بأس. «كان هناك يا أبي. عرفته حين فتح ذراعيه على

سعهما، وقد أمال برأسه صوب كتفه اليمنى، كمن يعتذر عن تأخُّرٍ غير مقصود». أهذا
قْنعٌ؟ ولِمَ لا؟ إنه رجل. «الرجل الكبير» رجل، ولو كان خلاف ذلك لَمَا سمّاه أبي على
لك النحو. وأنْ أقولَ في رسالتي إنه كان يبتسم لي، فالرجال يبتسمون بعض الأحيان.
نِّ أن رسالتي منطقية، لكن وصفَ الدار لا يَروق لي، ما دام أبي لم يصف لي أيَّ مَعْلَم
ن معالم دار «الرجل الكبير» كي أتّخذه مدخلاً إلى وصفي أنا. بل لم أسمع أنه رأى
لك الدار، أو زار بلداً آخر غير بلده، أو جاوز الإقليمَ المحاصر بالفرات والخابور.

«لم نستقل سيارة لنقابل الرجل الكبير، يا أبي. ذهلتُ حين قال لي الرجال الذين
وا ليصطحبوني إنه يسكن بالقرب من منزلي. ستُّ سنين وأنا على هذه المَبْعدةِ الهيِّنة
أبي. وقد تتبَّعتهم، ذات مساء، متهدِّل الكتفين»، هذا ما سأكتبه. وسأسترسل:
اتجهنا إلى سياج حلبة سباق الخيل، غرباً، على مبعدة أمتار، ثم دخلنا من فُتْحةٍ تمزَّقَ
ن حولها شبكٌ من أسلاكٍ رفيعةٍ تمنع المتلصّصين، أيام الآحاد، من الدخول الى الممرّ
لذي تسلكه الخيل. قلتُ لهم: غريب. أينبغي أن ألتقي الرجل على هذا النحو، في
حقل بريٍّ وسط الحلبة الكبيرة التي لا تعرف غير لهاث الحيوانات البليدة تلك، وهي
راهن على المشاهدين الخاسرين أباً عن جَدٍّ؟ لم أسألهم مباشرة، بالطبع، بل ساءلتُ
سي، وأنا أتبعهم إلى الحلبة الكبيرة، المغمورة بعشب بريٍّ يتقصّف تحت الأرجل».

قبل أن أكتب هذا إلى أبي، أتفكَّر في مغزى توصيته إلى «الرجل الكبير» من
نديد: «اهتمَّ به حتى نسترجعَهُ». إنها مرحلة صغيرة لا بحثَ لي فيها عن مستقبل كالذي
يسمه الآباء لأبنائهم، لأن أبي يضعني أمانةً بين يدي «الرجل الكبير»، دون مطلبٍ
حدَّدٍ غير تدريبي على الاستعداد لأنْ يستردَّني.

ولماذا أرسلَ بي ليستردَّني؟ أهو يدبِّر انقلاباً على الحكومات من الأناضول إلى
مينية ليسترجعني، بعد ذلك، إلى إمبراطوريته الحرَّة؟ ألا يعرف أن الحكومات هذه،
تي تقاسمت قلبه الكرديَّ، ذا المصبّات التي تنتهي أنهارها إلى البحر الجنوبي
لمفضي إلى الخليج. وإلى «قزوين»، لا تقبل تسليم جُثث الكُرد إلى ذويهم إلاّ بعد
فع «نفقات الإعدام»؟ ربما لا يريد أن أسترجعه، هو، وأنا أدفع «نفقة إعدامه»، لأنه
ممسوس بالأمير بدرخان، الذي تولى إمارة «بوطان» و«الجزيرة» صَغيراً، ليحاول سرقة

الأفق من حوله، معيداً روح الكرديّ إلى اتّساعها، في أوائل القرن التاسع عشر، حيث يقف أبي ولا يغادر.

أنـا لا أعـرف كثيراً عن «أمير» أبي، الذي يبدو متسدِّداً في الجغرافية الكردية. ومـوحِّـداً أوّل للأمراء الأكراد. لكنني كنتُ أعابثه، دون قصد إيذائه. «أمراؤك يا أبي يدخلون الحروب الكبيرة ضد البارثتيين، والأشوريين، حتى «الباب العالي»، كلّما ملكَ أميرٌ مائةَ محارب. أليس عليهم أن ينتظروا بلوغ جيوشهم مائتي نفر؟». فيغمرُ براحة يد شاربيه الكبيرين، معقّباً على كلامي: «معقول. معقول».

أمراءُ مستعجلون، في الأرض التي تستعجل المصائرَ فتُخطىءُ اقتناصها، وأبي يردِّد أمام البرهة المنطقيَّة، المشفوعةِ بِذِكْر الأرقام : «معقول». وهو هكذا: مائتان أفضل من مائـة. ألف أفضل من مائتَين. عشرون ألفاً أفضل من ألف: «عليهم أن يجمعو أعداداً أكثر يا أبي. الأعداء كُثُرٌ، وعلى أمرائك أن تكون لهم فيالق كثيرة ليبدأوا قطيعتهم مع هذه الحكومات التي ترسم لروح الكُرْدِ حدوداً لا تليق بها». ويردُّ أبي : «معقول».

وأبي الذي يصغي إلى المنطق سيصغي إلى رسالتي أيضاً، ففي استطاعتي ذِكْرَ أشياء يعرفها حتى أعماقه، مؤكِّدَةً بمقدارِ تعليله للأمور: «ذات مساء دخلنا حَلَبَةَ سباق الخيل، المجاورة للمنزل يا أبي، موغلين في عشب برّي نسمع انكسار سويقاته تحت الأقـدام، دون همس، إلاّ ما كنتُ أتفـوَّه به، مستغرباً: أهذه هي الطريق إلى الرجل الكبير؟ فيتوقَّف الرجال الذين يصطحبونني متمتمين: أتعرف أنت الطريق؟

كنت لجوجاً يا أبي، والرجال الأربعة لا يحبون الأسئلة. لكن لم تكن لي حيلة في لجم لسـاني، بعـد تلك المفاجأة التي تتمثل في كون الرجل الكبير يسكن مكاناً كهذا، وعلى مقربة من منزلي!! ألم تفاجأ أنت أيضاً يا أبي؟ ست سنين وهو هناك، خلف السياج الذي أرى منه الخيول ـ كلَّ صباح ـ يدرِّبها صِبْيَةٌ صغار. بل كنت أسمع وقْعَ حوافرها وأنا في سريري، فأدرك أن الفجر يستأذنُ الليلَ للدخول على الأرض التي تليق به.

لا تهمُّ تساؤلاتي وأنا أتبع الأربعةَ الرجالَ يا أبي. إنهم يعرفون ـ قطعاً ـ طريقهم

في الأرض الغبية تلك. التي حرثتها صرخات المراهنين على الخيول البليدة، من أحدٍ إلى أحدٍ، حتى تكاد تسمعها بقية أيام الأسبوع، ملتصقةً ـ كالحلزونات ـ بسوق النبات، والجدران، وبالنهار الثقيل الذي يتواطأ ضدَّ نفسه، لأنه محكومٌ بالضجر حتى الليل. والليلُ في حِلٍّ من نفسـه، لأنـه محكوم بالنوم، لكننا ـ يا أبي ـ نتقدم في حلبة سباق الخيل إلى مَكْمَنٍ خفيٍّ فيها، إذْ يهمس أحدُ الأربعة، فجاءةً: «إحْنِ ظهرك»، كأننا في حملٍ يحيط به حَرَسٌ. وأنا ـ يا أبي ـ أحنيتُ ظهري في الظلام، دون أن أرى أيَّ شيء يستدعي الحذر. لكنَّ وابلاً من الرصاص انطلق في البرهة تلك، واشتعلت الحرائق في العشب اليابس، كأنما مكتوبٌ علينا أن نصل إلى الرجل الكبير بأقدام محترقة. وقد التصقنا بالأرض، زاحفين كالأفاعي. أعني أنهم كانوا يتقدَّمونني، وأزحف ـ أنا ـ من ورائهم. وكانوا واثقين في تقدُّمهم، ربّما لأنهم اعتادوا مواقف كهذه، بل أَلِفوها.

أهنالك آخرون، مثلي، أُرْسِلوا إلى الرجل الكبير يا أبي؟ كلُّ شيء بدا مدروساً، لذلك أسألك».

أعليَّ أن أضع نفسي في حقل رمايات، وأنا أكتب رسالتي إلى أبي؟. لستُ مقتنعاً بإيجاد مدخل إلى أملاك «الرجل الكبير»، وداره، عبر حلبة سباق الخيل. أجدُني مقبلاً على حكاية غير متجانسة قط. لكن، ما الذي كان متجانساً في حياة أبي حتى أُجانس رسالتي في ظلّه؟ هو هناك، وأنا هنا. لا أنتظر رسالة منه، ولا ينتظر رسالة منّي. هو على يقينٍ من أنه سيستردُّني، وأنا أشك في أن «الرجل الكبير» سيردّني إلى أبي، لأن «الرجل الكبير» ضائع في مكان مّا بين منزلي وحلبة سباق الخيل. وأنا لا أبحث عنه، بل أنتظره. ست سنين وأنا أنتظره، حتى ظننت ـ يقيناً ـ أنه هو الذي يبحث عنّي ليسدِّد إلى المستقبل ضربةً غير مُحْكَمَةٍ.

لكن عليَّ أن أكتب شيئاً إلى أبي، وإلى نفسي، معاً. عليَّ أن أؤكِّد أن طائريْ الحقل اللَّذيْن طارا بوغتا بوقْعِ أقدامٍ غير مرئيةٍ في الحقل الذي يلي حديقة بيتي الخلفية. عليَّ أن أؤكِّد شيئاً مّا يا أبي. أن أؤكِّد أن «الرجل الكبير» يُشرف على أموري، ويَدُه في يدِ شجرةِ الورد المتجهِّمة في حديقة المنزل الأمامية. عليَّ تبرير انتحاري يا أبي.

إذا كتبتُ إليك يا أبي سأكتبُ شيئاً يرضيك. فهؤلاء الذين يدخلون إلى منزلنا في الشمـال ـ وكـأنني أراهم يدخلون الآن، بعـد ست سنين من غيابي عنك ـ بحطّاتهم المعقـودة على الرؤوس كعمامات، وبعباءاتهم التي يلفّون أذيالَها على السواعد، لم يغادروا ـ آخر الليل ـ دون أن يسمعوا منك ما ينبغي أن ترويه: «الأكراد لا يخسرون» قل لهم ذلك يا أبي، وتأمَّلْ لِفَافتكَ المشتعلةَ وأنت تنفخ على رمادها حتى يسقط على راحة يدك المفتوحة: «الرماد». قلِ الكلمةَ ثم العقِ الرمادَ بلسانك. له طعمٌ عذب للرمـاد طعم عذب يا أبي: حمـوضـة خفيفة، وجفاف في اللسان لا يلبث أن يستدر اللّعاب. وقلِ «الأكرادُ لا يخسرون، لأنهم يملكون ألَمهم».

ردِّد كلمة «الرماد» دون تعليق يا أبي، فزائروك يعرفون الرماد. ما من أحدٍ منّا جُرِح إلّا سدَّ جُرحه بالرماد. يحرقون القماش ويسدّون برماده الجروح: الكبارُ والصغارُ، جيلاً عن جيل. وأنتَ، يا أبي، لا تُعَلِّقْ على الكلمةَ، بل قُلْها، وانظرْ إلى لُفافتكَ المشتعلة. فهذا ما كان يفعله الملاّ سليم في القنصلية الروسية، حين التجأ إليها مهزوماً في بداية القرن العشرين.

أنت تذكر لزائريك كم كانت فداحة الخسارة حين لم يجد هذا الملاّ، في ولاية «بِدْلِيسْ» بتركيا، ذخيرةً من العتاد والناس يستقلُّ بهم عن التّرك، وترفعُ أسفَك الكبير على مصرعه مشنوقاً في ساحة المدينة، بعدما داهم التُرك القنصلية الروسية إثر الحرب الكبير بين الإمبراطوريتين. لكنه، يا أبي، في الأيام القليلة التي قضاها لاجئاً إلى القنصلية، قبل أن تُقْتَحَمَ، كان يُعلِّم القنصل فوائدَ الرماد.

أكـرمَهُ القنصل الروسي حين التجأ الملاّ سليم إليه، كما يليق بقنصل أن يُكْرِم شخصاً قادماً بهزيمة فادحة. كان يقدِّم له، كلَّما اجتمعا ـ وهما كانا يجتمعان كل ساعة تقريباً، في الأيام التي لجأ الملاّ فيها إلى القنصلية ـ كؤوساً من حجر الليمون المُذاب في الماء مع إضافة السكر إليه. وكان الملاّ، إذا تجرَّع الكأس الحامضة، على ثلاث دفعـات، كمـا تقتضي السُّنَّة النبوية، وضع يده على معدته التي تحترق، وهو يشكر القنصل بكلمات كردية.

سبقه اسمه الى القنصل، فاستقبله القنصلُ لاجئاً. ولأيام كثيرة لم يتحادثا، بل

كانا يتقابلان بامتنانِ رجلٍ مهزومٍ إلى قنصلٍ يُنْبِئُهُ قلبُهُ بخسارةٍ لا بدَّ منها، وهو يرى الأتراكَ غادين رائحين من حول القنصلية بطبنجاتهم، وهم ينظرون شزراً إلى المبنى. أما كيف كان الملاّ سليم يعلّم القنصل فوائد الرماد فهذا ما لستُ أدريه، لكنه كان يعلّمه، برغم اللغة الخرساء بينهما.

«مُدَّ يدَكَ» يقول الملاّ للقنصل، وهو يمسك بيد الرجل ذي الوجه القَرْغيزيِّ، فيفتح الروسيُّ راحة يده، ناظراً في بشاشة من تحت نظارتيه المستديرتين الصغيرتين، بينما تراقبهما زوجه الصامتة في كرسيِّها ذي المسندين الخشبيين الملفوفين بمخمل أزرق. ولمّا تستوي راحةُ القنصل مفتوحةً يحرق الملاّ خيطاً يقتطعه من كُمِّ عباءته، بين سبّابته وإبهامه، وإذ ينطفىءُ يُسْقِطُ الرمادَ في يد الروسيِّ، وهو ما يزال على ابتسامته، فينظر القنصل إلى الرماد في راحته، ثم إلى وجه الملاّ، دون إبداء تفهُّمٍ للمسألة، أو تساؤل. ويلتفت، بعدئذٍ إلى زوجه الغارقة في كرسيّها كأنّما يستفسر منها عن شيء يغيب عنه، فتبقى المرأةُ البيضاءُ ـ جدّاً ـ في مجالِ سكونها البعيد، قلقةً من غير تصريح في ملامحها، وهي تمشط فروَ حيوان مّا بمشطٍ عظميٍّ كبير.

سبعة عشر رجلاً جعلوا دخول الملاّ سليم أميناً إلى القنصلية الروسية في «بدْلِيْسْ». حموه بطبنجاتهم من التُرك الطورانيين ـ بعد اتّضاحِ الخسارة ـ حتى سور القنصلية، ثم بقوا في العراء المديد أمام السور الذي مكّنوا الملاّ من عبور بوّابته، حتى قُتلوا.

الملاّ سليم البدليسيُّ كان كأمرائك الآخرين يا أبي. بكوكبة من الأكراد قرَّر ما لا يقدرُ عليه الأقوياء، وهو ينظر من «بَدْلِيْسْ» إلى «أرضْ رُوْمْ»، إلى «ديارْ بَكِرْ»، إلى «وْطانْ»، إلى «الجزيرة»، إلى المصبّات الكبيرة للأنهار القادمة من شمال طوروس، مثله مثل الأمير بدرخان الذي سبقه بأقل من مائة عام.

لم يتدخّل الفرنسيون الغاليّون ـ ولا أولاد الملك آرثر البريطاني، الذين لا يحجم البعض عن ردّ نَسَبهم إلى «لانسلوت»، عشيق زوجه ـ ضد الملاّ سليم، كما فعلوا مع سلفه بدرخان، بحجة حماية النّساطرة في إقليم «بوطانْ»، هذه المرّة، يا أبي. فالأخير

لم يكن يخيف، لذلك كان يشرح للقنصل الروسيّ، الهادىء، فوائد الرماد، كأنما سيحشو جرحه الكبير بكلّ ما ستتركه حرائق الأرض من رماد، وهو يعرف أن الرجل، ذا النظّارتين الرقيقتين، الجالس أمامه، لا يفقه من كلماته الكردية إلاّ ما تشير به يداه، من حركات، لا لسانُهُ. وكان مزمعاً أن يخفّف، قدر الإمكان، من حركات يديه أيضاً، فهو غير عابىء إلاّ بعينيّ الروسيّ اللتين تلمحان أَلَمه، هامساً: «الرماد. إقتطِعْ أيَّ خيط من سترتك واحرقه، ستحصل على رماد. انظرْ»، يقولها وهو يشير إلى سترته المُقَصَّبة. المنسدلةَ فوق قمبازه المصنوع في بلدة «زاخو»، ثم يعدِّل من وَضْع عمامته التي هي طربوش غير عالٍ، ملفوف بوشاح أصفر مقصَّبٍ أيضاً، مضيفاً: «اسْحَبْ خيطاً من أيّ مكان، واحرقْهُ»، ويلتفت إلى زوج القنصل، المتطلعة إليه من تحت حاجبيها الأمهقَيْن «لا تمشطي فرو هذا الحيوان كثيراً، فالبراغيث سريعة الغضب، يا امرأة». ويبتسم. ثم تخفتُ ابتسامته التي لم تكن أكثر من تعليقٍ على ارتباكه الخفيّ داخلَ هذه القنصلية.

ماذا يفعل الملاّ سليم؟ يُطْرِقُ يا أبي. يتوضّأ بطاسةٍ في سطل نحاسيّ. يصلي على سترته، لأنه لا يثق بطهارة سجاجيد القنصلية. وينظر إلى المرأة في خفر، واعتذار. فتنظر إليه كَمَن يتشمَّم مصيرَ الآخر، المُفْتَضَحَ، باعتذارٍ أيضاً. ومع هذا لم يكن القنصل الهادىء يخلو من بادرة مَرَحٍ، بين وقتٍ وآخر، فيرفع يديه وراء أذنيه مقلِّداً الملاّ حين يصلّي، ويَحني جذعه، ثم يتمطّى كأنما أتعبته الحركات البهلوانية تلك، فيبتسم اللاجىءُ الأسير.

وها أنتَ تبتسم، أيضاً، يا أبي، إذْ تقرأ رسالتي لزائريك، في المساء الخشن الذي يلفُّ بيوت الشمال، رافعاً ناظريك إلى الوجوه الممتلئة فجيعةً: «أرسلناه إلى الرجل الكبير لِيتعلَّم، فأرسلَ ـ أوّلَ ما أرسلَ ـ حماقةً مكتوبةً، فاعذروه». وتضحكُ متمتماً: «الملاّ سليم!! لماذا يسترسل في سردِ أخباره؟ إنه يُرضيني». وتثورُ. أراكَ تثورُ: «إنه لا يُرضيني، وبحثُه عن الرجل الكبير لا يحوجُه وصْفُ بيتِ الرجل الكبير».

أعتذرُ يا أبي. لن أكتب إليك الآن. من يدري؟ ربّما كتبتُ ما يليق بألمك وآلام زائريك فيما بعد. غير أن هذا الملاّ الذي أشعل ثورة في «بَدْلِيسْ»، دون أخبار كثيرة.

أو حرائق كثيرة، أو آمال كثيرة، يشغلني: ما صلته بالروس؟ لم يكن معه مُترجمٌ حتّى. أن أعرف ذلك. لكنه اختار القنصلية الروسية، تحديداً، وهو محاطٌ بسبع عشرة طبنجة قديمة تحميه، في يأسٍ صارخ. فتح حارسان بوابة سور المبنى، من الداخل، وانتظرا عن الآخرين يدخلون بدورهم، بعد دخول الملاّ سليم، فأشار بعض الذين مع الملاّ على الحارسين أن يُغلقا البوابة، ففعلا، وهما يرصدان حشوداً قرب زوايا الأبنية التي يفصلها عن السور عراءٌ مديد، ترابيٌّ، تتخلّله شجرات جوز متفرقة.

لم يدخل السبعة عشر رجلاً إلى القنصلية. أما الحارسان، اللذان قادا الملاّ، رَكْضاً، إلى سرداب مّا، فقد بلغ ارتباكهما أشدّه، وهما يختلسان، في قفزاتهما، النظر إلى الخلف، كأنما يحصيان القتلى. وفي برهة من البرهات الخاطفة تلك توقّف أحدهما، يشدُّ براحته على صدره في اختناق، صارخاً: «لا».

سقطت الطبنجات القديمة قرب عمامات متدحرجة، وأيدٍ مفتوحة لا يتّسع لها الهواء، في الخارج، أما في داخل القنصلية فقد تهاوى الملاّ جالساً على كَنَبةٍ ذات رسوم، مغمضاً عينيه، يشهق شهيقاً. ولمّا فتحهما وجد زوج القنصل، البيضاء جداً، تندّم إليه شراباً أصفر على صحن فضيّ، فتناوله مرتعشاً. شرب بعضه وردّ الكوب.

كان يفتح ذراعيه أمام الأشخاص القليلين الذين أتوا متطفّلين، من عُمّال القنصلية. فلقد خَسِرَ. ما مِنْ تبريرٍ لديه. خَسِرَ الملاّ. كان يرمي إلى توحيد كردستان فخسِرَ. ومع خسارته ابتسم لهم، واحداً واحداً، معتذراً على اقتحامه لهدوء بشراتهم، وهدوء الأيقونات الجليلة ـ المتكئة على خشبِ خزانةٍ سوداءَ، محفورٍ ـ تتوسّطها هالات نورانية كثيرة، بدا رَسْمُها سهلاً جداً، على العكس من الأجزاء البشرية، لذلك كانت كثيرة. وقد ردّدَ الملاّ سليم كلمتي «سبحان الله» مرتين وهو ينظر إلى هذه التجسيدات التي تجعل الغيب مكشوفاً على نحوٍ قاسٍ، وذلك ليس من أعراف دينه، الذي يحفظُ القُدْسيَّ للبصيرة، لا للبصر؛ ويهيّىء عظامَ الإنسانِ ـ بسُلاميّاتها، وتَرقُواتها، وأقْحافِها، ورضْفاتها، وظنابيبها، وفقراتها القطنية، وأضلاعها، وأصداغها، وشظاياها، وسيقانها، وأقفاصها، وفُكوكِها، وأرساغها ـ لنَفْخِ إسرافيلَ في الصُّوْرِ، وليس لسماع ذلك بالأذنين.

لكن على الملاّ أن يحفظ احتراماً لأسرار المكان في عينيه أيضاً، لذلك حين يستهجن شيئاً مّا يقع بصره عليه، يلتفت إلى القنصل أو إلى زوجه، ليرى العلامات على سحنةِ أحدهما فيتمثّلها على سُحنتهِ هو. أما الطعام فتختلف ريبته فيه، برغم ما يراه على الوجوه من ارتياح، حين يتناول رجال القنصلية وجباتهم على مائدة القنصل. فالسمك المجفّفُ، ذو الرائحة القوية، أثارَ حفيظتَهُ، وشرائحُ اللحم أثارت قلقَهُ، بما يعرف من إقدامِ الرّوس على أكلِ الخنزير، لذلك كان يتخيَّرُ الدجاج إذا حَضَرَ، أو الحساء وحده يغمسُ فيه خُبزَهُ الدّاكنَ. والدجاجُ دجاجٌ على أية حال، أما الحساءُ فلم يتفكّر كثيراً أن يضمنَ لإحساسه ما يخفيه الحساءُ.

لم يكن يتحدث إلاّ لماماً، بألفاظ قليلة وبإشارات قليلة. وإذا سكتَ شردَ إلى خارج القنصلية، حيث جمع التُّرك رجالَهُ وعلّقوهم إلى شجرات الجوز موتى. غير أن أمله لم يخِب، لحظةً، في أن يدخل موفدٌ ما، من جهةٍ مّا، يتحدث الكردية والروسية معاً، ليقول كلماتٍ أكثر رنيناً من إشاراته الفقيرة. بل كان يُصغي بقلبه وبأذنيه إلى كل حركةٍ تأتي من خلف أي حائط في القنصلية، حتى يكاد يُسْكِتُ بيديه الأحاديثَ الخافتة بين القنصل وزوجه ذات العينين العسليتين، اللتين لا تليقان ببياضها الصاخب، لكنه يتمالك نفسه متمتماً: «لا إله إلا الله».

كانت أخبارٌ مقلقة، بعد لجوء الملاّ سليم، تتدحرج من جيوبِ الداخلين إلى القنصلية، دون أن يفهمها الرجل ذو العمامة. ولمّا كان يواجه القنصلَ بسؤال من يديه عمّا يجري، يعمد الأخير إلى تطويق جبهته بأصابعه، ثم يبتسم مكرّراً كلمةَ تطمينٍ واحدة، إختصاراً للشرح الذي لن يفيد، على أية حال.

وأيُّ شيء لديه يمكن شرحُهُ للملاّ؟ فالقنصل نفسه يغدو، يوماً بعد آخر، رهين قنصليته، دون أمل في معجزة تحول دون الحرب. لكنه يقرِّر، بدافعِ سخاءٍ يائس، أن يُوْلِمَ للرّجل ذي العمامة، فينشر الصِّحافَ المليئةَ بالأرزِّ على مائدته، تلك الظهيرة الحمقاء، ويرفع أهراماً من الدجاج، والحَمَام، إضافة إلى خروف صغير تعمَّد إبقاءَ رأسه ملتصقاً بجذعه على السماط، لتطمين ضيفه اللاّجىء. وقد انفردت أسارير الضيف، بحقٍّ، بين الوجوه الشاحبة من حول المائدة الخرساء، ثم رفع إحدى يديه مشيراً بها إلى

الخط الذي تتراصف صحون الأرزّ على امتداده، ونظر إليهم، حين انتهى من حركته، ليرى أثراً من جملته الخرساء، فبدوا واجمين. حدّق في القنصل، ثم حوّل بصره إلى زوج القنصل، ثم إلى الهرم الصغير من اللحم وسط المائدة. وقام عن كرسيّه فتناول الصحن الذي أمام المرأة. ومدّ أصابعه ساحباً قطعة من أسفل ذلك الهرم، بَدَتْ منفلتةً، فإذا القِطع المُنَضَّدةُ بعضها فوق بعض تنزلق إلى إحدى الجهات، منتثرةً على المائدة ببخارها الحنون.

وَجَمَ الملاّ لبرهة وسط صمت الآخرين، لكنه وضع قطعة اللحم في الصحن، وغرفَ بيده حفنةً من الأرزّ كوّمها قرب تلك القطعة، ثم مدَّ الصحن إلى المرأة فتناولته.

لم يجلس، ولم يَحِدْ بنظره عن صحن المرأة، حتى تناولت، بملعقتها، أوّل لقمة. إذْ ذاك مدَّ يده إلى قطعة من اللحم، وهو يحمل صحنه هو، وإذ أمسك بها بين أصابعه القصيرة انفجر القنصل، ومن معه، في ضحك عالٍ، ثم مدّوا أيديهم العارية، دون ملاعق إلى الأرزّ واللحم. إذْ ذاك استرسلت المرأة البيضاء، الصامتة، في ضحكة مديدة بدورها، لكنها خافتة تحت المنديل الذي غطّتْ به فمها. فبقي الملاّ واقفاً، يُنَقِّلُ عينيه بين الجَمْع: «أنتم تتعلّمون بسرعة»، قالها وابتسم، مضيفاً، في وقفته: «أنا تعلمتُ بسرعة، أيضاً». ودار بعينيه على الوجوه الفضوليّة: «كان الشّقراق، الذي اتبعتُه، ضعيفاً في طيرانه». وخفّق بيديه خفقاتٍ ضعيفةً، مقلّداً جناحيْ طائرٍ: «كان ضعيفاً. لا أدري أيعودُ ضَعفُه إلى صغر سِنّه أم إلى إصابة مّا. لكنه كان ضعيفاً». ومسّدَ بإحدى يديه على لحيته الخفيفة جدّاً. وهو يُطرق: «لم أكن صغيراً لتخدعني حركته، آنذاك. كنتُ في سنٍّ تسمح لي بمعرفةِ أحابيل الطيور، فتتبّعتُ الشقراق مهرولاً، وأنا أكاد ألتقطه بيديّ، لكنه كان يتملّص مني بجناحيه اللذين يلمسان الأرض في خَفْقهما. يلمسان الأرض»، كرّر الكلمتين وهو يمسّد براحتيه على المائدة في انسيابٍ من الأعلى إلى الأسفل. ثم رفع عينيه، من جديد، إلى الوجوه الفضولية، دائراً عليها واحداً واحداً: «كمْ تظنّون أنني تتبّعتُ ذلك الشقراق؟ ها؟ فرسخاً، فرسخين، ثلاثة فراسخ؟ ها؟»، وابتسم مستخفّاً بجوابٍ لن يصل إلى مسامعه الكردية قط، فابتسم الجالسون من حول المائدة بدورهم.

«أنا»، وتوجّه الملاّ سليم بسبابته إلى صدغه: «أنا لستُ من النوع الذي يخدعه الشقراق»، ودفع صحنه إلى أمام، قليلاً، بيده: «لن يخدعني شقراق في طيرانه. لن تخدعني حتى الحدأة. أتعرفون؟..». وحَصَرهم بعينيه اليائستين، الخاليتين من أيِّ محاولة لإقناع الجالسين: «لن تعرفوا»، قالها مستدركاً، وصحّح من وَضْع عمامته التي لم تتزحزح عن محيط رأسه، حتى مالَتْ: «فعلْتُها..». قال الكلمة، واستسلم لسكونٍ أبويٍّ يستطلعُ منه أعماقَه، وأعماقَ هؤلاء المضيفين الذين لا يفهمون كلامه. ثم رفع يديه، في هدوء وقد بسطهما براحتيْنِ إلى أسفلَ: «هكذا ارتفعتُ». ولمّا أدرك لا جدوى شرحه هذا، خَفَّضَ يديه، متمتماً: «ارتفعتُ بجناحيَّ من فوق الشقراق حتى لا أصطدم به. وكنتُ أرى ظلّي يغمُرُه كلَّه، لكنني جاوزتُه لأن بقائي قريباً منه، بجناحيَّ القويَّين، يخفّفان كثيراً من حركة جناحيه الضعيفين». وجلس على كرسيه، ثقيلاً، يحدّق في فراغ مّا، خلف كومة اللحم التي انزلقت على المائدة: «لم أتصوَّر أن ظلّي سيكون على هذا النحو من الإمتداد، في طيراني».

لقد طار الملاّ سليم وهو يتبع الشقراق. بَسَط جناحين قويَّين من عضلٍ، وعظْمٍ، وريشٍ أبلقَ، وطار. لم يكن في حسابه الإنسانيّ أن يطير. كان يلاحق طائرَهُ الذي لم يستسلم، برغم ضعفه الواضح، فطارَ هو. قرّر ذلك في لحظة صعود الدم إلى صدغيْهِ، حين بدت اللعبة غير متكافئة قط: جناحان في مواجهة ساقين إنسانيتين.

«العدالةُ» صرخ الملاّ، أو كادَ، ثم ابتسم ليبدِّدَ إجفالةَ مضيفيْهِ الحائرين بين إبداءِ المرح أو إبداءِ اهتمامٍ في غير محلّه. وقرَّب صحنَه، رافعاً قطعة اللحم إلى فمه، بأصابعه، لكنه لم يقضمها، بل نظر إليها متأمِّلاً: «العدالةُ هي التي توزّع الأجنحةَ على اليائسين». واستدرك: «لم أكن يائساً. عرفتُ أنني سأسبق الشقراقَ بجناحيَّ اللّذين لم أكن على عِلْمٍ بوجودهما من قبل. البرهةُ هي التي علّمتني؛ البرهةُ التي جعلتْ غضبي، وخسارتي، في مواجهة جناحيْ الشقراق، انتصاراً لفضيحتها المحتملة». وضحك: «كنتُ إلى جانب الفضيحة التي أعطتني جناحين، فطرتُ مُجاوِزاً الشقراقَ ذا الجناحين الضعيفين. هاااا»، وقام عن كرسيه، مشيراً ـ بانفعال ـ من أول المائدة إلى آخرها، كَمَنْ يحصُرُ فكرةً يودُّ قولها على حدود تلك المائدة: «كانت الأرض، من تحتي، قريبة هكذا،

وواضحة هكذا: النملُ. النباتُ. التراب. جناحا الشقراق، وظلّي الأكبرُ من أن أحصرَهُ بهذه المائدة». وفتح يديه ليشرح أمراً لا تتّسع له حدودُ كلماته، فإذا بالصخب المداهم، من الباب البعيد، في الرواق، يطغى على كلّ شيء.

أُعلنَتِ الحربُ بين تركيا وروسيا، فداهم الأتراكُ القنصليةَ. اجتاحوا البوابة، دافعينَ بالحَرَسِ القابل جانباً. ثم اجتازوا ممرّاً مُنْخَفِضاً بضع دَرَجَاتٍ عن مستوى الأرض، فاصطدموا بالطاهية العجوز، فأخرسوها بإشارات من أيديهم، حتى وصلوا الباب الذي يليه رواقٌ يفضي إلى القاعة، فدفعوه بالأيدي، فإذا هم وجهاً لوجهٍ مع الجالسين إلى المائدة. ووسطهم الملاّ سليم.

قام القنصل عن كرسيّه، ولم تزل في فمه مضغة أرزٍّ ولحم. بُوغِتَ في البرهةِ تلك، لكن أعماقه كانت على موعد مع لعبةٍ كهذه. خلع نظارته متمعّناً في الأشباح الحاملة سواطيرها وبنادقها، وهي تتقدّم إلى حيث الرجل ذو العمامة، فجذبته جذباً. رفع يده في احتجاجٍ يائسٍ غطّى على قرقعة المائدة التي نهض عمّال القنصلية من حولها مذعورين، فأمسك بها أحدُ الأتراك المداهمين، ثم أنزلها حتى لامستِ المائدة، فيما كان آخرون يجرون الملاّ جرّاً إلى خارج حدود القنصلية وساحتها، حيث شجرات الجوز القوية، التي عُلِّقَ إليها جسدُ الرجل، وشدَّتِ الأيدي ساقيْهِ، من تحت، مراراً، لتتأكّدَ من أنها لم تخطىء إحصاءَ آخر نَفَسٍ فيه.

أشغلني هذا الملاّ، الذي لن أكتب عنه إليك يا أبي. أشغلني جناحاه اللّذان لم يرفع عنهما سترته ليطير بهما. كان في مستطاعه الإعتذار من مضيفيه: «اعذروني»، يقولها متطلّعاً إلى الوجوه من حوله، ثم يخلع سترته الطويلة، ليحرّرَ جناحيه، وهو يرتفع بهما، في خفقاتٍ قويّةٍ مُحْكمةٍ، من فوق المائدة فيتطاير الأرزّ، ويُشْدَهُ الجالسون. لكنه لم يطِرْ يا أبي، بل نظر إلى وجه القنصل، في اللحظة التي أمسكت الأيدي الغاضبة به من كتفيه، واصطدم بعضها بعمامته فسقطتْ عن شَعرٍ أجعدَ طويلٍ. وكان يبتسم بامتنانٍ لمضيفه المحاصَر، ثم يلتفت إلى المرأة البيضاء جداً معتذراً، فتغطي بوشاحها القصير عينيها، وهي ترمي الملعقة في غضب، معتذرةً بدورها.

أنت، أيضاً، تُشْغلني يا أبي. خسارتك هناك، وخسارتك هنا تُشغلانني. أقاليمك

في «أرضْ رُوْم»، و«بُوطَانْ»، و«بَدْلِيْسْ»، و«دِيارْ بَكِرْ»، و«الجزيرة»، و«كورمَنْشَاهْ»، وبحيرة «وَانْ» وجبالِ منابعِ الأنهار الكبيرةِ حتى الهضبات الروسية، تُشغلني يا أبي. لكن، ما الذي تقوله لزائريك الليليين، الآن، بعد ست سنين؟ أتحكي لهم عن إقامتي في كنف «الرجل الكبير»؟ سأعثر عليه، إانتحرتُ أم لم أنتحر، منذ الغد. فإذا انتحرتُ، يا أبي، فالمسألة أسهل، لأنني لن أتبع سير مَرْكبة الرجال الأربعة الذين يزورونني بانتظام، مؤكدين الاستعدادات القائمة على سيقانٍ من قصبٍ للقاء «الرجل الكبير»، فأسألهم:

«أيحتاجُ اللقاء إلى كل هذا الترتيب الطويل؟»، فيردّون:

«أيُّ ترتيب طويل أيها العزيز؟ اللقاء سهل جداً، لكن العثور على مكان إقامته يتّخذ منا، كل مرّة، سلوكَ طرقٍ جديدة تأكل وقتنا ووقتك. إنه في انتظارك. منذ وصولك وهو في انتظارك، ويعاتبنا على هذا التأخير». فأسألُ:

«خذوني معكم، وسنعثر، معاً، على الطريق، فذلك أفضل من أن تهتدوا إليه مرّةً، وتضيّعوه مرّةً أخرى». فيردّون:

«حين نهتدي إليه سنعود فنأخذك»، فأسألهم:

«وما الذي تفعلونه حين تغادرونني؟ ألا تعودون إليه لتخبروه أنني أنتظر؟»، فيهزون رؤوسهم:

«نحن لا نعود إليه»، فأصرخ:

«إلى مَنْ تعودون حين تغادرونني إذاً؟»، فيردّون في هدوء:

«نعود إلى التشاور في وجوب العودة إليك». فأصرخ من جديد:

«ولماذا تعودون إليَّ، بحقِّ الله، ما دمتم لا تملكون جواباً، ولا تعرفون الطريق إلى الرجل الكبير؟»، فيرفعون حواجبهم استنكاراً:

ـ علينا أن نعود إليك، لأنك برهاننا الوحيد على أنَّه أرسلنا في مَهَمَّة.

هكذا هي الحال يا أبي، لكنني إذا انتحرت فلن أتبع مركبتهم التي تنعطف إلى شوارع أعرفها ـ ولن أتتبّعهم إلى ما يرشدني، يقيناً، إلى «الرجل الكبير»، فأنا لا أثق بهم، وبمحاوراتهم المُتْعِبة ـ بل سأختصر، لأن انتظاري سيدلُّني على انتظاره، فهو في

حاجة إلى تأكيد سحره من جانبي. وإذ ألتقيه فلن أكون مُتْعَباً لأتحدّث إليه. المتعبون يتحدثون طويلاً يا أبي، وأنا لن أكون مُتْعباً. سيبتسم أحدنا للآخر. سيدلّني على جناحٍ مّا من بيته، حيث ألتقي فيه أكراداً آخرين، يؤكدون لي أنك تفعل ما يتوجّب عليك، لكن رسالتك إلى «الرجل الكبير» لا تُلزمني، لأنّ عليّ أن أتحدّث إليه موضّحاً أسباب وجودي هنا، وأنتَ لم تشرحها لي؛ هذا ما سيقولونه لي.

سأعثر عليه في الغد، يا أبي، فأنا ضجران في هذا المساء الذي يهبط برائحته المُعْشِبَة، وها أنا أفتح باب البيت متقدِّماً بضع خطوات في اتجاه الحديقة الأمامية، حيث تتر من ضَيِّقةً أمامي، تحت ضوء مصباح الشارع البرتقاليّ، فأنحني على شجيرة الورد الأولى هامساً: «تصبحين على خير»، وأنحني على الثانية هامساً: «تصبحين على خير»، وعلى الثالثة القصيرة، ذات الجذع الغليظ هامساً: «تصبحين على خير»، أما شجيرة الفلفل العارية فبيني وبينها ما يشبه العتاب. زرعتها في الحديقة الأمامية لأتباهىٰ بها، بينما زميلاتها يكبرنَ في الحديقة الخلفية، فخذلتني. هكذا. خَذَلَتْني. أهوَ التراب الذي لم يُسْعِفْ؟ رششتُ سماداً على الأرض بعد نكشها، ورعيتها سقايةً في بعض الأحيان، تاركاً للمطر أن يتولّى الباقي، فلم تكبر الشجيرة. حادثتها فلم تكبر. شرحتُ مقدار الحنان، الذي تختزنُهُ ورقاتُها ـ إذا أورقتْ ـ لمالك البيت، برغم تشاؤمه من زرع شجيرة فلفل في الحديقة الأمامية: «الفلفل للحديقة الخلفية يا صاحبي» قالها: «الحديقة الأماميةُ هي مظهرٌ من مظاهر ديمومة البيت. فازرعْ ما يدومُ»، أضافَ، وهو يرمق الشجيرة الذابلة في إشفاق.

جاوزتُ العُرْف المرعيَّ في تكوين الحدائق، لكن الشجيرة الخرساء لم تكبر. لذلك أحس، بأعماقي، أن عتاباً مّا ينبغي أن يقال، وأنا أقترب منها في ضوء المصباح البرتقالي الذي تكرّمت به الدولة على شارعنا: «لماذا لا تكبرين؟» سألتُها.

«أنا قلقة» قالتْ.

«أتقلق شجيرات الفلفل عادةً؟» سألتُ.

«ليس القلق، تحديداً، ما أعنيه، بل أنا حيرانة» قالتْ.

«حيرانة؟! حيرانةٌ ممَّ؟» سألتُها.

«لماذا تريدني مكشوفة أمامك؟»، ردّتْ.

«مكشوفة؟» رفعتُ حاجبيَّ، مضيفاً: «مكشوفة أمامي؟ أإنْ أخبرتني عن حيرتك تصيرين مكشوفة؟»، سألتُها.

«دون حيرةٍ يصير النباتُ مكشوفاً»، قالتْ.

«نحن نَحَارُ، كثيراً، ونبقى مغلقين على أمور ليس في وسع أحدٍ اقتحامُها»، أجبتُ.

«من أنتم؟»، سألتْ.

«نحن»، أجبتُ. مضيفاً في تأكيد صارخ: «نحن. نحن. ألا تعرفيننا؟»، سألتُ.

«آه. أنتم. نعم. تسيرون دون جذور. أعرفكم»، ردّت.

«جذورنا تختلف»، قلتُ شارحاً ما لن تستطيع شجيرة الفلفل أن تفهمه: «جذورنا هي الحنين.. هي الـ..»، قلتُ، باحثاً عن كلمة تليق بحوار بين إنسان ونبات، يكون لها حكمتها التي تختزل كل كلامٍ عن «الجذور»، فقاطعَتْني:

«لذلك أنا حيرانة».

«أحاول أن أشرح قَدْرَ ما تستطيعين فَهمَهُ»، قلتُ.

«وأنا أختصِرُ كثيراً حتى تفهمني»، ردّتْ.

لم أُقْنِعْها، ولم تُقْنِعْني شجيرة الفلفل المبتلَّة، في هذا المساء الربيعيِّ المُتَهدِّل. الذي أتقدم فيه إلى الحديقة، تماماً كما لم يُقْنِعْ «حَسَنْ خَيْري» قضاته، في «محكمة الاستقلال» التي أنشأها كمال أتاتورك، فحكمت بإعدامه. و«حسن خيري» الكردي، كان ممالئاً للأتراك الكماليين، في حضّه الأكرادَ على التهدئةِ إبّان «الانتفاضة» الكبيرة بقيادة الشيخ سعيد، في منتصف العقد الثالث من هذا القرن، لتحرير كردستان. وماذا كانت التهمة الموجهة إلى رجل حاول تطويق الغضب الكرديِّ بعدما أُفْلِتَ الزمام من أتاتورك؟ «كنتَ تحضر جلسات المجلس، في أنقرة، بالزي الكردي».

عَقَد التُّركُ مجلساً في أنقرة، على نحو طارئ، للتحكّم في كلِّ أثرٍ يتبقّى بعد إعدام الشيخ سعيد، ومن تلك الآثار استمرار انتفاضة الكرد. فاستخدموا أكراداً متنفّذين للمهمة، ومنهم «حسن خيري»، وكان طبيعياً أن يحضر الرجلُ جلسات المجلس بزيّه

الكرديّ، فواجهته المحكمة بفعلته هذه!! وقد أشار بيديه إلى ثيابه، في المحكمة، وهو يعضّ: «أتعنون هذه الثياب؟»، فرد القاضي: «نعم». فاحتدم «حسن خيري»: «لم يقل لي أتاتورك أن ثيابي محظورة». فألوى القاضي شفته السفلى: «كنت تقوم بالدعاية للأكراد، بقدومك إلى مجلس أنقرة في هذا الزيّ». فصرخ «خيري»: «ثيابي كانت تعطية، من أتاتورك، لأوقف ما لا تستطيع ثيابكم أن تفعله».

ومع ذلك حكمت المحكمة بإعدام «حسن خيري»، فألوى عنقه في انكسار: «لآن أنضم إليكم يا ضحايا كردستان». وفي الظهيرة التي أُعدم فيها الرَّجل الحائر بين يقينه الكرديّ، وبين انكساره كمُمَاليء لأتاتورك في تهدئةِ شعبه - حتى أنه أرسل إلى مؤتمر لوزان رسائل يخبر المجتمعين أن الكرد لا يريدون الاستقلال عن الأتراك - أُعْدِم بيطريّون أيضاً.

أكان الأتاتوركيّون يرومون الحدَّ من توسُّع قطعان الغنم، والماعز، في الأقاليم؟ أعدموا بيطريِّيْنَ كانوا يدورون بين القرى الكردية بمقصّات صغيرة، وبمحاليل كبريتية، وبعض الحظِّ الذي تغمرهم به عناية الله والريح. وكانت البهائم تنجو، إذا قُدِّرَ لها أن تنجو، وتموت إذا قُدِّرَ لها أن تموت، فيما يعلو لهاث البيطريين مع أنفاس مرضاهم ذوي الوبر والصوف، أو تحتبس أنفاس البيطريين وهم يجزّون الوبر، والصوف، ليدهنوا الجلودَ بمحاليلهم الحارقة. ولربما ضربوا، بقبضاتهم، على جباه الحيوانات تلك ضربات قوية حتى يسقط من أنوفها الدود، أو يثقبون، بمقصاتهم، خصور الأغنام ليطلقوا الريحَ من جسومها إذا انتفخَتْ.

كانوا بيطريِّيْنَ، يجوبون القرى حاسري الرؤوس، كإعلان عن معرفةٍ تستوجبُ من صاحبها أن يكون حاسرَ الرأس، لكنهم لا يلبثون أن يسدلوا فوق شعورهم المقصوصة حطّاتٍ تقيهم الشمسَ والغبار. وهم، بالتأكيد، كانوا ممَّن تعودوا ذلك في قراهم، لكنهم يظْهَرون للقرى الأخرى حاسرِيْن، كأنما يقولون لها - في استعراضٍ مُسْتَحَبٍّ - إنهم حازوا علومهم الكبيرة في مدن كبيرة. لكنهم خلطوا، عن قصد، في مهامُهم، بين الناس والحيوان، فكانوا يحادثون البهائمَ المريضةَ حتى يُصغيَ أصحابُها، وإذْ يدهنون الجلود بالكبريت يلتفتون إلى الناس هامسين: «هذه هي البداية».

والبـدايةُ تلك، التي بشّـر بهـا الـبطريون الأكراد، شملتِ الأرمنَ، والشركسَ، والآشوريين، بهدف تشكيل «مناطق متحدة مع كردستان الكبرى، بشعوبها المختلفة»، كما قال الأتاتوركيّون. لكن آمال تلك الشعوب أُعدِمتْ ـ آنذاك ـ بإعدام الشيخ سعيد، الـذي لم يستـطع مجـابهـة دهاء مصطفى كمال أتاتورك القادم بفرق المشاة الثانية، والثالثة، والثامنة، والثانية عشرة، والسابعة عشرة، وفِرق الخيّالة الأولى والرابعة عشرة، والكتيبـة الثـالثة والرابعة للجندرمة، والفيلق السابع للجيش، وأقسام من فِرق المشاة السـابعـة والواحدة والأربعين في «أضنةَ»، و«مَلاتْيا»، و«نيْغْرِيْ»، وأقسام من الفيلق التـاسع العامل في «ديارْ بَكْرْ»، واثنتي عشرة طائرة (بحسب معطيات السـيِّد اسماعيل حقّي، المشارك في الانتفاضة الكردية)، وكذلك مائتي ألف جندي تركي ضد أربعين ألف محارب كردي.

عشـائـر «دِيْرْسِيْمْ» خذلتِ الشيخَ، أيضـاً، وبعض زعمـاء عشـائـر «مُـوْشْ»، و«سِيْرْتْ»، و«سِيُورْكْ»، لكنه كلَّفَ الخزانة التركية خمسين مليون ليرة، وقد شكّل هذا المبلغ ربع الميزانية السنوية للبلاد، في العام ١٩٢٥.

كانت أرضَ رياحٍ تلك الأرضُ: شجر يتمايل وعشب يتمايل. أرواح تتمايل وسط رذاذ الشـلالات. يقين يتمـايل، وحكومات، وعشائر، وأحلاف، وجَسَارات، وتعب، ويقطين مجفّف، فيما الألم يكتسي وبَرَاً كوبر زهرة النعناع. وها هي النسائم تصل تباعاً، إلى حديقتي، فتهتز شجيرات الورد، التي تهتز معها تحيّتي المسائية، فأسمع صوتي عائداً إليّ، من مكانٍ مّا:

«لماذا طِرْتما؟»، سألتُ طائريْ الحقل اللذيْنِ حَطَّا في العراء المتاخم لحديقتي الخلفية، قبل ساعات.

«كي تتبعنا»، أجاب الطائران.

«أنتما تعرفان أنني لا أستطيع ذلك»، قلتُ لهما.

«نحن نطير ليتبعنا أحدٌ مّا»، قال الطائران.

«وما الذي تخبّئانه لي حتى أتبعكما؟» سألتُهما.

«طيرانَنا»، أجابا.

«وأنا كنتُ أخبىء لكما شيئاً»، قلتُ.

«طيرانَك؟»، سألا. فضحكتُ قائلاً: «مشيتي».

«مشْيَتُك؟» ردّدا الكلمةَ في استخفاف: «مشيتُك؟»، وأردفا: «ما حاجتنا إلى مشيتكَ؟».

«تلك مشكلتُكما»، أجبتُ.

«نحن نمشي أيضاً» أجابَ الطائران.

«وأنا أطير»، قلتُها. فاعتراهما استنكار كبير، بدا ظاهراً تحت الريش:

«أأنت تستخفُ بنا؟»، سألا.

«أتريدان أن تريا جناحَيَّ؟»، سألتُهما، فتضاءلا مذعورَيْن.

«لماذا انكمشتما هكذا؟»، سألتُ الطائريْن، فردّا:

«لم ننكمش، بل نصغي».

«إلى مَ تصغيان؟»، سألتهما مبتسماً.

«إلى قلبك»، أجابا.

«إلى قلبي»، قلتُ الكلمةَ ممازحاً، وأشرت بيدي إلى قلبي: «هذا. أأنتما تصغيان إلى هذا؟»، سألتهما، ولم أنتظر جواباً، بل أضَفْتُ: «هذا شيء لا يمكن الإصغاء إليه»، فقاطعني الطائران: «إلى مَ ينبغي أن نصغي، إذاً؟»، سألاني، فأجبتُ: إلى قلبي».

«إلى قلبك؟»، سألا مستنكريْن جوابي، وصاحا معاً: «قلنا لك ذلك. قلنا إننا نصغي إلى قلبك»، فسألتهما مبتسماً: «إلى أيِّ شيء تصغيان فيه، تحديداً؟».

«إلى خفقانه»، أجابا.

«يا لَلْفخِّ»، قلتُ. فصرخا حائرَيْن: «أيُّ فخٍّ؟».

«الخفقان»، أجبتهما.

«وما الذي ينبغي أن نصغي إليه فيكَ، إذا لم يكن قلبك؟»، قال الطائران، فأجبتهما: «أصْغِيَا إلى طيرانه»، فتضاءلا مذعوريْن، من جديد.

وأنـا، في تقـدّمي ـ هذا المسـاء ـ إلى الأرض المنبسطة تحت الضوء البرتقاليّ المبلول، أسمـعُ طَيَرانَ الحـديقة، أيضاً. أسمعُ طيرانَ شجيرة الفلفل الذابلة. لكن الضجيج القـادم من البيت الـذي حلَّ فيه النـزيلان الغـارقـان في معطفيهما، يُرْبكُ إصْغـائي، فأتقدَّم أكثر، حتى السور الحديدي المُنْخفِض، الذي يفصل حديقة بيتي الأمـامية عن جدار المنـزل بمتـر واحد، ثم أجتازُه بقفزة صغيرة، فأصير لصق النوافذ الممتدة على طول ذلك الجدار.

الصوت واضحٌ، الآن، لكن فضولي يُجاوِزُ الصوت، فأحاول التطلُّع من خَلَل أخشـابِ النـوافذ ذاتِ العوارض المتوازية، بحسب هندسةٍ قديمة، فأقعُ على أشكال مقسومة، مبتورة، تختفي وتلوح دون أن أقدر على تحديدها. فيما عليَّ أن أتطلَّع، يميناً، إلى حيث المرآب ـ أيضاً ـ وأنا أتشمَّم قلقَ الحيوانات، الجاثمة في الظلام، من حركاتي الخرقاء هذه.

ينبغي البحثُ عن نافذةٍ أُهْمِلَ إغلاقُها، إذاً. وها أنا ألتفُّ على الجهة الخلفية للمنزل، شرقاً، حيث شجرات البرتقال المزهرةُ في خَجَلٍ ربيعيٍّ، فأجد النوافذ مغلقة بتمامها، فأضطر إلى الالتفاف على المنزل غرباً، أيْ من جهةِ البوّابة التي يعلو سورَه زهـرُ الياسمين، المتقاطعُ مع شجرة «بوغانفيلي» تمتدّ بشكل قوسيٍّ من الأرض حتى سقف البيت، فأجد النافذتين الأماميتين مغلقتين أيضاً، فيما تصل إلى سمعي أصواتُ محتدمة، كأنما يقاطع الموجودون في الداخل بعضُهم بعضاً، وسط صخب كبير لأجنحة مذعورة تتصادم حيناً، وتهدأ حيناً آخر لتعلو أصوات طيور من مناقير شبه مقفلة.

لم يكن ثمت منفذ لرؤية شيء بوضوح، فانتابني حَنَقٌ. وضعت عيني اليمنى على قفل الباب أولاً، وعلى الشَّقِّ بين الدَّفَّتين ثانياً، ثم ألصقتُ وجنتيْ بالأرض، من أسفل الباب ثالثاً، ثم استويتُ واقفاً في مواجهة الباب كأنني سأطرقه، لكنني تذكّرت أبي. في برهةٍ خاطفة تذكَّرتُه: كان مجلسه يُحْدِثُ ضوضاء كهذه، دون أن يأتي أحدٌ محتجّاً. فزائروه الصاخبون، برغم دخولهم الهادىء من البوّابة، كانوا يخلطون ـ في انفعالهم بعد كؤوس الشاي الأولى ـ الواقعةَ التاريخيةَ بالواقعة التاريخية، والإختلاقَ بالموثوق:

«يا أبـا مَمْ، ليس في استـطاعـة الأتراك دخول جبال سَاسُوْن» يقولون موجِّهين

الكلامَ إلى أبي، فيردّ أبي، بوثوقٍ، على واقعةٍ تعود إلى منتصف العقد الثالث لهذا القرن: «طبعاً» يقولها مضيفاً من تحت حطّته التي يغيب وجهُه في ظلامها: «ليس في استطاعة الأتراك دخول جبال سَاسُوْنْ». وهو لا يقدّم برهاناً على ذلك، فالذي يقوله هو برهانٌ بذاته. «لن يدخلوا». لكنهم دخلوا جبال سَاسُوْنْ، حيث معاقل الكُرْدِ والأرمن، وسلّقوا رؤوس المطلوبين، مقطوعةً، في ساحة مدينة «آرْجيْمْ» الواقعة على الشاطىء الشمالي لبحيرة «وَانْ».

على تاريخ آخر أن يُقالَ - بعد سنين طويلة من انهيار انتفاضة «خادم المحاربين محمد سعيد النَّقْشْبَنْدِيّ» (كما سمّى نفسه)، أيْ «الشيخ سعيد»، في العام ١٩٢٥ - بدخول القرن الجديد عقدَهُ السابعَ. وكان على أبي - تحديداً - أن يُؤلِّفَ التاريخَ بحدودٍ «مدروسة»: «كيف يستطيعون دخول جبال سَاسُوْنْ؟ الريح لا تسمح بذلك»، فيردُّ زائروه بهزّات من رؤوسهم، موافقين: «لا. الريحُ لا تسمح بذلك». لكن الأتراك دخلوا جبال «سَاسُوْنْ» قبل تأكيداتِ أبي بعقود كثيرة.

وأنا لا تسمح لي شقوق الباب، في المنزل المقابل لبيتي، بحصرِ ما يجري فيه، فأكاد أطرقه، لكن الباب يُفْتَح، فجاءةً، فأُجْفَلُ، كأنما سأعتذر لأحدٍ مّا على وقوفي هكذا، نصفي في ظلِّ السّقيفة الإسمنتية لساحةِ ذلك المنزل، ونصفي الآخر في الضوء البرتقالي لمصباح الشارع. وقبل أن أتمالَكَ نفسي من المباغتةِ أرفع يديَّ، كيفما اتّفق، مدافعاً عن وجودي وراء الباب، فإذا بالشخص الذي يفتح لي يقول: «تفضّلْ مَمْ آزادْ».

زادَ بلبلتي أنْ ما من أحدٍ في هؤلاء الوافدين يعرف اسمي، بحسب اعتقادي، فكيف نُوْدِيتُ على هذا النحو الواضح؟ حروف اسمي قاسية. تبادرإليَّ ذلك وأنا أجتاز عتبةَ البيت داخلاً إلى ردهته ذات الضوء الخفيض. اسمي موحشٌ. وإذْ يناديني أحد مّا فكأنّما أُنادى من وراء القرون؛ من الوراء البعيد في أعماقي، حيث يقف حزن شفيف، وحسارةٌ شفيفة، بيني وبين التاريخ أبداً.

«تفضّل» يقولُها الشخصُ فأدخلُ. الضوءُ خفيضٌ. ردهةٌ وسيعة جداً تمتدُّ أمامي، وعلى الجهتين أقفاص كبيرة، وأناس متراصفون دون انتظام، يقابل بعضهم بعضاً في

صفّين مديدين. ملاءات تُغطي رؤوس الجميع، رجالاً ونساءً، والأصوات تصدر من الظلال التي تتماوج فيها الوجوه. ألتفتُ إلى الشخص الذي أدخلني، أبلّغه ارتباكي. وماذا ينبغي علي أن أفعل؛ بل لماذا دخولي، وكيفَ يعرف اسمي، فإذا هو الرجل الذي جاء، أوّلاً، مع زوجه، في معطفيهما الثقيلين. وكان ما يزال في معطفه على أية حال. ويده اليمنى في جيبه.

ابتسمتُ في بلادةٍ، فتأمّلني من تحت حاجبين كثّين، يعلوهما شَعر مشعّثٌ تفرّق على جبينه، ثم أغضى ناظراً إلى حذائه الثقيل، وعاد فأرسل عينيه، ويده اليسرى في اتجاه أولئك الجالسين، الذين لم يأبهوا لدخولي، هامساً: «هؤلاء هم الذين أكملوا انتظارَهم».

لم يخطر ببالي إلاّ أنه يتحدث ـ أو يحاول ـ عن «الرجل الكبير»، الذي أنتظره. وهؤلاء أكملوا انتظارَهم، أيْ: قابلوه. ذلك هو المنطق. وإذْ لاحظَ الرجل ذو المعطف الثقيل أنني أصغي كمن تفهّم ما قاله، بادرني:

«أتعرف كيف أكملوا انتظارهم؟»، فأجبتُ واثقاً:

ـ إلتقُوا «الرجل الكبير».

«أيّ رجل كبير تعني؟» ردّ، فأجبتُه:

«الذي أرسلني أبي إليه»، فأغضى الغارقُ في معطفه، هامساً:

«أبوك أرسلك إلى من يحتاجُ أن يلتقيك»، فأجبتُ مستغرباً:

«من يحتاج أن يلتقيني؟ أتعني الرجل الكبير؟»، فردَّ:

ـ نعم.

«ولماذا انتظرتُهُ كلَّ هذه المدة إذاً؟»، ساءَلْتُه، فردّ:

ـ «لأنك قادر على الانتظار أكثر منه». فساءَلْتُه، من جديد:

«وما الحكمة في كل هذا العبث؟»، فردَّ:

«أتبحثُ عن حكمةٍ؟ إبحثْ عن طائر». فرفعتُ كتفيَّ مستفسراً:

«أيّ طائر تعني؟»، فردَّ:

«الذي يبادلُك ريشَهُ بـ. . . »، وتوقَّف متطلعاً إليَّ في إمعان، فكسرتُ البرهةَ تلك سائلاً:

«يبادلني ريشَهُ بِمَ؟»، فقال:

ـ بالذي تستطيع أن تبادلَهُ به.

«وما الذي يبادله إنسانٌ بريش طائرٍ؟» سألتُ، فردَّ:

ـ بالذي سيبادله هؤلاء بريش طيورهم التي تصيَّدوها.

«من أين تصيَّدوا طيورَهم؟»، سألته في استخفاف، فأجاب:

ـ من هنا.

عضضت على شفتي السفلى مبتسماً في استخفافٍ أيضاً:

«ولماذا من هنا؟ أراهم قادمين من مكان آخر»، فأجاب:

ـ كل امرىء يتصيَّد طيرَهُ حيث ينبغي أن يتصيَّدَه.

«وماذا سيفعلون بعد ذلك؟»، سألته. فردَّ:

ـ سترى.

ثمت فكاهة تجري هنا، فأنا أستطيع أن أرى الطيور في أقفاص قرب الأشخاص الجالسين، لكن رَبْطَها بالحديث الذي يتواصل بيني وبين هذا الرجل، عسيرٌ قليلاً. أما «الرجل الكبير»، وأبي، وأنا، فحكايتُنا مشوَّشة برُمَّتها. واسمي؟! كيف عرف اسمي؟

«كيف تعرف اسمي؟»، ساءلتُ الرجل ذا المعطف، فردَّ:

ـ لكلِّ شخص اسم.

«باه» قلتُها، مُرْدِفاً في فكاهة:

«ليس لي إسم»، فأجابني:

ـ ليكن اسمُك ـ إذاً ـ مَمْ بن آزادْ.

أنا «مَمْ بن آزاد»، لكن ما اسمُ هذا العابثِ:

«ما اسمُكِ، أنتَ؟»، ساءلتُهُ، فأجابَ:

ـ إسألِ الرجلَ الكبير.

الحوار الذي يدور حماقةٌ، لذلك اتّخذ قراراً بالإنصراف من المكان، برغم ما يشغلني من أسئلة، وحيرة، في الآن ذاته، كأنني أحاول الخروج من مَصْيدة. والكلُّ يحسّ بمصيدةٍ تُنْصَب له، ذاتَ مرّة. هكذا أحسَّ طائرا الحقل. هكذا أحسَّ القبرُ الذي أريده في العراء الواقع خلف حديقة بيتي الخلفية. وأنا، بالطبع، أفهم أن يتوجّسَ الطائران منّي لُعْبَةً فيطيرا، لكنني لا أجد لقبري المزعوم ما يبرّرُ أنني أنصبُ مَصْيَدةً له: ما من كائنٍ ينصبُ مَصْيدةً لقبرِه.

والقبرُ الذي أريده في العراء هناك، يلتحم رمْلُه حتى يصير كَتِيْماً كحجرٍ؛ بل تغدو الرقعةُ الرملية، التي تلي حديقة بيتي الخلفية، أرضاً من الصوّان، أضرب عليها بمعولي ضرباً ترتجُّ منه عظامُ يديَّ، ويتطاير القَدْحُ، فلا تَنْحَفِرُ. فأضرب بمعولي، من جديد، في حَزْمٍ أقسى، فلا تَنْحَفِر. فأشتُمُ، فلا تَنْحَفِر. فأرْكُلُها حانقاً، فلا تَنْحَفِر. فأنحني على الأرض تلك، دون حيلة، هامساً من بين أسناني التي تآكَلَتْ مُبكِّراً:

«بالله عليك امنحيني قبراً»، فتردُّ الأرضُ الصَّلدة:

«وما حاجتُك إلى قبر؟». فيزداد غضبي:

«كيف لكِ أن تعرفي حاجاتي؟»، فتردُّ:

«بالقَدْر الذي تعرف أنت حاجاتي». فأستخفُّ:

«أنت تنتظرين، وأنا سأخبرك بحاجاتك فيما بعد»، فتردُّ سائلةً:

«وما الذي أنتظره؟»، فأقولُ:

«موتي»، فتردُّ:

«لا. أنتظرُ بحثَكَ عن قبرٍ». فأجيبُ:

«وها أنا أبحث عن قبرٍ. ألا تَرَينَ؟»، فتردُّ:

«بل تبحث عن شهوتك» تقولُ الأرضُ، فأستغربُ:

«أية شهوة تلك التي سأجدها في قبرٍ؟»، أسألُها، فتجيبُ:

«الشهوة هي أن تبحث عن قبر»، فأحْتَدِمُ:

«يا للحماقة...»، فتقاطعني:

«نعم. يا للحماقة»، وتضيفُ: «القبر هو الذي يبحث عنك، ويلتقيك في

المفترق الصغير الذي تتجرّدُ فيه من شهوةٍ بحثك عن قبر»، فأتثاءبُ من أثر نُعاسٍ لم يُدْركني بعد، هامساً:

«القبرُ أنانيٌّ»، فتردُّ متثائبةً:

ـ وأنت أيضاً.

لا. لن أسأل الأرضَ شيئاً كهذا بعد الآن، ولن أسألَ هذا الرجلَ، الذي يضع يده اليمنى في جيبه، عن مصدرِ معرفتهِ اسمي، بل سأخرج من الباب، لكنه يستدرك حماقةَ الحوار فيقف بيني وبين الخروج، حتى لَتَكادُ أنفي أن تصدمَ معطفَه، فأرفع عينيَّ إلى وجهه الذي يعلوني بشبرٍ، أو أقلّ، مستغرباً وقوفه في طريقي، فيهمس:

«لا تخرج الآن»، فأسائِلُه:

«ما الفرق؟»، فيردُّ:

«حتى أريك طائريْ الحقل اللذين طارا، فأغاظاك». فأحسُّ، آنئذ، أن لِلساني ثِقَلاً وجفافاً. وبرغم الدّعابة التي تملأ مباغتةً كهذه، أسائله جادّاً:

«وماذا يُدْريك أنهما الطائران نفسَاهما؟»، فيردّ:

«هما أيضاً سيتعرَّفان عليك. لقد حادثْتَهُما، من قبل»، فترتعش شفتي السفلى وأنا أحدِّق في هذا القادمِ من قَلَقٍ مّا:

«أتمزح؟»، أقولها، كأنني أردُّ عني ثِقَل العبث الذي يزداد حضوراً، فيجيب الغارقُ في معطفه:

«ألم تُحادثْهما؟»، فأنفعلُ:

«أتعني الطائريْن؟ من يحادثُ الطيور؟»، وألْتَفِتُ من حولي أستنجد بأيِّ شيء، مضيفاً: «أتستخفُّ بي؟»، فيبتسم حتى أرى التماعة خفيفة بين شفتيه، ويمدُّ يده إليَّ بورقة مدعوكة، قائلاً:

ـ إذن، استنسخْ لنا هذه، إذا كان لديك وقتٌ.

بدا جادّاً، فتناولتها منه وأنا على يقينٍ من أنه يعني ما يقول، بالرغم من محاوراتنا السابقة، المغالية في ترتيب الشبهات التي لا نتجاسر كثيراً على دَحْضِها. ولمّا فتحت الورقة بدتْ متآكلةً من حواشيِّها، لكن الحروف المتقطعة لطباعة قديمة جداً لم تهترىء:

«هؤلاء البروتستانتيون الألمان يكذبون عليكم».

قرأتُ الورقة مرتين، دون أن أسأل الغارقَ في معطفه عن مغزاها. وما الذي تعنيه ورقة كهذه، سوى التحذير من أولئك الشُقر الملتحين، الذين أصدروا مجلة «كردستان»، قبل الحرب العالمية الأولى بشهور قليلة، متوجهين بها، بلغة كردية ركيكة، إلى أكراد ايران، ليلتفّوا حول الحلف الألمانيّ التركيّ، «للضرورات التي تستدعيها وحدة العرق الآريّ»؟. غير أنني، دون فضول يُذْكر، أسأله عن كاتبها فيردُّ الغارق في معطفه:

- إنه الحاج سِمْكُوْ.

فأهَمهمُ من تحت شفتي: «كم نسخة تريد؟»، فيردُّ:

«ثمانين ألفاً...»، فأجْفَلُ:

«أتمزح؟!»، فيسألني: «أتستطيع؟».

«أستطيع. نعم»، أقولها، مُرْدِفاً:

«لكن هذا كثير». ولا أنتظرُ تعليلاً منه، بل أكْملُ:

«تستطيعون استنساخها، بسهولة، على آلة نَسْخٍ»، فيقاطعني بالتفاتةٍ من وجهه إلى الصفَّيْن البشريّيْن:

«نفضّلُ خطَّ يدك»، فأستغربُ:

«الكلمات منضّدة على آلةٍ، فما الضّرر أن تستنسخوها على آلةٍ؟»، فيردُّ:

«حسين مُقِرْيانيْ يَسَّرَ للبروتستانتيين الألمان أن يكتبوا بلغتنا على الآلات»، فأقول: «وما علاقة مَقِرْيانيْ بي؟»، فيجيب:

- «لا علاقة له بك، بل بهذه الورقة»، فأسأله: «أهو الذي طبعها؟»، فيهزُّ رأسه إيجاباً.

يقيناً، كما أنْ لا علاقة لحسين مُقِرْيانيْ بي، فليست له علاقة بالبروتستانتيين الألمان المبشّرين، أيضاً. لقد جمع نقوده القليلة، التي لم تَزِدْ على مائتي ليرة تركية، ليشري بمائة وعشرين منها آلةَ طباعة صغيرة من ألمانيا، ومن ثم نقلها الى حلب، في نهاية ١٩١٥، واختار إشارات جديدة في بحثه عن أحرف صوتية تُسْتَخدم في الفارسية،

ولا توجد في العربية، وعاد، بعد ذلك إلى ألمانيا لِسَبْكها، ليرجع، من جديد، إلى حلب، مُصدِّراً أوّل كتاب، وهو «مَمْ» و«زِيْنْ»، أيْ: الحكاية الشّعرية، التي وضعها الأكبر «أحمد خانِيْ» عن هوى من القرن الرابع عشر الميلادي أدْمَعَ العيون الكردية قروناً، فلم أنجُ - بعدما ذرف أبي دموعاً، أيضاً - من أن يلتصق بي اسم العاشق في حكاية «خانِيْ». لكنني لستُ أفهم، الآن، سببَ تفضيل هذا الغارق في معطفهِ أنْ أخطَّ الكلمات، المدوَّنةَ على الورقة القديمةَ، بخطِّ يدي!

«مُقِرْيانيْ لم يعلِّم البروتستانتيين الألمان لغةَ الكُرْد»، قلتُ للرجل، فهزَّ كتفَهُ:

«وما الفارق؟ تعلَّموها من حروفِ آلتهِ»، فرفعتُ كتفيْ بدوْري:

- كانوا سيتعلَّمونها من أحدٍ مّا، على أية حال.

كانوا سيتعلَّمونها - يقيناً - من أحدٍ مّا، لأن هؤلاء المبشِّرين وصلوا إلى كردستان قبل وصول غيرهم. و«مُقِرْياني» الذي كان يتقن الهندية، والعربية، والتركية، والفارسية، بطلاقة، إضافة إلى لغته الكردية، لم يكن مسؤولاً عن دخول الأُمم إلى كردستان عبر آلته الطباعية، فهي كانت مُحْدِقة بتخوم العظام الكردية «الهانئة» قبل تلك الآلة، وبعدها. و«حسين مُقِرْياني»، الذي عرف اللغة الروسية أيضاً، لم يكن مسؤولاً، مثلاً - بحروفه الطباعية، أو من دونها - عن لجوء الزعماء الكُرْد، الكبار، إلى روسيا، قبل اكتشاف آلته الصغيرة ذات الحبر الكثير، لأنهم وجدوا في انتصارات «امبراطورية الجليد»، على شرق إمبراطورية «الباب العالي»، حافزاً لتحالفاتٍ جديدة.

ومن المؤكَّد، أيضاً، أنْ ما من علاقة لآلة «حسين مُقِرْياني»، في العام ١٩١٥، بثورة المُلا سليم في «بَدْلِيْسْ»، وبالثورات الأخرى في «سِيْرْتْ»، و«خارْزانْ»، و«بُوطانْ»، و«شيْرْوان»، و«خَـ يتْ»، و«مارْدِيْنْ»، و«نُصَيْبِيْنْ»، و«مِيْدْيانْ»، و«الجزيرة»، و«ديارْ بكرْ»، و«زاخُوْ»، و«السليمانية»، و«كركوك»، وولاية «وَانْ»؛ تلك الأقاليم التي انتفضتْ قبل الآلة الطباعية لمُقِرْيانيْ بثلاث سنين، والتي «كان مخطَّطاً لها» - بحسب الدعاوى التركية - أن تنضم إلى روسيا.

آلة كالآلات الأخرى، استَنْسَخَتْ كُتُباً كردية كثيرة، واستنسختْ جُمَلاً كثيرةً، وألقاباً كثيرة، وآياتٍ قرآنيةً، ومدائحَ، ورُقىً، وأسماءً، وأشعاراً صوفيةً، وتواريخَ مُهْمَلَةً،

ورسائل، ووقائع عن انتفاضة الشيخ سعيد باللغتين الكردية والإفرنسية. ومن بعد وفاة «مُقرْياني» انتقلت آلتُه ـ التي ضمّخت روحَهُ بحبرها العابق برائحة الرّصاص المصهور ـ إلى «أربيل»، في العراق. ومن ثمّ ماتت الآلةُ أيضاً، حزناً على حبرها الذي لم يعد يكفي.

لكن، عليّ أن أستنسخ لهذا الرجل ثمانين ألفاً من الجملة التي أعطانيها، دون سؤالـه عمّن دلّـه على اسمي، فأنا ـ بحقٍّ ـ لا فضول عندي. وإذْ أنظر إلى الصَّفَّيْن البشريين في الردهة الكبيرة، تعروني سكينةٌ خرقاء، لأن الطيور المُحْتَجَزَةَ في الأقفاص، المبثوثة على امتداد الردهة، بدورها، تستسلم مثلي إلى سكينةٍ خرقاء، وسط السجادلات العـالية للشفـاه التي لا تُرى في الضـوء الشحيح للمكان. أما الرجل الواقف أمامي، والغارق في معطفه، فليس فيه ما يشجعني على الجلوس في مكان مّا، مثلاً، أو الخروج من المنزل كلّه: إنه يبتسم كلّما تطلّعت إليه. وأنا ـ بالطبع ـ أحيدُ بنظري عنه إلى كل الجهات، بسبب ارتباكٍ خفيفٍ مُذْ وجدتُ نفسي في مواجهة هذا الغريب. غير أنني حين أنظر يميناً لا ألبثُ أن أعودَ فأنظرَ إليه. وإذ أنظر شمالاً لا ألبث أن أعود فأنظرَ إليه. وإذ أنظر إلى الأرض لا ألبث أن أعودَ فأنظرَ إليه. وكذلك حين أنظر إلى السقف، أو إلى أعماقي.

إنه محطّةُ بَصَريٌ في هذا القرب بين وجْهَيْنا. وهو يخترقُ ـ بابتسامته التي تستنزفُ شيئاً مّا في بُرْهَتيْ ـ مدى ليس لي، بل لَهُ، عبر عينيَّ اللتين تستسلمان لامتداده، في الضوء الخافت للمكان. وأنا لا أريد، بانكسارٍ غامضٍ، أن أحدُّ من امتداده، كأنني أنجرفُ معه إلى بعيدٍ شاهقٍ، ناظراً ـ ببؤبؤيْنِ قويّين ـ إلى الحركة الخفيفة للأرض التي تستسلمُ لدعابةِ رياحها، وتوزّعُ القهقهات. أو كأنني، معه، في مهبٍّ مّا، يتطاير فيه ورقُ شجرٍ كثيفٍ، ورذاذُ مياهٍ، وتتدحرج أقفاصٌ، فأتفاداها، مُزرِّراً عليَّ قميصي المفتوحَ، الذي دخلتُ به هذا المنزلَ، مثبّتاً قدميّ ـ أكثر ـ في الخُفَّيْنِ اللذين أنْتَعِلُهما، في مساء ذلك الربيع المهدور.

إنه قريب مني، ذلك الغارقُ في معطفه، وأنا قريب من الباب بقميصي المفتوح، وبنطالي ذي الإنتفاخين في موضع الرُكبتين، وخُفَّيَّ المبتلَّيْن بقماشهما الربيعيِّ. ولأنني

لن أسائله عن تفاصيل تلحُّ عليَّ في هذا اللقاء العابث، فسأخرج ـ دون استئذانٍ حتى ـ من المنـزل، إلى المـدى الغـارق في الضـوء البـرتقـاليّ لمصباح الشارع، الموزّع ـ مناصفـةً ـ بين حديقة منزلي الأمامية، وحديقة المنزل الذي دخلتُه. وسأسلّم، من جديد، على شجيرات الـورد الثلاث، مودّعاً: «تصبحين على خير»، ثم التفتُّ إلى شجيرة الفلفل الذابلة، قائلاً:

«تَمَنّي لي نوماً هانئاً»، وستردُّ شجيرة الفلفل:

«لن يُقَدَّرَ لك أن تنام هذه الليلة». وسأستفسرُ:

«لِمَ؟»، وستردُّ شجيرةُ الفلفل ضاحكة:

«لأنك ستنتحر»، وسأضحك بدَوْري:

ـ ألا ترينَ أنني انتحرتُ، وانتهى الأمر؟.

لكن الرجل الغارق في معطفه ما يزال قريباً مني، وما أزال قريباً من الباب، وعلي أن أعتذر اعتذاراً خفيفاً لأخرج، دون مساءلَتِه عن تفاصيل تُقْلِقُني في هذا اللقاء العابث. وكأنما يستشفُّ الرَّجل رغبتي في الخروج، فيبادرني:

ـ لستَ مُلْزَماً بالبقاء، يا «مَمْ».

عندئذ أرفع يدي اليمنى، المبسوطة للمصافحة، هامساً في حَرَجٍ:

«تشرفتُ بلقـائـك»، فَيُخْرِجُ الرجل الغارق في معطفه، يدَهُ اليمنى من جيبه، ويصافحني، فأرتدُّ مُجْفَلاً، لأن اليد التي يمدُّها إليَّ ليست من لحم، بل أشبه بجناح صغير، في حجم كفٍّ مغطاةٍ بريشٍ أبيض.

الفصل الثاني

سَرْدٌ لا بدَّ منه لتكتمل نشأة «مَمْ» كإبن آوى.

كانت أصوات بنات آوى تجعل الليلَ حديقةً مضاءةً ببلُّور أسود. وكان «مَمْ»، الذي لم ينم بعد، يتقلَّب على فراشه المنبسط فوق سطح البيت، مأسوراً بقلقه من أن ينزل السلَّم، هذه الليلة أيضاً. وقد فتح عينيه على وسعهما، ناظراً ـ في استلقائه ـ إلى السماء الصيفية التي يعرفها أهل الشمال السوري شبراً شبراً، إذ ينامون في ساحات بيوتهم المسوَّرة، أو فوق الأسطحة، ليلاً، مختلطيْنَ بالظلام، فلا يمكن تمييزُ مواقعهم إلاّ إذا كانوا في أَسِرَّةٍ محاطةٍ بالكِلَلِ البيضِ التي تردُّ البعوض، أو يدخنون اللُّفافات فينعكسُ جمرها على الأعين، وإذ يطفِئونها يتناثر الجَمر كالحُباحب في ذاكرة الليل المُرْتَجَلة.

نجومٌ من فوق. مسافاتٌ مموَّهةٌ بين النجوم من فوق. ثغراتٌ تنفذ منها الجواميسُ إلى الجهة الأخرى، حيث الكونُ الأبعدُ، الذي يتدلَّى من قَرْنينِ كبيرين، في ما وراء عرشِ الله المُعَلَّق فوق المياه. لكن «مَمْ» قَلِقٌ من أن تتكرَّرَ الليلةُ الماضيةُ، فيتقلَّبُ على فِراشه. والليلةُ الماضيةُ، كما ينبغي توضيحها، هي الليلةُ التي وجد «مَمْ» نفسه فيها ـ حين كان متمدِّداً على فراشه، فوق السطح ـ يصغي إلى عويل بنات آوى، الآتي من الحقول الشمالية لمدينة القامشلي، بأعماقٍ لم يعهدها ساحرةً على هذا النحو. فالمعتادُ أن يكون لعويل الحيوانات الليلية هذه وقْعٌ موحشٌ أحياناً، وأنيسٌ أحياناً أخرى، بحسب

مزاج السّاهرِيْنَ، أمّا أن يقوم شخص مّا، من فراشه، كما فعل «مَمْ» ويتّجه إلى مصدرها، فذلك أمر لم يكن في الحسبان.

نزل «مَمْ» درجةً درجةً، على السُّلَّم الخشبي، من فوق السطح. وإذ لامس أرضَ فناء البيت، لم يلتفت إلى أبيه السّاهر وأصحابه الساهرِيْنَ، على سجاجيد من اللّبّاد الطويل الممدّد فوق الحصى والتراب، بل اتّجه إلى بوابة السور الحديدية، فدلفَ منها خارجاً، ليتّجه إلى غرب المدينة، حيث الحقول المرويّةُ والبُوْرُ، متجاورةً، تتزاحم على بقايا مياه من آلات الضّخ، التي باتت تنقرض من الأسواق، بعد سنوات قليلة من الهزيمة العربية في حربٍ دخلَتْها دون أسرار عسكرية، سنة ١٩٦٧، وهي السنة التي كانت من ذهبٍ، في حسابات «حَمْدِيْ آزادْ»، والدِ «مَمْ»: «كردستان الكبيرة ليست أكثر بُعْداً من حمرة هذه اللّفافة عن فمي»، يقولها وهو يستنشق الدخان إلى أعماق رئتيه، وعظامه. لكن «كردستانَ» حَمْدِيْ ابتعدت عن أصابعه الخشنة، يوماً بعد يوم، في التواريخ التي توالتْ بعد ذلك، إذ اجتمعتْ دولٌ مهزومةٌ كثيرة، من صحارى الشمال الأفريقي حتى خُراسان، لتنتصر على «حَمْدي آزادْ»، وحده، الضائع بين أنساب العشائر التي كان يُهَيِّؤُها، بحسب مفاضلاته، لتقود المستقبلَ الكرديّ.

بمنامَتِه المخطّطَةِ، وشعرِه الأشعثِ، اتّجه «مَمْ» إلى الحقول الغربية، عابراً بضعة زُقاقاتٍ بين البيوت الواطئة، ليصير وجهاً لوجه أمام العراء الكبير، الذي لا تحدُّه إلاّ هضبةُ قرية «الهلاليّة»، ودغلٌ صغير لم يبق منه غير جذوع شجر مقطوعة، وأخدودٌ كان نهراً ذات يوم، قبل أن يحوّل الأتراك مجراه، ليفاوضوا القارّةَ العربية، المُتْسَرِبةَ إلى الجفاف - بنقودها، وجيوشها، ومباهجها المُحَوَّلَةِ إلى مصارف أخرى، وعباءاتها، وقِتْالها، وغيومها، ورياحها، ولغاتِ أقاليمها - على بيعها ينبوعاً، أو ينبوعين، من مياه جبال «طوروس».

وكان «مَمْ»، كلّما توغّل في الدُّغل المهدور، انحنى بجذعه، متقوّساً، تدفعه شهوةٌ مّا إلى أن يسير على قدميه ويديه، معاً، وأن يتشمّم الأرضَ، المختبئةَ تحت قشرةٍ من أوراق الشجر الجافّة. وكان يحسُّ المكانَ، الذي كان معتماً من قبل، يتفتّح لحواسّه، فيعرفُ الجذوعَ الحيّة من الجذوع الميتة، والترابَ الخشن، الجافّ، من

التـراب الـرّطب الذي تبلّله الظلال. ويستطيع المرور عبرَ حلقاتٍ من الفُطر البريّ، الظاهر من حول الجذوع المقطوعة، أو المَخْفيّ في الأثلام، تحت الورق، أو الذي ينتظر أن تتشقّق من فوقه أغشيةُ الترابِ المنسوجةُ من مصادفاتٍ حَبَكَتْها الريح.

«مَمْ» ينطلق على يديه، وقدميه، أكثر خِفّةً. والمكان المعتم، في الليل، يتّضحُ، رويداً رويداً، لعينيه الثاقبتين. وهو ـ كما لم يعهد ذلك من قبل ـ يتشمّم الجهات كلّها، معـاً، بحساسيةٍ تُفَصِّلُ الروائحَ المختَلَطَةَ: هذه رائحة سويقات قمح محصودة؛ هذه رائحة حقل قُنّبيطٍ؛ هذه رائحة جدول مياه؛ هذه رائحة آدميَّيْنَ عبروا مسالك ترابية تصلُ الـدَّغـلَ بالهضبـة العالية؛ هذه رائحة أرضٍ بُوْرٍ، وأُخرى مرويّة؛ هذه رائحة قَطًا في أعشاشها المموَّهة بين الخرنوبِ البريِّ الملتصق بالأرض؛ هذه رائحة قُنِّ دجاج بعيد؛ هذه رائحة كلاب.

والأمر لا يقتصر على الروائح، بل يشمل الحركة، القريبة والبعيدة، سواء أكانت لأوراق شجر، أم لرفيف أجنحةٍ ليليّةٍ، أم لجرذان الحقول، أم لنموِّ نباتٍ مّا، أم لعبور الريح بين السويقات الجافّة لشُجيرات العراء، أم للعظام التي يتفاقم أنينُها في القبور البعيدة.

ثمّتَ حيِّزٌ هندسيٌّ لجسم «مَمْ»، كأنما يمشي هو والهواء معاً، بالتناسب ذاته التي في حركةِ ساقيه وقدميه. وثمّت توازن أكثر كمالاً بينه وبين الجهات، فهو يراها إذا مال بعنقـه المَرِنِ جدّاً، الآن، ويتشمّمهـا بأنف ذي مَنْخِـرَيْنِ واسعيْن، ويسـتطيعُ حصرَ الحركاتِ بأذنين مِفْصَليَّتين، تتحركان كعينيِّ الحرباء.

إنـه قريب من أشياء الأرض بعينيه، وقـريب من الأفق ـ أيضـاً ـ إذا رفـع رأسه المستطيل. تتحاشاه القنافذُ المهرولة تحت الضوء الشاحب للّيل، ويتحاشاها. تتحاشاه الحُباحبُ ويتحاشاها. وله وبرٌ خفيف يتقصى حركة الهواء، أما مخالبه التي يتشبث بها بأثلام الأرض، فهي، قطعاً، أكثر حُنْكَةً من قدميه الآدميتين، اللّتين اختفتا، مُذْ باتَ يمشي على أربعٍ.

كلُّ شيءٍ خفيفٌ من حول «مَمْ». رئتان قويّتان، والليل قويٌّ. وهو، بطَبْعِهِ الذي باتَ خالياً من أيةِ معرفةٍ إلاّ معرفةِ حواسّه، يحدِّد لنفسه ـ في حذرٍ ـ مداخلَ إلى الظلامِ

الـذي لا يعرفُ غيرَه، الآن، كأنّما لم يشْهَدِ النهارَ، قطُّ، من قبل، وكأنّما سياقٌ من الرائحة يحدِّد للأشكال أبعادَها، وشهواتِها، ومصادرَها، وبطشَها أيضاً. وهو، في تقدُّمِهِ الخفيف كروحٍ مجتهدةٍ في ترتيبِ اتّساعها، يتواطأُ ـ قليلاً قليلاً ـ مع الجانب المُشْكِل في الحقيقة، لأنـه ضجرانٌ من اليقين الـذي يمتـدحُ به الإنسان معرفتَهُ، ومصيرَهُ، وخسارتَه. أمّا الآن، في الخَلَلِ المُسْتَفْحِل لحظةً بعد أخرى، حيث ينقلب «مَمْ» إلى كائنٍ ليليّ، فلا يمكن الجزم بسيروراتٍ منطقية محسوبةٍ، ولا يمكن الإعوال حتى على خطِّ سيرهِ في اتجاه الحقول الشمالية، بعدما اتّجه غرباً، أول الأمر، مدفوعاً بغريزته ليلتحق بأسراب بنات آوى.

«مَمْ آزاد»، خفيفٌ كشبح، في الخَلْبة التي لا تحتمل إلاّ الأشباح. والسكون المنبسط كضباب رقيق على العراء، يهيّىءُ مِجَسّاتِهِ الإسفنجية لكلِّ مَا مِنْ شأنه أن يبتكر الهمسَ أو الصخبَ. أما المكان، المشدود كوترٍ، بين بيت «حمدي آزاد»، الواقع إلى غربي المـدينـة، وبين هضبة قرية «الهلالية»، فهو حُمّى. ففي النوبة الباردة، مثلاً، يُستَحْسَنُ على الطبائع أن تتجنّبَ الخوضَ في ذِكر الموتى، فهم ـ آنذاك ـ ينتقلون من ولاية «بَدْلِيسْ» الكرديّة، من كردستان لتركيا، إلى جهة لا ينشغل أحدٌ بمصير الأمم فيها، لأن قانـون الخامس من أيار، ١٩٣٢، ينص على أن الحكومة، بالاستناد إلى برامج مسبقة، تمنح وزارة الداخلية حق تعديل أماكن سُكنى الشعوب، بحسب ارتباطها بالثقافة التركية. والأكراد لم يكونوا مرتبطين بتلك الثقافة، لذلك كان على موتاهم أن ينتقلوا، من قبورهم، في ولاية «بَدْلِيسْ»، حائرِيْنَ.

امـا نوبـة الحمّى السـاخنـة، فلا طبائع فيها، بل تشمل ـ دون إنذار ـ أراضي «ماردِيْن»، و «نُصَيبِيْن»، و جزيرة «بُوطَانْ»، في منتصف هذه القرن إلى يومنا، حيث ينبغي على الكُـردِ القـاطنين ضفافَ نهر «جَغْجَغْ»، والمثلثَ المحاصرَ بمياه «دجلة» و «الخابور» وأجزاءَ من «الفرات»، أن يأكلوا ألْسِنتهم، فيما تعلو رطانةُ اللغةِ الأثوريّةِ، والسريانيّةِ، والأرمنيّةِ، في مدارس ذات سقوف من قرميد. والمَنْعُ مَنْعٌ شائعٌ على أية حال، فقد جاء في البند الحادي عشر من قانون تركي، في العام ١٩٣٤، أن كل من لا يعتبر اللغة التركية لغتَهُ الأمّ، يُحَظَّر عليه تشييد قرى، أو أحياء جديدةً، أو الانتساب الى

منظمات الحِرفيِّين والعمال. وقد جارى الأتراكُ جيرانُهم، بعد سنين، لكنهم استثنوا قوميّاتٍ، من غير الكُرْدِ، بقدرةِ قادرٍ، واختلطت معاهدات مُبْرَمَةٌ لاحقاً، بمعاهدات مُبْرَمة سابقاً. ففي العام ١٩٣٤ عُقِد اتّفاق بين الحكومة التركية، والايرانية، حول حسم المسألة الكردية، فأغلقتا الأبوابَ بين الدولتين للحؤول دون التجاء «قطّاع الطرق» إلى سورية، والعراق. وفي أعوام لاحقة تدخّل أناسٌ من الشمال الأفريقي، فسدّدوا ضربةَ الغَضْرِ الى روح «حَمْدِيْ آزاد»، الجالس الآن مع ضيوفه الساهرين. ومن ثمَّ تداخلتِ الامور على نحوٍ مُرْتبكٍ تشبه ما حصل في العام ١٩٣٠، حين سمح الايرانيون للأتراكَ بعبور أرضهم لضرب «الثائرين». ففي استطاعة الجميع، الآن، أن يدخل أحدُهم أرضَ الآخر، شرقاً، وغرباً، وشمالاً، وجنوباً، على اختلاف لغاتهم، لمطاردة «الكرديِّ الضّالّ»، بمعاهداتٍ مكتوبةٍ، وغير مكتوبة.

لكن «مَمْ بن حَمْدِيْ آزاد» متحرِّر من كلِّ هذا، الآن: إنّه وريثُ الريح، والليلُ مِلْكُهُ. يُجَاوِزُ الدَّغلَ المنهوبَ عشوائياً (إذْ يحتَطِبُ الجذوعَ مَنْ يستطيع حملها)، من الجهة الغربية للمدينة، بِخَطْمِهِ المرفوع الى الشمال، حيث تتسرَّب الرائحة القوّيةُ لفَصيلٍ من نوعه الحيوانيِّ المَرِح. وحين يصل الى مقربة من الأسلاكِ التي ترسم لسورية، ولتركيا، معاً، معالمَ ليست لهما، يألفُ نفسه وسط قطيع من بنات آوى، في حقل قِثّاءٍ مسوَّر بشجيرات باذنجان.

الموقفُ رخيٌّ وهانىءٌ: دُعابة كبيرةٌ ترتفع في الظلام، وسط حيواناتٍ يداعبُ بعضُها البعضَ الآخر عضّاً، ومزاحمةً، واحتكاكاً، ونُواحاً. و «مَمْ آزادْ»، في الموقف ذاك، مستسلمٌ للأُنسِ الذي يضرِّج روحَهُ، فيتمادى في انقضاضه على الحيوانات الأخرى، مداعباً بأنيابه سيقانَها، وخواصِرَها، وأعناقَها، ثم يرتدُّ على نفسه قافزاً في الهواء، وهو يتفادى انقضاضَها عليه، مُقَضْقِضاً بنواجذه، كأنما يلتهمُ الليلَ.

والليلُ، بحقٍّ، مُهَيَّأٌ للإلتهام. والليلُ متسامحٌ، حتى يوفِّر لكائناته طفولةً ليستْ كأيّةِ طفولة، لذلك يرفع «مَمْ آزادْ» عويلَهُ، كالحيوانات الاخرى، إلى حيث يتسنّى لصوته ان يمتدَّ، دون عائق قط، ودون توبيخ من أحدٍ، مهشِّماً كلَّ صوتٍ آخرَ من حوله، كأنّما يزعزعُ اليقينَ الذي للتراب الصامتِ، وللمياه الصامتة، وللنباتِ الصامتِ، وللهواء والله

الصّامتيْن.

أمّا القِثّاء فلَهُ طَعْمٌ آخر، الآن، إذ يهشّمه «مَمْ آزاد» بأنيابه، دون أن يلتهمه، لأنه إذ ينتهي من العبث بنبتـةٍ يداهمُ الثانيةَ، على النحوِ ذاته، كأنّما هَمُّهُ المَرِحُ أن يبعثرَ الخُضـارَ وورقَها المُعْتِمَ. ولمّا يَصْدُمُ شجيراتِ الباذنجان فإنما يتحاشى اقتلاعَها، أو كَسْرها، متشمّماً الثَّمرَ الأسودَ المتدليّ، الذي يزاحمُ الليلَ على أسراره، ويمتحنُ النهارَ بالشهوة التي في سوادِه الرقيقِ. لكنَّه لا يعبث قطُّ بشجيرة يرى بين أوراقها عصفوراً من نوع النُّمْنِمَة الصغير، داهمَهُ الليلُ فاستقرَّ بين الغصون.

إنهـا «نِمْنِمةٌ»، سيقول لنفسه. عصفورةٌ في حجم عُقْلَةِ الإصبع، وعليها ريش أخضرُ مشوبٌ بالرّماديّ، خائفة من عينيه البرّاقتين، لكنها لا تطير عن الغصن الذي بات نَبضُ قلبها ـ من شدّة التصاقها به ـ جزءاً من النّسغ الدافىء فيه. ولكي لا يزيدَ رعبها، يشيح «مَمْ آزادْ» بعينيه الحيوانيتين عنها، متمنّياً لو أنها إوزة، تحديداً.

ولَمّا يتمنّى «مَمْ آزادْ» أن تكون تلك العصفورةُ الصغيرةُ إوزّة، فذلك مردّه إلى انتقام بيئتِهُ لكلِّ ما هو كَلْبٌ. «الإوزّة كلب»، يردّدها لنفسه، متسائلاً: «كيف تسنّى لطائرٍ أن يكون له طَبْع كلْب، على هذا النحو، يا إلهي؟». فهو لم يعْتَدِ التراجع عن أيّةِ مزرعةٍ مفتوحةِ السياجات، أو مغلقة، إلاّ إذا أحْكَم كلبٌ مّا سُلْطته عليها. لكنه، حين غدا يافعاً، وباتَ أكثر أهْبةً للاعتماد على نفسه، بعدما تعوَّدَ التهامَ بقايا الحمام البريّ، أو الدجاج، أو اليقطين، أو فراخ البوم، التي يجيئُه بها أبواه الى الوَجْرِ، تعرَّفَ إلى طيرٍ لا يستسلم لمداهماته الليلية.

كانت نظرة منه، إلى دجاجة في قنّها، كافية لأن تسلّم عنقها إلى أنيابه، في شَلَلٍ نبير، كأنّمـا يُسْحِـرُهـا، أو يُنيمُها. وكذلك الدِّيكةُ الحبشية وإناثها، والبطّ، والحمام الأليف، النائم في الصناديق الواطئة، والأرانب أيضاً. لكن الإوزّة كلبٌ مسعور، تنقضّ عليه، إذا اقترب منها، في جسارةٍ أقرب إلى بلاهةٍ عمياء.

«لا أنياب للإوزة»، يقول «مَمْ» لنفسه. «لا مخالب جارحة»، يضيفُ، وبرغم ذلك يتحاشى طَبْعَها الصاخب، وهجومَها الوقائيّ. وهو يكره رائحةَ ريشها الذي يغطيه دهْنٌ خفيف، زَنِخٌ، وهي رائحة قريبة من رائحة الحمام. لكن جسم الحمامة لا يُفرزُ دهناً،

بل هو تجسيدٌ للخداع. والحمامةُ، ذاتُها، هي الخداعُ بذاته: صَلِفةٌ تستعينُ بيقين الإنسان الماكر لتتّخذ لنفسها حُظوَةً بين الطيور. وهي مرابيةٌ تبادل العصافير، من حول البيوت، هواءً زَنِخاً بهواءٍ مضاعَفٍ نظيف. ولا تستأنس بأحدٍ إلاّ إذا عرفتْ سذاجتَهُ، فتسرُقُهُ بوداعتها.

«الحمامة كلبٌ، أيضاً»، يقولها «مَمْ آزادْ» لنفسه، وهو يتشمَّم الليلَ الناعمَ كفراءٍ، فيما يحسُّ دغدغة خفيفةً على خاصرتيه أولاً، وعلى عنقه، وذيله، فلا يسائل نفسه في مصدرها. ومن ثم يحيط به هبوبٌ، من الجهات كلِّها، كأنما مراوحُ كبيرةٌ تضرب الهواءَ بأذْرُعٍ قوية، فيكاد يغلق عينيه. لكنه يرى، من بين جفونه غير المُطْبِقَةِ بتمامها، أجنحةً رماديّةً، في كل مكان ـ متمايزةً عن ظلام الليل، تَشقُّ صفوفَ شجيرات الفلفل، وحقول القنّبيط، والخسّ، واليقطين، والملفوف، ودغل الكينا والسرو (أو ما تبقّى من ذلك الدغل المهزوم) ـ مُنْتَفضةً رتْلاً رتْلاً، وقد تفرّقتْ، من حولها، زوابعُ صغيرةٌ، مرئيّةٌ، من التراب والورق، تشهدُ على خطوط انطلاق تلك الأجنحة، التي كانت غير متّصلة بأية هياكل، أو جسوم، بل تخفق خفقاً كأكفٍّ مبتورة.

وفي الظلام ذاك، في اللحظة التي اشتدَّ الهواءُ المُنْتَفِضُ زوابعَ من حول «مَمْ»، كان «حَمْـديْ آزاد»، يحتدم أمام ضيوفه الجالسين صفَّيْن متقابلَيْن على سجاجيدَ من اللبّـاد الخشن، التي ينْفُـرُ من تحتها الحصى، فيوجِعُ الرُّكَبَ، والكواحلَ، والأردافَ ايضاً. «لا يَسْألْني أحد، فأنا مثلكم، لا أعرف ما الذي يجري هناك»، ويشير بيده إلى الظلام الكبير شرقاً، وهو يكاد يلمس بأصابعه الخشنة نهرَ دجلةَ، والسفوح الجنوبية لجبل طوروس، والهضباتِ المتجاورةَ في أقاليم «كَرْمَنْشاه»، و «همذان» ببلاد الفرس، وتخوم «أرمينية» حيث سادت اللغة الكردية لقبائل «كُرْمَانْجْ»، و «كُوْرَانْ»، و «لُوْرْ»، و «كَلْهَرْ» على مثيلاتها الأريّة، وسُمِّيَتْ لغةَ «البَهْلَوانَانْ»، أيْ: لغةَ المحاربين.

وهنالك، بالتأكيد ـ غير «حَمْدِيْ آزادْ» ـ عارفون بالذي يجري في الأقاليم البعيدة عن «حَمْدي آزادْ»، والقريبة جدّاً من دمه. فالحقول لا يُخفى عليها ما يدبِّرهُ الإنسانُ للإنسان، ولا يُخفى الأمر ـ أيضاً ـ على الأدغال المتجاورة، أو المتباعدة التي يتنفَّس أحدُها مصيرَ الآخر، شجرةً شجرةً، من «كارْدُوْكْيا» بأواسط آسية، مروراً بميْديا وآشُوْر،

حتى «أرْضَرُوْمْ»، حيث أقامت قبائلُ يرددُ «حمدي آزاد» أسماءَها على أطراف أصابعه الخشنة، دون أن يلوي أصابعَهُ، كأنما يخشى إيقاظ تلك القبائل النائمة تحت درع تاريخها. ويشدِّد، تحديداً، على قبيلة «كُوْرانْ» المنحدرة من نسل الملك «جُوْدَرْزْ بن كِيوُ»، الذي كان له ابن يُسمّى «رَحّام»، أرسله «بَهْمَنْ الكِيانيْ» لتدمير أورشليم، فدمَّرها.

ويهزُّ ضيوف «حَمْدِي» رؤوسهم إجْلالاً، بين جمرات لفافاتهم اليقظى، فيؤكد «حَمْدِي» على مصدر كلامه: «هذا ما قرأه الملاّ جَكَرْ في كُتُبه». ويفتح ذراعيه على وسْعهما: «كُتُبٌ لا تحدُّها ذراعان. وفيها الكثير مما يقوله هِرْدُوْ عن الكُرْدْ»، وهو يعني بـ «هِيْردُوْ» هِيْرُوْدُوْتْ اليونانيَّ المؤرِّخ. ثم يعود إلى ذِكْر «رَحّام»، مبتسماً: «بُخْتَسْ» ويضحك: «اسمُهُ عند العرب «بُخْتَسْ»، وهو يقصد «بُخْتَنَصَّرْ».

والذي يجري هناك، في الأقاليم البعيدة عن مجلس «حمدي آزاد»، تلك الليلة مَثلاً، تعرفه الأصواتُ الحيوانية التي تتقاسمُ الظلامَ، مقاطعاتٍ مقاطعاتٍ، بالعويل المُنْسرِحِ، المُبْتَلِّ بلُعابٍ تنثره الحناجرُ حين ترفع بناتُ آوى أعناقَها صوب المقبرة الكبيرة التي تتبرَّج فيها النجوم.

عويلٌ كثيرٌ، متَّزِنٌ، هندسيٌّ حتى الذُّعر، يتساقطُ من الحقيبة المثقوبة لساعٍ غير مرئيٍّ، يعبر حقولَ كردستان، بطيئاً، بخُفَّينِ حجريَّيْنِ؛ عويلٌ يتناثر كالهندُباء، أو حُمَّيضِ الأنهار، أو النعناع الطُّفيلي الشرس، أو الحرشوف، أو الباقلاّء، أو الهواء المتيَّم بتفتيتِ أجناسه، فتأكله بناتُ آوى، لتُعيدَ إطلاقَهُ من حناجرها أكثر فتنةً، كأنّما تحاول أن تستدرج الحياةَ إلى الإشكالِ الذي ينتظرُ بقميصه الحريريِّ.

و «مَمْ آزاد» يطلق عويلَهُ، أيضاً، بين جنسه الحيوانيِّ، رافعاً عنقَهُ على شكل قوسٍ مشدود، فيما يهتزُّ لسانُه الطويلُ اهتزازاً قاسياً داخل فكَّيْه المفتوحين في صرامةٍ. ثم يسكتُ متقدِّماً وسط سرب بنات آوى، شمالاً، عابراً حقول البامية التي تترك حِكاكاً على قوائمه، حتى يصلَ الحدودَ التركية ـ السورية، فيجاوزُها، عبر الأثلام الآمنة من الألغام، متشمِّماً الغُلَّيقَ الذي يطمئن المهرِّبون، بدورهم، إليه، إذْ لا يمكن نَصْبُ كمائن قاتلة تحت غصونها الشعثاء. فإنِ اقْتُطِعَتُ الغصونُ، أو اقْتُلِعَتُ الشجيراتُ هذه، فإنما تترك

رائحةً كرائحة الطمي في أوّل جفافه.

غير أنَّ حركةَ ساقَيْ «مَمْ» الخلفيتَين ـ وهو ابن آوى، الآن ـ أشبهُ بحركة ساقَيْهِ حين كان صبيّاً يتبع والده العَجُول، من حقل الى آخر. «أبي»، يصرخ مهرولاً، فيلتفت إليه والده زاجراً: «متى ستتعلّم أن تصير أخرسَ؟». وهذه حالهما، في كلِّ مترين يقطعانهما، حذرَيْنِ: الأبُ والإبنُ معاً. يحمل الأول بندقية من عيار ١٢ ملم، والثاني فخاخاً لا يملك وقتاً لنصبها، بسبب أبيه العجول.

فإذا تخلّف «مَمْ» عن أبيه ناداه الرجل ذو الذقن غير الحليقة، من تحت حطته المسدلة على جبينه. وإذا تقدّم «مَمْ» والدَهُ زجَرَهُ الأخيرُ، كأنما يريده جزءاً من ظلّه، ومن حركة ظلّه، ومن الهواء الذي يبدّدُهُ بجسدِهِ المتلهّفِ إلى فجيعة مُحْتَمَلةٍ.

«مَمْ» في بنطالٍ واسع، وقميص واسع، كأنما استعاره من أبيه. شعره مقصوص دون انتظام. والأب «حَمْدي» في بنطال واسع، بدوره، وسترة كاكية ذات جيبين كبيرين، وحطّة مشوّشةٍ على الرأس، تكاد تغطي الوجه الصارم، غير الحليق. بندقية ذات خشب حالَ لونُه البنّيُّ الغامق، فغدا أصفرَ في مطارح كثيرة. وفخاخٌ عَلِقَ بها ترابٌ رطب، في أوّل الخريف الدافىء، وهو الفصل الذي ينتظره الأب، عادةً، ليسوّيَ حسابَهُ مع الحقول المكشوفة كأحشاءٍ تقدّمها الأرضُ هِبَةً للمناقير.

أبٌ، وابن، وبندقية، وفخاخ، وحقول، ولهاثٌ، وانتظارٌ مُتَرَقِّبٌ، وريحٌ رخيّةٌ، ونظراتٌ بشرية، ونظرات نباتية، وغيوم قليلة من فوق، وطيور تتدارسُ الموقفَ:

«لماذا يستعجل الأبُ إبنَهُ؟»، يسأل الهدهُدُ، من بعيدٍ، شريكهُ السنونو، الذي يتأهّب للرحيل، فيردُّ الطائر الرقيق، ذو الذيل المتشعّب:

ـ الآباء مستعجلون، أبداً.

فيميل الهدهد برقبته صوب السنونو، وقد تهدّلت قُنْزعتُه البهيّة:

«لستُ متأكّداً من ذلك، لأنني أرى الصّبيَّ مهرولاً بدوره»، فيبتسم السنونو:

ـ حين يستعجل الأبُ في مشيته، فعلى الابن أن يلحق بِهِ هرولةً.

«لو كان له جناحان...»، يقول الهدهد، فيردّ السنونو:

ـ ولماذا الجناحان؟ إنّهما سيعوقّانه.

«ألا ترى أنه يحاول اللحّاق بأبيه؟ سينفعهُ الجناحان»، يقول الهدهد جادّاً، فيردُّ السنونو:

ـ لا يحاول هذا الصبي اللحاق بأبيه، بل يلحق بنفسه ليصير أباً.

يصمت الهدهد غير راضٍ عن جواب السنونو، فيما جناحاه يرسمان حركةً دائرية، ملساء ذات نقوش، فيقطع صمتَهُ السنونو:

ـ ظنَّ جدُّك الأول انه دلَّ مَلِكاً على الماء، فيما كان الملك المذكور يستعجل خطوَهُ ليلحق بأبيه.

«أيَّ مَلِك تقصد؟»، سألَهُ الهدهد، فردّ الطائر ذو الذيل المَرِح:

ـ سليمان، الذي اخترعته بلقيس أمام زائريها.

«كان جدّي الهدهدُ في حاجة إلى أن يخترع، بدوره، حكايتَه»، أجاب الهدهد الحفيد، مضيفاً: «استعار مَلِكاً من حلم بلقيس ليقودَهُ الى الماء».

«بل كان سليمان يتبع أباه، في حلم جدِّك الهدهدِ، وأنا لم تَرُقني الحكاية»، قال السنونو.

«لستُ مُعْجَباً بالحكايات، عل أية حال، بل بطيرانك»، همس الهدهد من وراء جناحيه المسترسلين في أسْرِ الهواء، دائرياً، بنقوشهما العنيدة. ثم خفّف من سرعته، محيّياً، في أدبٍ جمّ، حمامةً مرّت به، فسأله السنونو:

ـ من هذه؟

ـ حمامة نوح.

فضحك السنونو: «إنها تقود سفينتَهُ التائهة، إلى أبيه. يا للحَمامةِ...»، ودار على نفسه مُقَهْقِهاً. فاحتدمَ الهدهدُ:

«الآباء. الآباء. ألا ترى غير الآباء؟»، فردّ السنونو:

ـ نعم. نحن في حاجة اليهم لنخترعَ أنفسَنا.

«أنحن اختراعُ أنفسنا؟ انظرْ موجةَ ريشي، هنا، قرب عنقي. انظرْ مقادمَ جناحيَّ المتمايلةَ. أأنا في حاجة إلى هذه التفاصيل أيضاً؟» سألَ الهدهدُ، فغمزه السنونو

مداعِباً: «نعم. هذه التفاصيلُ تؤكِّدُك، لتؤكِّدَ حقيقتَها التي تجعلك موقناً أنك لم تَعُدْ اختراعاً».

باتَ الهدهُد ضَجِراً من المُحاوَرَة، ببرهانَ أن جناحيه عَمَدا الى خَفَقاتٍ مُتَعارضةٍ بدَّدتْ هندسةَ النقوش التي حَفَرَاها في الهواء الأملس، لكنه رَغِب في بضع كلمات أخيرة:

«أتظنُّ هذه الحمامةَ اخترعتْ نفسها؟» سألَ الهدهدُ جارَه الطائر، مبتسماً، فردَّ السنونو الذي يسميّه الكردُ «طائرَ الحجّ»:

«كيف تقدر هذه البلهاءُ ـ إذا لم تكن من اختراعِ نفسها ـ أن تقودَ خليقةَ الله، زوجيْن زوجيْن، إلى الجهةِ التي لم يُسَمِّها اللهُ لنوح؟ لقد اتُّفقا على الطوفان، ونَسِيا الشَّطْرَ الثاني من الفكرة».

فَتَخابَثَ الهدهدُ، كأنّما وجد ثغرةً في كلام السنونو:

«هل الشطرُ الثاني من الفكرة هو والد نوح؟». فردَّ السنونو:

ـ لم تكن الحمامةُ تقوده الى أبيه، بل إلى نفسها، لتمتحن اللهَ في أعماق نوح.

دار الهدهد دورتين من حول السنونو، غاضباً:

ـ لماذا، إذاً، تُقْحِمُ الآباءَ في كل تفسير؟

فغمزه السنونو، مواسياً:

ـ لا تأخذْني على محمل الجِدّ.

ومِنْ تحتُ ـ في المدى الذي لا يبلغه حديثُ الطيريْن من مَرْصَدِهما العالي، بل تستطيع العيون، وحدها، أن تُهجّيَ الأشكالَ ـ كانت الحركةُ هي ذاتها، في المسافة بين «مَمْ»، الذي تتدلّى من حزامه فخاخ كثيرة ذاتُ رنين، وبين أبيه ذي العينين الحذرتين، كأنّما يحاصر الحقولَ والهواءَ معاً، في المَكْمَنِ الأكثر رقّةً فيهما، أيْ في الخفقةِ التي يستولدُ بها الريشُ ذلكَ الفرقَ الهائلَ في الضروراتِ، وفي البلاغة: أنْ تطيرَا! يا للحِيْلَةِ.

والحِيْلَةُ، قَطْعاً، هي الطيور، لذلك يتقدّم «حَمْدي» حَذِراً، فيما لا يكترث الصبّي «مَمْ» كثيراً بالجَلَبةِ التي تُحْدِثها هرولته. فيضطر الأبُ الى التوقّف، كل بضعة أمتار: «يا

لَلْساوقيّ»، وتتهدّل كتفاه استسلاماً: «مَنْ أنت»، موجّهاً كلماته الغامضة إلى لا أحد. فيفتح الصبيّ عينيه على وسعهما: «أنا مَمْ» يقولها جادّاً، فيصرخ الأب:

أعرفكَ يا خُنْفساء. وأعرف أمّكَ. أنت لا تعطيني فرصةً لاصطياد حمارٍ بجَلْبتكَ هذه.

فيردّ الصبي: «لم نرَ أيَّ طيرٍ، بعد، يا أبي»، فيغلي «حَمْديْ» أكثر:

«كيف أعثر على طيرٍ وأنتَ معي؟ أأنت تحذّرها؟ خبِّئ فخاخك بين فخذيك، وتقدّمْ على مَهْلٍ. هكذا»، وبات يمشي كمن يخاف أن يُصابَ بحجر مقذوف من سور. «هكذا، هكذا»، ردّد الكلمة في سخرية. ثم قَرْفص ومشى مشية غرابٍ، واضعاً بندقيته في حجره، فارداً ذراعيه على جانبيه: «هكذا، هكذا».

تمتم الصبيّ، وهو يلقي نظرات مرحةً، وحذرة ـ في الوقت ذاته ـ على حركات أبيه:

ـ وكيف ألحقُ بك إذا مشيت هكذا، يا أبي؟.

«لا تلحق بي» صرخَ الأبُ. «لا تلحق بي» كرّرها من بين أسنانه، مردفاً: «إبقَ حيث أنت. إبقَ صامتاً مثل دلْوٍ. إختَفِ. انقرِضْ». ورفع وجهه إلى السماء مدَمْدِماً، ثم تابع سيره الحذر، فيما تقدّم «مَمْ» مسرعاً ليلحق بخطوات أبيه، وسط رنين الفخاخ المتلاطمة على جَنْبه.

لم يكن «حَمدي» صيّاداً على أية حال. كانت حُمّى البنادق المنتشرة في كردستان (تصله اسماؤها هَمْساً) تدفعه الى اقتناء بندقيةَ صيد، وكانت حكايات «أحمَدْ كَليمْ»، جاره ذي الحاجبين الكثين إلى درجة مرعبة، عن القنص في بادية «حوران»، التي وصلها مع سليل من عشائر تلك النواحي، هي دافعه غير المُعلن، أيضاً. فـ «حمدي» معجب بـالطريقة التي يروي بها «أحمد» أسراره، وسِحرَهُ، وفجوره كطاغية في أيِّ عراءٍ تطأه قدماه: «لا تعرف الطيور أين تختبىء»، يقولها من تحت حاجبيه اللذين يعتقد «حمدي» أن لهما فضلاً في سيطرته على قنائصه، ويضيف: «أما الحيوانات الأخرى فتريد أن تختبىء في جلود آدميّة لتتفاداني». ويصمت قليلاً، ليهمس في حسرة واضحة: «ذلك الغزال. ذلك الغزال»، ويرفع عينيه إلى مَكْمَن غامض في أعماقه: «قادني طويلاً وأنا في

الجِيْبْ»، ثم يصمت متأفّفاً: «أظن أن العجلاتْ، كلّها، كانت مثقوبة. لقد خضتُ تلك السيارة احشائي، وأنا أطارد ذلك الغزال»، وتمادى في الوصف: «تبعثر الجِيْبْ. صدّقني. طار سقْفُهُ الشادر. تدحرجت العجلات بعيداً. وانقذف غطاء المحرّك. سقطت الأضواء الزجاجية، وانفكّ المقود في يدي، فصرخت: يا ساتر». ويختلس نظرةً الى «حَمدي» الواجم كباشِقٍ، لاعقاً طرفي شاربيه بلسانه: «السيارة قادتْ نفسها، وراء الغزال، إلى كهفٍ في الصخر الأسود. لكنني وجدت نفسي، فجاءة، وقد سقطت في بركة ماء بارد، ذات حجارة ملساء، أنيقة. ولمّا قمتُ واقفاً، والماء يغمرني حتى سُرّتي، كان الغزال واقفاً قبالتي، مبتسماً». ويبتسم «أحمد كَلِيْمْ»: «صدّقني، كان مبتسماً، فلم أعرف ماذا أفعل، وبندقيتي ليست معي، لذلك حَفَنْتُ الماءَ براحتيَّ وقذفته به، فهزّ ذيله مَرَحاً. ثم حاولت الخروج من البركة فانزلقت قدماي على الحجارة اللّزجة. حاولت ثانيةً فلم أستطع. قلت لنفسي فلأخْلَع حذائي علّني أستطيع التقدُّم على الحجر الأملس بقدمين عاريتين، ولمّا مَسَسْتُ قدمي اليسرى وجدتُها تنتهي بظِلْفٍ مشقوق، فأجفَلْتُ كأنني أحلم. وإذْ لمست القدم اليمنى أَلْفَيْتُها كشقيقتها، تنتهي بظِلْفٍ مشقوق أيضاً».

بالطبع، ينظر «حَمْدي»، دون قصد منه، إلى قدمي «أحمد كَلِيْمْ»، المتربِّع على السجّادة، فيراهما على حالٍ آدميّةٍ. ولمّا يلاحظ الأخيرُ أن «حمدي» يتمعن في قدميه، يهزّهما، ساخراً: «لم تكونا هكذا. كانتا تنتهيان بِظِلْفين»، فيسألُهُ «حمدي» ببراءةٍ:

ـ أينهما؟

فَيَعْبَس «أحمد كَلِيْمْ»، كأنّما جُرِح، هامساً: «أنا لستُ بَهْرَامْ جُوْرْ لأبقى هناك»، ويمسِّد على حاجبيه كما يمسِّد الرجال على شواربهم. و«بَهْرَام جُوْرْ»، الامير القادم من أساطير أكراد «فارسَ»، اختفى، بجواده، في كهف قاده إليه غزالٌ ساحرٌ فلم يخرج قط. بيدَ أن «كَلِيْمْ» الذي تمثّل «بَهرَامْ» في حكايته، آثرَ الخروج:

«وما الذي أفعله هناك، لأبقى؟»، يسألُ الجالسَ أمامه، كأنّما يبدِّد، من أعماقه، غوايةً لم يكن يليق بها: «كانت ثقيلةً تلك الأظلاف. والغزال لم يكن يستأهل المشقة، فعدتُ».

«أعني، كيف تخلَّصت من ظِلْفيك؟»، يعود «حمدي» سائلاً، فيردُّ «أحمد كَلِيْم»:

ـ لم أتخلَّص منهما. عرفتُ الحيلةَ وأنا على مدخل الكهف، فلم أدخل.

فيزمُّ «حمدي» شفتيه، كأنما لم يفهم، معاوداً سؤاله: «أين ظِلْفاكَ؟»، فيعتدل «كَلِيْم» في جلسته، مخترقاً «حمدي» بالثِّقلِ الذي في حاجبيه: «لم يكن لي ظِلفانِ، لأنني لم أدخل الكهف».

«وما حكاية ظِلْفيك التي سردْتَها عليَّ؟»، يُسائله «حمدي» مجدِّداً، فيردّ ذو الحاجبين الكثَّين:

ـ إنها ليست حكايتي، بل حكاية بَهْرَام جُوْرْ.

«تَتَبَّع بَهْرَامْ غزالَهُ في نواحي «شاه بَسْنَهْ»، وأنت تتبَّعت غزالك في نواحي حُورَانْ»، يقول «حمدي» مندهشاً قليلاً، فيردّ «كَلِيْم»:

ـ عرفتُه. عرفتُ الغزالَ، فلم أدخل الكهف.

«وبِركْةُ الماء؟»، يسأل «حمدي» جليْسَهُ، فيردُّ «كَلِيْم»:

ـ دخلها بَهْرَامْ.

فيعود «حمدي» إلى مساءلاته:

«كيف عرفت أن بَهْرامْ سقط في بركة الماء؟»، فيردُّ ذو الحاجبين الكثَّين:

ـ لأنه لم يخرج من الكهف قط.

«والظِّلفان؟»، يسأله «حمدي»، من جديد، في لوعةٍ، فيجيبه «كَلِيْم»:

ينبتُ ظلفانِ لمن يتبع غزالاً إلى كهفٍ، فلا يخرج قط.

كان على «حمدي آزادْ» أن يصمت، تماماً كما يصمت ابنه «مَمْ» حين يهرول من خلفه، بفخاخه ذات الصَّخب، بينما يهدِّده «حمدي»، بعد كل خطوتين، تهديداً لا يُخيف: «ستأكل هذه الفخاخ، في البيت. سأجعلك تأكلها».

لكن «مَمْ بن حمدي آزاد»، الذي يتقدَّم بجسده الحيوانيِّ الرشيق، الآن، وسط سرب بنات آوى، في حقول الليل الشماليِّ، يتذكر صدىً بطيئاً من وعيد أبيه، لأن رائحة

أرانبَ ممتـزجَةً برائحة العُلَّيق تلهيه، وتُبَلْبِلُهُ، فيقترب بخطمهِ من الأرض كأنما يُكلِّم ظلماتِها الأعمقَ، حيث الجذور التي تتهيأُ لانبثاقٍ مَا، والمياه المنقسمة على ينابيعها، فلا تتحدّ الاّ في الظاهر الضّالّ لقشرةِ الأرض، وحيث الأوكار والحجور المبثوثة كعيون عمياء، تترصّد الضياء المُعْلَنَ، الذي يموّهُ كلَّ فَرْقٍ.

ولربّما مدَّ «مَمْ» خطمَهُ الى أحد الجحور، أو الأوكار، دون أن يُطاول ما فيها من كائنـات ملتصقـة بالـظلام الـرطب، النـابض كقلب دحرجه الذُّعر إلى متاهةٍ أمينة، فيجاوزُها الى جحورٍ وأوكارٍ أخرى، حصَّنتْ نفسها، بالأبْعَاد ذاتها التي يتحصَّن بها كائن خائفٌ من كائن خائف. وحين تغدو رائحةُ الطرائد المختبئة ثقيلة على مَنْخِرَي «مم»، من شهوته إليها، دون مقدرةٍ على إدراكها، يرفع وجهه المستطيل ـ الذي تعلوه أذنان يقـظتان، مكسوّتان بَوبَرٍ خشْنٍ ـ إلى العَماء العالي، المستند على عصاه الأزلية، من فوق، حيث النجوم الساذجة التي تُبْرِم اتّفاقاً ساذجاً مع خلودها. ثم يُطلق عويلَهُ الأبديَّ.

ليسـتْ لـ «مَمْ»، الآن، ذاكرةٌ، وهو في هيئته الحيوانيَّة هذه، بل شهوةٌ كالبوصلة. لذلك تتراءى له الأشكالُ على نحوٍ ممعنٍ في الحيرة، مهشّمةً، فتغدو قدرته على إعادة تأليفها، بكثافةٍ ليستْ من صلب هذه الأشكال، جزءاً من امتحان قَدَرِه الحيوانيِّ.

لكنـه، بتمييزٍ لا يسـتطيع تبـريره، يُؤْخَـذُ بحركة أجنحةِ الطير أكثر من غيرها. فالخفقات الخفيفة، أو الثقيلة، للعظام المكسوَّة ريشاً، تلمس مكمناً خفيّاً من أعماقه العمياء، ذات الفـراغـات الهنـدسية المتساوية. وهو يهابُها. كأنّما في استطاعة تلك الأجنحـة أن تقتلعـه من ظلّه المـرتسم على الأرض، فتفصل بينهما، صاعدةً به إلى الأعالي التي لا حقول فيها، ولا دبيبَ لخشاشٍ يستوفز أذنيه الرّاصدتين.

«مَمْ» مأخوذ ـ وهو في هيئة ابن آوى ـ بظلِّه. يريده قريباً منه، ملتصقاً به؛ يريده كَيَدٍ ناعمةٍ تمسُّ ما لا يلمَسُه بجسده. ويفزع إلى ظلّه ليختبىء فيه، بغريزة الحيوان، حيث لا يمكن لأحـد أن يمسـك الـظلَّ. لذلك يعمد إلى تقسيم نظراته، في عبورهِ الأمكنةَ، بين ظِلِّه وبين الأشياء والجهات، ليتأكّد، حتى في أكثر ساعات الليل حُلْكةً، أنهمـا متشبّثـان ـ هو وظلُّه ـ أحـدهُمـا بالآخـر، فلا تستقيم الحقيقةُ الحيوانيةُ فيه إلاّ

بتكاملهما. أمّا الطيرانُ فيذهبُ بالحقيقةِ، إذ يستعصي على الظلّ اللحاقُ بالأصل، ويستعصي على الأصل تأكيدُ كثافتِهِ في معزل عن الظلّ. (هذا ما يؤكّدُهُ «مَمْ» ـ وهو ابن آوى ـ لنفسه).

لكن، على حقيقة اخرى، ان تؤكّد ذاتها، في معزل عن يقين «مَمْ» الحيواني الخائف من الأجنحة وسخريّتها. فالأجنحةُ هي البرهان الذي تقدِّم الأرضُ به نفسَها إلى الحقيقة الأكثر حيرةً من أنْ تقبلَ بُرْهاناً مّا من أحدٍ. والحقيقة ـ كما يحاول «مَمْ» إقناعَ غريزَتِهِ اللاّهية ـ تخاف النظرَ إلى الكينونات من شاهقٍ عالٍ، لأنها وُلِدَت هكذا، خائفةً من أن ترى نفسها بعيدةً، على هذا النحو، عن اللعبة.

أيحاول «مَمْ» مجاراةَ الحقيقةِ في خوفها من الأجنحة؟ ذلك سؤال يشغله قليلاً، لكنه ينساه، في عسرةِ يقينِهِ أنّه كان موجوداً قبل ظهور الريش في مثلث الخليقة ذي الضلعين.

فهو ـ كابن آوى ـ صِنْوُ الظلام وجِيلِ الظلام، حين لم يكن النور قد استأذن للخروج ـ بعظامه الرقيقة ـ إلى مملكة الله. وهو صنو الماء، ايضاً، في الثُقَلِ، حين كانت الخليقة خُبُزاً من الماءِ يتوالد زبداً عن زبدٍ، وانسياباً عن انسياب، وتمازُجاً عن تمازُجٍ، الى ما لا نهاية له. وبعد هذا كلّه، كان عليه أن يسهر، ككائن ليليٍّ، على ميلاد النور ذي الطفولة العمياء؛ كان عليه ان يؤكّد الليلَ ببرهانٍ حيوانيٍّ لا يجدُ في الضوء إلاّ سِجِلاًّ مُفْرِطاً في التَكتُّمِ على جوهر الضوء. وكان يملك، فوق هذا كله، حركةً بقوائمَ أربع، لم تتوفَّر لنظائره القلقة الأخرى من حجرٍ، وريحٍ، وماءٍ، وصوتٍ، وسُكونٍ.

أربعُ قوائمَ. تحديدٌ شكليٌّ أفضل من لا تحديدٍ شكليٍّ. و «مم» شَكْلٌ حين ليس للماء شَكْلٌ، وليس للهواء شَكْلٌ، وليس للصوت شَكْلٌ، وليس للمفاضلة بين الخلائق شكلٌ. لذلك يبيح «مَمْ» لنفسه أن يكون الحليفَ الأوفى لليقين الذي لا يبوحُ بمكانه.

ولماذا يفاضل «مَمْ» بين وجوده وبين وجود الريش، على أية حال؟ هو ما خلقَتْهُ المتاهةُ بنفْخٍ من فمها الذي يُغوي الأكثرَ خلوداً، أمّا الريش فمخلوقٌ من خُيلاء الخسارَة حين تنفصل ـ على نحوٍ هاذٍ ـ عن كونها خسارةً. وشتان بين من تخلقه المتاهةُ فتستنفدُ الحقيقةُ نفْسَها في استجلائه، وبين من تخلقه خيلاءُ الخسارة التي لم تجد ما تتقنّع به

غير الريش.

أيستطيع «مَمْ» أن يقتنع بهذا، وهو يتشمّم، بخطمه الحيواني، أعشاشاً غير مموَّهة تحت أوراق اليقطين العريضة، ووسط الخرنوب البرّي الأشعث؟ غريزته تُقْنِعُهُ، على أية حال. غريزته تُقْنِعُهُ بما لا يستدلُّ اليقينُ الانسانيُّ عليه. ولذلك يبدو «مَمْ» معافى في شكل الحيوان الأَهْيَف الذي يسير به وسط حقول الشمان، حتى أن عظام قائمتيه الأماميتين، وعظام وركيه، تبدو تحت الجلد، في الضوء الفضي للّيل، مضيئةً بالعافية المُغْدَقَةِ على ابن آوى؛ وتبدو حركة العضل في الفخذين بهيَّةً، كأنما أنفاسٌ تتماوجُ في اللَّحم.

كان «مم» يقترب، في رحلته الليلية، مع سربه، من نهر «جَغْجَغْ» النحيل، الذي يتحكم التّرك بمجراه فيخنقونه تارةً، أو يوسّعون اندفاقَهُ حين لا يهم أحداً أن يكون دَفّاقاً. وهو نهر ليس في حاجة الى مياه كثيرة، على أية حال، ليصرِّح عن نفسه كنهرٍ، فأخدوده ـ ولو كان جافاً تماماً ـ يدلُّ عليه. وفي امتلائه أو جفافه، معاً، تتزاحم عليه بنات آوى. فالقنائص تكثر من حوله حين يمتلىء ماءاً، وحين يجفُّ يكون لعويل الحيوان في أخدوده صدى مهيب. غير أنه وديعٌ كنهر قادم من تحت جسر تركيٍّ إلى الأرض السورية. وكان «مم» يرى ذلك الجسر ـ حين يذهب مع أترابه للسباحة، وهم يحملون بطيخاً مشروخاً لكثرة سقوطه من أيديهم ـ وصْلَةً سحريةً بين عالَمين مذعورين. فالهاربون من جهة إلى أخرى، تحت ذلك الجسر، يزدادون يوماً بعد آخر، برغم الرقابة المتصاعدة من الجهتين. و هم يُقْتَلُوْن، هنا أو هناك، برصاص الجنود أمامَ أعين المتنزهين، صيفاً، على ضفتي النهر، الذين يتنشَّقون الجفافَ القادمَ من أعماق المياه، فيتأسفون قليلاً، ثم يتابعون همسهم.

والكلُّ يراقبُ الكلَّ، من هذه الجهة أو من تلك، فيخمّنون المصائر على نحوٍ محسوب: الذين يهربون من الجهة السورية الى الجهة التركية يقطعون النهر بعكس مجراه، فيتعبون قبل اجتياز النفق تحت الجسر، ويرجعون غرقى بعد ذلك، وسط ابتسامات الجنود الأتراك، الذين يراهنون ـ ربّماـ على مقدرة هؤلاء الحمقى المكشوفين. أمّا الذين يلقون بأنفسهم، فجاءةً، من فوق الجسر التركيِّ، باتجاه الحدود السورية، وقد

لفوا ثيابهم في صُرَرٍ مربوطة الى الأكتاف، فيتبارى الجنود في اقتناصهم، إلاّ قليلين، يعوصون برئات كرئات خُلْدِ الماء في العمق الموحل للنهر، فينجون، لكنهم يسقطون قائص في أيدي الشرطة السورية التي تعرف الداخلين الى البلاد خلسةً من رطانة لغتهم في أسواق العتّالِيْنَ.

لكن النهر الصامت إلّامن خريره الرقيق العاديّ ـ الذي يتشمَّمُ «مَمْ»، من حوله، النعناع والحُمَّيض، الآن، وهو في هيئة ابن آوى ـ خرج، من قبلُ، عن صمته، في أحيان كثيرة، محادثاً نفسه أوّلَ الأمر، حتى التعب:

ـ أأنا أشبه كل الأنهار؟

ـ نعم.

ـ لماذا لا تتّسع ضفتاي أكثر؟

ـ لأنني أمرُّ من هنا.

ـ وماذا لو مَرَرْتُ من مكانٍ آخر؟

ـ سأكون على ما أنا عليه.

كان نهر «جغجغ» يسائل نفسه ويجيب في ضجر، لذلك لم تتعدَّ أسئلته الشكوى من ضِيْقِ ضفتيه، ومن جفافه، ومن الطين الكثير الذي ينزلق إلى مياهه بديدانه الطويلة الحمراء. غير أنه وجه اسئلته، ذات مرّة، إلى الله:

ـ لماذا خلقتني نهراً، إلهي؟ (قال النهر).

ـ لأنني أحبّ الأنهار. (قال الله).

ـ أحببتني، إذن، فخلقتني؟ (قال النهر).

ـ لا. (قال الله).

ـ لم أفهمك. (قال النهر)

ـ أنتَ أردتَ أن تكون نهراً. (قال الله).

ـ لا أتذكّر. (قال النهر).

ـ ذلك هو السبب. (قال الله).

ـ سبب ماذا؟ (قال النهر).

ـ أن تكون نهراً. (قال الله).

ـ أخلقتَهم كُلَّهم أنهاراً؟ (قال النهر).

ـ مَنْ؟ (قال الله).

ـ الذين لا يتذكّرون؟ (قال النهر).

ـ لا. (قال الله).

ـ ولماذا أنا؟ (قال النهر).

ـ لأنك أردت ذلك. (قال الله).

ـ لم أُرِدْ ذلك قط. (قال النهر).

ـ كنتَ تُخالفني، إذاً، فخلقتُكَ نهراً. (قال الله).

ـ وماذا إذا لم أكن قد خِالفتُك؟. (قال النهر).

ـ تكون قد أردتَ ما هوَ أنتَ. (قال الله)

ـ أنتَ تعرف ما الذي أردتُ أن أكون قادراً عليه، إلهي. (قال النهر)

ـ نعم. (قال الله).

ـ أردتُ أن أكون قادراً على خَلْق الأنهار. (قال النهر).

ـ لذلك مَكَّنْتُك من أن تخاطبني. (قال الله).

ـ أكُلُّ من يتمنّى خَلْقَ الأنهار يستطيع أن يخاطبكَ؟ (قال النهر).

ـ نعم، لأنه يتفكّر في عمائه. (قال الله).

ـ أكُلُّ نهرٍ أعمى؟ (قال النهر).

ـ لا يرى سوى الطين. (قال الله).

ـ وما العَمَى في ذلك؟ (قال النهر).

ـ تَكْثُر سعادته. (قال الله).

ـ أتعني سعادةَ النهر؟ (قال النهر).

ـ نعم. (قال الله).

ـ أيعْمَى من يكون سعيداً؟ (قال النهر).

ـ لا. (قال الله)

ـ لم أعد أفهم. (قال النهر).

ـ لأنك نهرٌ تفكّر في الطين. (قال الله).

ـ وما العيب في ذلك؟ (قال النهر).

ـ الطين. (قال الله).

ـ أظنك خلقت الأشياء، والأحياء، من الطين؟! (قال النهر).

ـ لذلك أنتَ أعمى؛ الأنهارُ عمياء. (قال الله).

و«مَمْ» يتأمل صورته الحيوانية المشوشة، تلك الليلة، في فسحةٍ راكدة من ضفّة النهر الأعمى، حيث انحدر مع سربه، ليرتوي في جولته الليلية على بعض الحقول، في اللحظة ذاتها التي كان والده «حَمْدي» يسرد لضيوفه الدائمين، قبل منتصف الليل بقليل ربما، على اللّباد المفروش في ساحة البيت، أموراً متداخلة:

«حلقنا حواجبنا، تلك الظهيرة»، قالها «حمدي»، وتلمَّسَ حاجبيه، مضيفاً: «سألتهم عن جدوى حلاقة الحواجب، فردّ الدّليل أن ذلك يجعلنا متشابهين». والدليل، بالطبع، مثلما يكمل «حمدي»، هو من سيقوده، وزمرةً من أصحابه إلى جبال كردستان. وبقصد إضافة تشويق إلى حكايته، يقول إن ذلك حصل قبل يوم واحد من زواجه، الذي جرى فيه تبادلُ أخوات. فزوجُ «حمدي» هي أختُ من تزوّج أختَ «حمدي». والتبادل ذاك كثير في الشمال. حين يصير المهر، في بعض الاحيان، مُعْجزاً. ويضيف الرجل مقهقهاً: «لم تعرفني زوجي، أوّل الأمر، فقلتُ: أنا حَمْدي يا فتاة. وشرحت لها موجبات حلاقة الحاجبين، لكنها تساءلت عن الحكمة في أن نكون متشابهيْن.

قالت: وما الفائدة؟

قلت: الدليل خبير في هذه الأمور.

قالت: إذا تشابهتم، هل ينقص عددكم أم يزيد؟

قلت: لا أعرف. الدليل يعرف.

قالت: هل حلق الدليل حاجبيه؟

قلت: لا.

قالت: قل له أن يحلق حاجبيه»، واعتدل «حَمْدي» في جلسته على الأرض غير المستوية، مضيفاً: «كانت ليلتنا الأولى، وكما في كل ليلة أولى لفتاةٍ عروسٍ ظننتُ زوجي ستخاف، لكنها أصرَّت على أن أطلب من الدليل أن يحلق حاجبيه. ولمّا سألتها سببَ إلحاحها، قالت:

ـ لماذا تحلقون، أنتم، حواجبكم؟

قلت: لنتشابَه.

قالت: ولماذا لا يحلق الدَّليل حاجبيه؟

قلتُ: لا أعرف.

قالت: لن تكون زوجي إذا لم تعد اليَّ غداً بما سيقوله الدليلُ لك». وقهقَه «حمدي»:

«سألتها: وما الذي ستفعله الليلة؟

قالت: سأرسم لك حاجبين بالكحل، لأعْرِفك».

ولم يكن على «حمدي» ـ بالطبع ـ أن يسأل الدليل، في اليوم الثاني، عن مبررات التشابه التي يقتضيها حَلْقُ الحواجب، لأن الدليل اختفى بالودائع التي دفعها له المزمعون على زيارة كردستان، وبينها تسع خلاخيل فضية انتزعها «حمدي» من أمّه بوعودِ استبدالها ذَهَباً، دون شروحٍ كثيرة.

بالطبع لم يكن «مَمْ» ـ الذي له العددُ ذاتُه من القوائم التي يتجوّل بها الليلُ في حقوله ـ يتفكّر في مشاغل الآدميين المُرْهقةِ بسحرٍ يُضْفيه الآدميون عليها، أو يعزّونها منه، بل يلتفتُ، في مرح، على كل ابن آوى يجاوره. غير أن حيواناً رشيقاً، له رائحة أكثر نفاذاً، من بين سربه، كان يجتذبه، فيرضخ «مَمْ» لعضاتِ ذلك الحيوان الأنثوية، ويستعرض قفزات بهلوانية خرقاء، وعويلاً تطقطق من نبراته ثمرات البطيخ الأبعد في حقول «نُصَيْبِيْن».

كان ذلك هو اقترابه الحيوانيُّ الأول من أنثاه الحيوانيّة. ولأنّ «مَمْ» لم يكن اقتربَ بعدُ ـ كآدميٍّ ـ من أنثى آدمية، فليس له أن يقدِّم مقاربةً بين الصورتين في أعماقه. وهو

لن يحاول تقديمها، على أية حال، فمخيّلته المشحونة بالروائح، لا بالصور، وبالأصواتِ، لا بالاستقراءات، ليستْ مُعَدَّةً لمُجانساتٍ تفصيلية، وهي ترتبك إذا داخلتْها صورٌ شاردةٌ من آدميّته، ما تزال عالقةً بفراغٍ مّا من تجاويف يقظته التي لا ماضي لامتداد كُتْلتِها. واليقظةُ الحيوانيّةُ هي كُتْلةٌ قَطْعاً، وتنتقل ككتلةٍ بانتقال الجسد، لذا تتقطّع حساسيّةُ الميزان فيه، وحساسيةُ التّفصيل والاستنتاج، وحساسيّةُ التعميم، فلا تتّصل قط، بعد انتقاله من مكانٍ إلى آخر، فيستعيض عن ذلك كلِّه بجاذبيّةِ الصَّدْمة، وهي جاذبية تجعل المكانَ مُشْتَبِهاً عليه، ساكناً ذا فراغٍ ، لكن الكوامنَ الخَطِرةَ تتبدّى له بغتةً، فيستسلم لها بالقَدْر الذي فيه من ضجرٍ، أو يبادرُ فينجو شاتماً بعويلٍ أخرس.

وبالرغم من الاكتمال الحيواني لصورة «مَمْ» ولمخيّلته ويقظته معاً، فإن شذرات رعناء من التّخيُّلِ الآدميّ كانت تقتحم، كدعاميصَ في ماء راكدٍ، أثلاماً لم تَسوَّ، بَعْدُ، في قَدَرِ أعماقه المُنْجزة. فهو، في استسلامه لعضّات انثى الابن آوى، التي تناثر الكثير من وَبَرِها على وَبَرِه، كان يُفاجأ ـ لَمْحاً ـ بعينين آدميتين، ضاحكتين، تتحرّشانِ به، وبلسانٍ يمرُّ على شفتيه، وبأنامل تمسُّ وَبَرَه الخشن قليلاً، وبهمْسٍ يلمس غَضَلَهُ لا أذنيه، فيهز جسمه ككلب مبلول، محاولاً استبعاد هذه اليقظة التي لا يجد فيها متّسعاً لمرحه الحيوانيّ المُنْفلتِ. فالصوّر التي تقتحم مخيّلتَهُ الملجومةَ تخفّف من جَسارةِ لَهْوِه، فيعروه حياءٌ ليس في طبع جنسه الشارد بين حقول الشمال. لكن أنثاه، اللاّهية كهواءٍ لاهٍ من حوله، تعيد إليه ـ بعضاتها القاسية ـ سخريتَهُ الرهيفةَ التي هي كيانه (كلُّ حيوان سخريةٌ رهيفةٌ)، ليتّسع، ويتمدّد بشهوته وعويله معاً، كأنما الأرضُ والليل عضلتان في فخذيه اللّتين سيثب بهما إلى فراغ الحقيقة.

وعضّةً بعد أخرى يهدأ «مَمْ» مخفّفاً من قفزاته، ومرحه، ليتبع أنثاه متشمّماً ذيلَها، في المَكْمن الوحيد الذي لا يخطىء الحيوان فيه صورةَ مستقبله المرتسمة على هيئته ذاتها، بقوائم أربع، ووبرٍ، ووجه مستطيل، وذيلٍ ، وأعماقٍ مفتونةٍ بمزاحمة الله على حقوله، وبعويلٍ ـ ايضاً ـ يمهّد للحياةِ أن تشكر اختلافَها بين نوعٍ وآخر.

أكان «حَمْدي آزاد» يتفكّر، تلك الليلة ـ وهو المسترسل في سخريته من الهواء بين مجالسيه ـ أن ابنه «مَمْ» يثب وثبته الأولى على أنثى؟ . «مَمْ سيكون له شأن خاص» يقولها

الأب، ناظراً، من موقعه في ساحة البيت، إلى السطح المعتم الذي يفترضُ أن ابنه ينام عليه، مضيفاً: «سأرسله إلى «الرجل الكبير»، بعيداً عن هذا البلد، ليوكّله بالمهمة». وليس عليه، بالطبع، أن يشرح «المَهَمَّة» للمتّكئين بمَرافقهم على الوسائد. فالمَهمَّة هناك، في الجهة الصارمة من يقينه، أمّا الجهة غير الصارمة من يقينه، المتّكئة مثله على وسادةٍ لا تُرى، فهي ما يقوله يوماً بعد يوم لهؤلاء الجُلساء، المتبرِّمين ـ تحت شواربهم المفتولة ـ من القيامة التي لا تُنجزُ فَجْرَها المرصوف على طبقات لا تُحصى من العظام. وبين هذه العظام ـ قطعاً ـ عظام طيور رأت من الأعالي ما لا يراه الماشون على التراب. فالاستقامات، والظلال، والحجوم، والأبعاد، هي ـ من فوق ـ ثغراتٌ في المكان، في اتجاه أعماقهِ لا سطْحِهِ. وهذه الثغرات تترك في عظام الطيور عزيفاً خاصّاً، بفعل ما يتسرَّبُ عبرها من هذيان الأرض. لذلك ـ ربما ـ تتردّد القيامة في إنجاز فجرها، كلّما اصطدمت، في تقدُّمها، بعظام طائرٍ بين عظام الآدميين والدّوابّ، كأنّما تتوقّف ـ مُجْفَلَةً ـ عند التحذير الأكبر من أنّ الموت لم يكتمل بعد.

العظام وحدها ـ إذاً ـ تعرف انقسامَ الغيب على أطواره، وتعرف تردُّدَه المضحك، لكن جُلَساء «حمدي»، الذين يصغون احياناً، ويسرحون في أحيان أخرى، لا يجدون فرقاً كبيراً بين أن تكون لك عظام هذا الكائن أو ذاك. فالبُراقُ الشريف ثُلثٌ آدميٌّ، وثلثٌ دابَّةٌ، وثُلثٌ طيرٌ، دون أن يصنّفوا ما يموتُ وما لا يموت. والذي لا يموت لا عظام له، على أية حال (لكنْ يموتُ الذي لا عظامَ له، على أية حالٍ ايضاً). أما الحقيقةُ فتستطيع أن تصنِّف نفسها بحسب العظام التي تستند إليها، على العكس من جُلساء «حَمْدي»، هؤلاء، الذين لا يعرفون ـ مثل «حمدي» ذاته ـ ان «مَمْ» يقدِّم، تلك الليلة، هِبَتَهُ الأكثر ثِقَلاً ـ كابن آوى ـ إلى المشيئة الملفوفة كضمادٍ على حقول كردستان، وقد اعتلى أنثاه على قائمتين مرتجفتين من الشهوة، وصدر مرتجفٍ، وأنيابٍ مطبقةٍ، في زَخْمَةٍ، على عنق الحيوان الذي تحته، كأنّما يُمَكِّنُ الحياةَ ـ بالألم الذي في شريكه، وبالتعب الذي فيه، معاً ـ أن تأخذ الهِبَةَ بيديها الخشنتين، حفنةً حفنةً من الزلال الذي يرى كلُّ شيء فيه صورتَهُ، مصقولةً بقَدْرِ ما فيها من توقٍ إلى النسيان.

كان ذلك هو الدَّفْقُ الأول الذي جعل «مَمْ» متعدداً على نحوٍ لا حصر له، فانْسَلَتَ عن ظهر أنثاه مُتْعباً مر مستقبلِ شهوتِهِ التي تُحصي له نَسْلَهُ واحداً واحداً، بِطَنِيْنٍ ساخرٍ، ثُمَّ رفع وجهه المستطيل عالياً، ليطلق عويلاً مُشْبَعاً بانكساره.

و «مَمْ» متعوِّدٌ انكسارَهُ هذا، كلَّما حثَّهُ أبوه على الإسراع من خلفه، في سوق المدينة، أو في الحقول. وكان انكسارُهُ أشدَّ في الحقول، تحديداً، لأن الأب العَجول ببندقيته الخائبة لا يجد قنيصَةً غيرَهُ: «سأتصيّدك ذات يوم»، يقول «حَمْدي» الغاضب، من تحت شاربيه المرتجفين، فيردّ «مَمْ» المبتسم: «أين تريد أن تصيبني يا أبي؟»، مستديراً من حول نفسه، فيرمقه الأب شزراً: «سأختار أنا.. سأختار». ويحث خطاه المقلقة فيلحق به ابنه الصبيُّ متسائلاً: «لماذا لا تصيب الطيور؟»، فيتوقّف الأب ملتفتاً إلى ابنه، كأنما فوجيء بأمرٍ لم يسألْ نفسَهُ فيه قط:

«ولماذا أصيبُ الطيور؟»، يردُّ حَمْدي مدافعاً عن اختناقه. فيسأله «مَمْ» من جديد:

ـ ألم نأتِ لنتصيّد الطيور، يا أبي؟

«لا»، يصرخ حَمْدي في وجه ابنه، فينكمش الصبّي في قميصه الفضفاض، ذي الجيوب الكبيرة، المطوّق بحزام على الخاصرة تتدلى منه فخاخ صخَّابةٌ في احتكاكها المعدنيّ. لكن «مَمْ» لا يقتنع بجواب أبيه، فيهمس همساً:

ـ لماذا تطلق النار، إذاً؟

«لأسمع صوت البندقية»، يردُّ الأب متهكِّماً، فيبادرُهُ «مَمْ» سائلاً:

ـ ولماذا تغضب من سماع صوت فخاخي، وجَلَبَةِ ركضي وراءك؟

فيرفع «حمدي» أنفه عالياً، كأنما يتشمَّم فكاهةً مَّا، هامساً: «لم نأتِ لنتصيّد، يا أحمق، بل لأجعلك قَلقاً»، ويلتفت إلى الصبيّ صارخاً: «لماذا لك كلّ هذه الجيوب؟ أجمعِ الريشَ. اجمع الريشَ الذي تراه»، فتُعْجِبُ الفكرةُ الجديدة «مَمْ»، فيعدو عدواً ملتوياً يلتقط الريشَ القليل، المتناثر في العراء، ويُودِعُهُ جيوبَهُ.

وهي ليست المرَّة الأولى التي يجمع فيها «مَمْ» الصبيُّ الريشَ، فقد سبق له أن التقط أضمومةً ملوّنة، من ذيل ديك «حَمْكي بيري»، الذي دهسته أوّل سيارة «بيك

أبْ»، دخلت شارع بيتهم الضيّق، الذي لم تمرَّ بترابه الكثيف غيرُ عربات ناقلي الرمال من النهر لبيعه الى البنّائيْنَ. وكان ديكاً مختالاً بحقٍّ، ذا عُرْفٍ طويلٍ مُسْدَلٍ على عينه اليسرى، وذا ذيل منفوشٍ، طويلِ الريشِ، تنعكس عليه شعاعات الشمس فيلتهب بألوانه الزرقاء، والبنفسجية، والبرتقالية، والسوداء اللامعة. وكان يتخيَّرُ، في مشيته المرسومةِ نقْلَةً نَقْلَةً، نظراتِ كشّافٍ قادرٍ، لكنها ساخرةً بعض الشيء، وبخاصّةٍ أن عينه اليمنى، وحدها، كانت طليقةً، فيضطر إلى أن يَلْوِي عُنقَه لَيّاً ليترصَّد ما حوله، فيما يهتزُّ عُرْفُهُ المُسْدَلَ فوق عينه اليسرى، التي يلمح منها لَمْحاً أولئك الصِّبْيَةَ المهرِّجين، وهم يداهمونه في خبثٍ لا يُطاق، حين يهمُّ بدجاجةٍ بلهاءَ يقتنصها لشهوتِهِ المُرْتَجَلَةِ.

لكنه لا يأبه كثيراً لخساراته. فبعد كلِّ دجاجةٍ ثمتَ دجاجةٌ بالتأكيد. أما هذه المرَّة فلم تكن حساباتُهُ مُقَدَّرةً بكمالِهِ الحيوانيِّ، فالدجاجةُ التي فاتته كانت آخرَ دجاجةٍ تفوتُهُ، لأن السيارة ذات المكابح المهترئة داهمتْهُ مداهمةً لم يخطر بباله أنّه سيفقد فيها كلَّ ما لديه: جِلْدَهُ، وعظامَهُ، ولحمَهُ، ودَمَه، وريشه. غير أن روحه، التي يغطي نصفَها عُرْفُه الطويل، لم تغادر المكان، وكانت تتأمَّل ـ في غيظٍ ـ يديْ «مَمْ» وهما تنتفان من ذيله ـ بعدما دهستْهُ السيارةُ ـ أجْمَلَ ريشِهِ.

كان هيكلُ الديك ملتصقاً بالتراب، مَمْغُوساً على نحوٍ فاحشٍ، إذْ مرَّ البيك أبْ عليه دون أن يقاوم، أو يحيد عنه. فالديك ـ الذي كان ديك الشارع الترابيّ ـ لا يليق به أن يحيد عن آلة لا تعرف كيف تلتقط من الأرضِ أصغرَ دقائقِها الحيَّة. لذلك نظر طويلاً، بعينه اليمنى، إلى السيارة قادمةً اليه، في سخريته المعهودة، ثم اختلطت عليه الأشياء، بعد ألَمٍ لا يُجاوزُ الثانية، حين ألفى نفسه ملتصقاً بالأرض، وفي منقاره رائحة دمٍ طازجٍ يذكُرُهُ بريش الدجاجات اللواتي مرَّ عليهن بصدرِهِ العابث.

الذيلُ، وحدَه، بقي سالماً، فانتقاه «مَمْ»، واضعاً إيّاه، ريشةً، ريشةً، في جيبه، فيما كانت السيارة تبتعد وسط هالةٍ من الغبار، غير آبهةٍ بالروح المنكسرةِ للديك، التي حاولت ـ جاهدةً ـ أن تقول شيئاً مّا، ليس أكثر من شتيمةٍ، على الأرجح.

لكن «مَمْ»، وهو في هيئة ابن آوى، غير مكترثٍ بالريش، في ليلته التي شهدت ـ أوّل مرّةٍ ـ شهوتَهُ المُرتبكةَ، التي تُحذِّر الجسدَ ممّا لا يمكنُ عصيانُه. ففي اللحظات

الثانية لنزوله عن ظهر أتاه، وهو مأخوذٌ بالثِّقَلِ الغامر لفراغٍ يجمع عظامَهُ ولحمَهُ بمكنسةٍ كبيرةٍ، باغتَتْهُ أصواتُ طلقاتٍ قادمة من الجهةِ التركية، تلتها صرخاتٌ، وسقوطُ أجساد في مياه النهر الضَّحل، فقطع ـ هو وسريّهُ ـ الضِّفتين بقفزة واحدة، وهم يرون بعيونهم المضيئة هيئاتٍ إنسانية صاخبةً تجتاز الحدود السورية ببنادقها، فيما يفرُّ من أمامها نَفَرٌ مذعور، بحميرٍ مذعورة. والسرب الحيوانيُّ لم يتوقف، بعد ذلك، إلاّ على تخوم بلدة «القبور البيض»، التي كان اسمها «تِرْبَسْبِيْ» بالكردية قبل التعريب، الذي طاولَ الشمالَ متراً متراً، فصُنِّفتِ الحيةُ نفسُها تصنيفاً يبعث على الضحك.

و«مَمْ» لم يضحك، بالطبع، فرئتُهُ ما كانت لتتّسع ـ بعد المدى الشاسع الذي قطعه ركضاً، أو هرولةً ـ حتى لعويلٍ خافتٍ، غير أنه أحسَّ، على نحوٍ مّا، كأنَّ طلقةً اخترقت إحدى فخذيه، من دون أن تكون قادمة من جهةٍ مّا، أو يكون لها صوتٌ، فبدأ يعرج في مَشْيهُ. وهي لحظة تَذَكُّرهُ ـ برغم أنه يجد الأمرَ غامضاً ليتذكَّرَ كحيوانٍ ـ بذلك النهار الذي تتبّع فيه والِدَه «حَمْدي آزادْ»، بفخاخه. ففي حين أخطأ الأبُ، ببندقيته الخائبة، طيورَ العراءِ، فُرادى مرّةً، وأسراباً مرّةً أخرى ـ كأنّما ثمّت حجابٌ بينه وبين الطرائد ـ أصابَ إبنَ آوى.

كان الحيوانُ شارداً، في العراء المضيء، كما لا يليق بابْن آوى أن يفعل. وكان يلتفت من حوله مذهولاً، يتساءل ما الذي ألقى بهِ ـ فجاءةً ـ إلى ضوء النهار، وهو لم يخطىء من قبل ـ كابن آوى ـ أن يغادرَ الليلَ قبلَ هزيمة الليل، إلى وكرِه. غير أنه بدا مضحكاً في التفاتاته الكثيرة، وحيرته التي جعلتْ مشْيَهُ المتردِّدَ أشبه باستعراضٍ فَكِهٍ، ممّا حدا بـ «حمدي آزاد» إلى أن يُقَرْفِصَ مُسْتَطْلِعاً بابتسامةٍ ساخرةٍ تحت شاربيه، وهو يشير على ابنه، بيده اليسرى، أن يلتصق بالأرض.

قَرْفَصَ «مَمْ» من خلف أبيه، بدوره، كمهرِّج صغير، في حين كان الأب يرفع بندقيته الى المستوى الذي يحدِّد فيه النظرُ لنفسه، عِبرَ فوُهةٍ معدنيَّةٍ، عبثَهُ القاتلَ. لكن الحيوانَ الحائر، الراكض هرولةً في الضوء المحيط بروحه كسياجٍ بارد، توقَّف فجاءةً، عائداً أدراجه صوب «حمدي» وابنه، هرولةً ايضاً، كأنما لا يراهما، أو يستأنس بهما من وحشة النهار، فبوغتا.

خفَّضَ «حمدي» بندقيته المهيَّأةَ قليلاً، ليستطلع الأمر بعينيه معاً، فيما قام ابنه «مَمْ» من خلفه، بفضول كبير، وهو يهمس: «لا تقتله يا أبي». لكن الأب لم يجد مناصاً من تسديد بندقيته، من جديد، إلى الحيوان الرشيق الضئيل الحجم، إذْ بدا واضحاً أنه لن يتوقّف في هرولته، وهو يقصدهما مباشرةً. وبعد برهةٍ ثقيلة من حيرةِ الأب وابنه، معاً، دوّت طلقة ذاتُ دخان، ممتزجة بعويل الابن آوى، وصراخ «مَمْ»، فتبلبل «حمدي آزاد»، بين ابنه الذي أقعى مُحَشْرِجاً من ألمٍ غامض، وبين الحيوان الذي ارتفع قليلاً في الهواء من الصّدمة، ثم ارتدّ مُدْبِراً وهو يعرج، كأنّما أصابت الطلقة إحدى قوائمه فحسب. ولمّـا عاين الأبُ إبنَه، في ارتباكٍ، كان «مَمْ» يشير إلى فخذه التي لم يجد «حَمْدي» فيها سبباً ظاهراً لألم ابنه، فحاول تهدئته مراراً، لكن الصبيَّ نشجَ نشيجاً دعا الأب إلى حمله على ظهره، عائداً به مسافةً طويلة ـ بعد استراحاتٍ صغيرة، ومعايناتٍ اضـافية للمواضع التي يتلمّسُها «مَمْ» في فخذه ـ إلى البيت الذي انتبه «حمدي» أن جدرانه الخارجية، المطلّة على الشارع الترابيّ، قد تقشّرت كثيراً، فأزمع على ترميمها، وهو يُنْزِل ابنه عن ظهره، مُنْتهِراً: «أما شبعتَ عُوَاءً؟»

ومَمْ» الذي نزل عن ظهر أبيه، وهو يعرج دون سبب واضح، لم يعجبه إلاّ التوجُّه إلى أعشاش السنونو، المتدلّية ككيزانِ ذُرَةٍ منتفخةٍ، من تحت أعمدة السقف الخشبية الممتدّة إلى خارج البيت، في اتجاه الساحة التي يستلقي زائرو والدِهِ الليليونَ على رملها وحصاها بمَرافِقِهم ذواتِ الجلدِ الخشن كالْلبَّاد. وقد عاينها الصّبيُّ بعينيه المحمرَّتين ليحدِّد أماكن تلك الأعشاش، ثم هرول إلى السُّلّم الخشبي ذي الدّرجات المتشقّقة، فجرَّه جرّاً ليسنده إلى الحائط، وتسلّقهُ في حقد، فيما كان الأب يدخل البيت، غير مهتمٍّ بالـذي سيفعله ابنـه. لكن صرخـةً من توأم «مَمْ» ـ الـذي سمّاه والده «دينو»، ومعناه المجنون، دون رضى أمّه التي رأت في إلصاقِ صفةِ الجنون بابنها الهادىء إجحافاً ـ أوقفتـه في منتصف السُّلّم، فالتفت «مَمْ» إليه مهـدِّداً: «اسكتْ أنتَ». فتدخّل الأب خارجاً بنصفه من الباب: «بل اسكتْ أنتَ، وانزلْ».

«ولماذا أنزل؟»، سأل «مَمْ» والدَهُ ممتعضاً، دون أن يبارح موقعه على السلّم، فردّ الأب: «أخوك يسألك أن تنزل»، فأبدى «مَمْ» تهكُّماً:

ـ منذ متى يسألني «دينو» أن أفعل ما يريد أو ما لايريد؟

«منذ الآن»، قال الأب، فردّ «مَمْ» مختنِقاً:

«لم يسألني أن انزل»، والتفت الى اخيه: «هل طلبت مني النزولَ؟»، فلم يجبه أخوه مباشرة، بل لوى عنقه صوب أبيه، متسائلاً:

ـ ما الذي يفعله هناك؟ سيعبث بأعشاش السنونو يا أبي.

فتقدّم الأب حتى أمسك بالسُّلّم، متصنّعاً الهدوء:

ـ ما الذي فعله السنونو لتعبث بأعشاشه يا مَمْ؟

«لانها ليست طيراً»، ردّ «مَمْ»، فاستغرب الأب جواب ابنه الساخر:

ـ وهل هي حمير؟

«لا» ردّ «مَمْ» جازماً: «إنهنّ بناتك».

«بناتي؟» قالها الأب منفجراً من الضحك، وصرخ فجاءةً: «هِيْفِيْنْ، وَلاتْ، عَيْشانَهْ، رَجِيْمَة، رُوْهَاتْ، هيْلِيْن»، فخرجت ستُّ بنات، بثيابٍ محلولةِ الأحزمةِ على خصورهن الرقيقة، متدافعاتٍ دون استعجال، من باب إحدى الغرف، فبادرهن الأب من غير أنْ يَقُلْنَ كلمةً: «أنتُنَّ سنونوات»، فابتسم بعضهنّ، ووجَمَ بعضهنّ الآخر مترقّباتٍ أن يشرح «حَمْدي» كلماته الغريبة. فمسَّدَ الرجل على شاربه مستطلعاً وجوههن: «أنتنَّ سنونوات»، ورفع يديه كأنما يحاولُ شَرْحاً فيستعصي الأمر عليه: «إقبَلْن ذلك يا بناتي. أنتُنَّ سنونوات»، والتفتَ إلى «مَمْ» الواقف في منتصف السلّم: «إسألنَ أخاكُنَّ»، مضيفاً وهو يتوجه إلى ابنه بكلامه: «إشرحْ للسنونوات أنّهنَّ سنونواتٍ يا مَمْ». فردّ «مَمْ» في همسٍ جازمٍ: «أنتُن سنونوات»، فقهقهْنَ، فألقى الصبيُّ بنفسه من ذلك العلوِّ ليستوي واقفاً على قدميه: «لماذا تضحكن؟» صرخَ مستفسراً، فأمسك به أبوه من قُذاله، هامساً: «وماذا تكونُ أنتَ؟».

ليس على «مَمْ» أن يجيب على سؤال الأب، الآن، وهو في الحادية والعشرين من عمره، أيْ في الليلة التي يقطع مسافاتٍ من حقول الشمال في هيئة ابن آوى، ويحسُّ ـ حين يسمع أصوات طلقات قادمة من جهة الحدود التركية ـ أنّ ألَماً ما يعتري فخذه غير المصابة بخدش. لكن، بحقٍّ، من كانَ «مَمْ» آنئذٍ؟ كان هو هو، بالطبع. كانَ ذلكَ

الصبيَّ الأكبرَ بين شقيقاته الستّ، وأخيه التوأم، الذي سبقَهُ «مَمْ» حاملاً كيس مَشيْمَته إلى العالم بنصف ساعة. ففي فجرٍ مّا، شتويٍّ مُعتمٍ قليلاً، وعلى ضوء سراج الكيروسين، ظهر «مَمْ» متدلّياً بين يديْ القابلة البدينة. ولمّا استقرَّ في طشتِ الغَسْلِ هتفتِ الأمُّ أنها تحسُّ حركة جديدة في رحمها، ولم تمضِ نصف ساعة حتى خرج توأمه «دينو» بدوره، ملتمعاً تحت ضوء السراج الذهبيّ، فبدا برتقالياً بالدّم الذي عليه.

كان الخارجُ، ذلكَ الفجرَ، أشبه برَحِمٍ، أيضاً، يلد الضوءَ ولادةً عسيرة، دفعةً واحدةً، لأنْ ما مِنْ شمسٍ لَمَسَتِ القشرةَ العظيمةَ التي غلّفت بها الغيومُ هيكلَ الشمالِ، حتى بدتِ الجهاتُ كلُّها تعتصرُ الضوءَ اعتصاراً، بالقَدْر ذاتِه، فتستفيق الأمكنةُ، والأشياءُ، في هيئةٍ فضّيّة شاحبة. وكان الهواء الباردُ ـ الحائرُ بين أنْ يكون مُمْطِراً، أو مُثْلِجاً ـ يحاول اختيار سوطٍ يليق باندفاعه الكثيف، كأسراب طيور الزّاغ التي انقسمت في طيرانها، في الوقت الذي انفصلت فيه بضع مقطورات عن قطار الشحن المُتجه، بطيئاً، من القامشلي الى حلب، عبر مسافات من الأراضي التركية، كأنّما انكسرتْ وَصْلاتُها الحديدية الصدئة. وحين أطلّ «حمدي آزاد» على ابنيه، بعد ساعةٍ، أو أكثر، لم يَقُل شيئاً وهو يتأمَّلُهما، ناظراً من طَرْفِهِ إلى زوجه «كَسْبُو» ذاتِ الجدائل الأربع القِصار، لكن استرعاهُ أنّهما يبتسمان، فابتسم، هامساً: «دخلتِ الملائكة باكراً إلى دارنا».

لكلّ طفل ملاكهُ الذي يدغدغه فيبتسم. ما من شكٍّ في ذلك، ببرهان أن الملائكة التي دخلت بيت «حمدي» فجعلتِ الطفلين يبتسمان، همَّت بالخروج ـ بعد ذلك ـ فانفجر الطفلان باكيين، حتى أن الأبَ نظر إلى الباب الموصد أسِفاً لخروجها، متمنّياً لو يقدر على سدّ كل شقٍّ صغير لتبقى في الداخل، فالملائكة كثيرةٌ، واستغناءُ الله عن بعضها ممكنٌ. وصار «حمدي آزاد» يسأل ابنيه، حين باتا صبيّين، عن أشكال الملائكة التي زارتهما (وذلك أمر نادرٌ، يحصلُ إذا ابتسمتِ المواليدُ في الساعات الأولى لولادتها) ذلك الفجرَ الشاحبَ، فيسترسل الصّبيّان في المماحكةِ، ينْقُضُ أحدُهما وصفَ الآخر، أو يؤكِّدُه ويزيد عليه:

«إنها تشبه الدجاجات»، يقول دِيْنو، فيقاطعه «مَمْ»، في لَجْلَجَةٍ:

«دجاجات؟ ليس للملائكة ريش يا أبله»، ويلتفت إلى أبيه مؤكّداً: «لم أرَ لها أجنحةً». فيسأله الأب مستوضحاً: «كيف خرجَتْ من الباب، إذاً؟»، فيردُّ «مَمْ»: «لم تخرج».

«أنا رأيتها تخرج يا أبي»، يصرخ «دينو»، مضيفاً: «كانت تحمل قباقيبَ في أيديها». فيسأله الأبُ: «وما حاجتها إلى قباقيب؟»، فيقاطعهما «مَمْ»: «لا تصدِّقه يا أبي. لم تكن تحمل قباقيب، أبداً»، وينظر إلى يديه متأمِّلاً، باحثاً عن بُرْهان: «لم تكن لها أيدٍ، يا أبي».

لكن الأب يعيد سؤاله على «دينو»، في مرح: «ولماذا تحملُ قباقيبَ في خروجها؟»، فيردّ الصبيُّ: «ثمت وحلٌ في الخارج»، فيبتسم «حمدي» وهو يغمز ابنه «دينو»: «الملائكة تطير، ولا حاجة بها إلى قباقيب أو أحذية».

ويضحك «مَمْ»، الواقف قرب مدفأةِ الحطب بيديه الممدودتين وسط الدِّفء المتصاعد من حديدها: «هي ليست في حاجة إلى قباقيب، يا أبي، ولا تطير»، معترضاً حوار أبيه وأخيه.

«كيف خرجَتْ من البيت، إذاً؟» يسأله «حَمدي»، فيردُّ «مَمْ» متأفِّفاً:

ـ لم تخرجْ، يا أبي. الملائكةُ لا تخرج من الأمكنةِ المغلقة.

«وكيف تدخل الملائكةُ الأمكنةَ المغلقةَ يا مَمْ؟» يسأل أبوه، فيرفع الصبيُّ كتفَهُ الأيسر ساخراً:

ـ إنها موجودة هناك، يا أبي. إنها موجودة هناك.

«ولماذا هي موجودة في أمكنةٍ مغلقةٍ، يا مَمْ؟»، يسأل الأب ابنه وقد عَرَتْهُ حيرةٌ خفيفةٌ، فيردُّ الصَّبيُّ: «لا حاجةَ إلى الملائكةِ في أمكنةٍ مفتوحة، يا أبي».

«ولماذا دخلتِ الملائكةُ بيتنا المغلق، حين ولدتما؟ أكانت بنا حاجة إليها؟»، يسأل «حَمْدي» ابنَه متخابثاً، فيجيبه الصبيُّ: «هي لم تدخل يا أبي. كانت موجودة في الداخل منذ بُنِيَتْ البيتَ»، غير أن صوتَ «دينو» المبحوحَ يرتفع فجاءةً، مقاطِعاً المحاورةَ:

«رأيتهـا تدخل، ورأيتها تخرج»، ويُقسِم على ذلك: «رأيتها تدخل، وتخرج». فيسأله «مَمْ» بعينين نصف مغمضتين: «من أين دخلتْ، ومن أين خرجَتْ؟» فيردُّ أخوه التوأمُ، ببساطة: «من الباب».

ويلتفت «مَمْ» إلى أبيه ساخراً: «كان الباب مغلقاً يا أبي»، فيقاطعه «دينو» صارخاً:

ـ لم يكن هنالك باب، يا أبي.

«كان الباب مغلقاً حين ولدتما»، يقول الأب وقد خفَّتْ سخريتُه، فيؤكد «مَمْ» على كلام أبيه: «كان مغلقاً يا دينو. كان الباب مغلقاً». لكن «دينو» يحتدم: «لم يكن هنالك باب»، فيسأله «مَمْ»: «كيف دخلتْ؟ أنت قلتَ إنها دخلتْ من الباب». يقولها مبتسماً. فيردّ «دينو»: «لا أعني باب البيت، بل الباب الذي نسي أبي أن يسدَّه في الجدار الشرقي».

«الجدار الشرقي؟» يسأل الأبُ ابنَهُ ونَفْسَه معاً، متطلعاً إلى الجدار السميك الذي لا منفذ فيه، هامساً: «أتعني هذا الجدار؟» وهو يكاد يضحك، فيردّ ابنه: «نعم. نسيت أن تسدَّ البابَ الذي فيه».

لا يتمالك «مَمْ» نفسه إزاء السخرية التي تتفتح في المحاورات، فيشدُّ أخاه التوأمَ من قمبازه صارخاً: «تعال. تعالَ نعبر هذا الباب غير المسدود»، وهو يتجه بأخيه المترنِّح إلى الجدار السميك، حتى يصطدمان به عَمْداً، فيتراجع «مَمْ» مسافة خطوتين، مكرراً كلامه: «تقدَّمْ يا دينو. تقدَّمْ»، مشيراً إلى البياض الأخرس للْجِبِر على الحائط الأخرس. «تقدَّمْ»، يكرِّر الكلمة، دافعاً بأخيه دفعاً من كتفه، فيلتفت «دينو» إلى أبيه الذي يراقبهما في فضول، قائلاً: «ابنك هذا لم يرَ ملائكةً قط».

«وما الذي يجعلك، أنتَ، مقتنعاً أنك رأيتها يا دينو؟»، يسأل الأب ابنه، فيردّ ابنه ذو الأذنين المتوثبتين: «لأنها دخلت من هنا»، وهو يضع راحته على الجدار.

«لا بأس» يقول الأب، كأنما يُنهي جدلاً لم يعد ممتعاً، مضيفاً: «لا بأس. الملائكة ليست في حاجة إلى أبواب، على أية حال، حتى تدخل أو تخرج»، فيقاطعه «مَمْ»:

ـ إنها لا تدخل. ولا تخرج يا أبي.

«نعم»، يقول الأب، ناهضاً: «لا تدخلُ، ولا تخرجُ». وينظر إلى ابنيه الصَّبيين ،نهياً اجتماعَ الثلاثةِ الفكهَ: «ستصفان الملائكةَ في يوم آخر».

لكن الصَّبيين لن يصفا لأبيهما شيئاً من لقائهما المزعوم، حين وُلِدَا، مع ذلك لجنسِ المجنَّح اللامرئي، لأنهما ـ حين دخلتْ عليهما كائنات الله الرقيقةُ تلك، يوم ولدهما، وهما لا ينطقان بعد ـ تَعِبا من الصراخ الذي ملأتْ به الملائكةُ الغرفةَ لموصدة، لمَّا باتَ يسألُ واحدُها الآخرَ، دونَ تحديدِ مَنْ تَسْأَلُ:

ـ أكان علينا أن نكون هنا؟

ـ نحن هنا.

ويزداد الصخب في آذان الوليدين، ممتزجاً بكلماتٍ للأمِّ، وللقابلة، وللأب لمحدِّق في ابتسامتي التوأمين، اللذين يريان ـ دون شك ـ هرجَ الكائنات الخفيّة، وهي تختلق أسباباً لوجودها في الغرفة المغلقة، ذات المدفأة التي حَمِيَ حديدها. لكن لملائكة كانت تتناسى، بين وقتٍ وآخر، استرسالَها الصبيانيَّ في المساءلةِ عن المكانِ ووجودها فيه، لتحدِّد صِيَغاً أخرى، مُقْلِقةً، في أجوبةٍ لم يطلبها أحد:

ـ «الأجنحة ثقيلة. وهؤلاء الآدميون أذكياء منذ الولادة، لأنهم يولدون من دونها»، يقولُ واحدُهم، فيردّ الآخرُ: «الأجنحةُ هي التي تختار»، فيقاطعُهُ الواقفُ إلى يمينه: «لا. الحكايةُ هي التي تختار الأجنحةَ لهذا، أو لذاك».

«لكنها لا تختارُها للآدميينَ»، يقول أحدُها، فيهمس الذي إلى جواره: «الحكايةُ لا تختار أجنحةً لأحد، لأن الحكايةَ لا تختارُ نفسها». فيضحك مَلاكٌ آخرُ: «الطيورُ وحدها، تختارُ أجنحتها»، فيردُّ صاحبه: «ليس للطيور أجنحة».

«وكيف تطير؟»، يسأل أحدُها ـ للمرة الأولى ـ في مرحٍ، فيردُّ ملاكٌ آخرُ: «إنها لا تطير».

ـ «ونحن؟!» يسألُ الملاكُ ذاتُهُ الملاكَ الآخرَ، مضيفاً: «كيف نطيرُ نحن؟!»، فيردّ الآخرُ: «لا نطير».

عند هذا الجواب الجامع تُلقي الملائكة، بعضُها على بعض، نظراتِ استهزاءٍ

أول الأمر، ثم يتمعن أحدُها في الآخر ليحدِّد موضعَ جناحيه فلا يجدهما، فيرتفع عويلُها كَينات آوى.

بالطبع، لم تكن الملائكة وحدها اكتشفتْ انعدامَ الأجنحة في الكائنات، فالخان اسماعيل آغا سِمْكُوْ، ذو السيطرة القوية على مدن «شاهْنَافِيْ»، و «ماكو»، و «كاتُوْرْ»، في ايران، شتم ذات مرة ـ وهو الرجلُ الوقورُ ـ كيف لم يجعل الله للكائنات أجنحةً كي تطير. ولمّا قال له بعض أتباعه، في حياء، إن للطيور أجنحةً صرخ الرجل ذو الشاربين المشذَّبين، والعمامة ذات الشراشيب الطويلة على كتفيه: «لا أجنحة لأحدٍ ما دام أبي لم يستطع الطيران من سجنه».

كانت لعبةُ الألم تقتضي ألا يخرج والد سِمْكُو من سجنه في طرابلس، بالشمال الأفريقي، حيث أُبْعِدَ هو وعبد الرزاق بدرخان، بعد الاتهام الذي وُجّه إلى وُجهاء كثيرين من الأكراد بأن لهم يداً في مقتل رضوان باشا، رئيس المباحث التركية في اسطنبول، في العام ١٩٠٦. وقد توفي الرجل تحت التعذيب، أيْ والد سِمْكو، لكن ذلك لم يمنع أحدَ المُعذَّبين الآخرين، وهو علي شاميل باشا، من خنق رئيس لجنة التحقيق نجم الدين، الذي أُرْسل، خصيصاً، إلى طرابلس، ليستجوب هؤلاء المحكومين بالإعدام.

من قتل رضوان باشا؟. كان محروساً في عناية من قِبَلِ زُعرانه الذين يتلقون معاشات من السلطان مباشرةً، لكنه قُتِلَ.

نفى عبد الرزاق بدرخان، القادم من انكلترا التي أقام فيها علاقات وطيدة مع المنظمات الكردية، والأرمنية، علاقته بمقتل رئيس المباحث، دون جدوى. وكانت السلطات التركية هي التي استدرجته، بوساطة أبيه، للعودة من بلاد الضباب. لكن عبد الرزاق كان كبش المحرقة إزاء إخفاق المباحث في اكتشاف قاتل رئيسها، فاتهمته بالتآمر، مع علي شاميْل، ووالد سِمكو، على حياة رضوان باشا، فأُرْسِلوا ـ جميعاً ـ إلى طرابلس الأفريقية. غير أن التهمة لُفِّقتْ على نحوٍ آخر حين رأى الترك الحاكمون الاستياءَ في القرى الكردية، وهي أن هؤلاء المُبْعَدين كانوا يخططون ـ عدا عن قتل رئيس المباحث ـ شيئاً ضد حياة السلطان وسلطته، في كلٍّ من القسطنطينية وكردستان، بمساعدة وريث العرش يوسف عز الدين.

لكن التُّهَم طاولت، على نحوٍ غير مدروس، أناساً لم يكونوا في اسطنبول، أو القسطنطينية، أو كردستان. فاعتُقل كامل بيك الذي في حيفا، ومحمد بيك، وعلي بيك اللذان في بيروت، ونُفي صالح بيك، والعجوز حسين بيك إلى رودس. فلم يرجع الكثيرون، بأجنحةٍ أو من دونها.

أمّا كيف مات والد سمكو، تحت التعذيب، ولم يستطع الطيرانَ، فذلك أمر قد تسرده ملائكةٌ كانت هناك، دون أن تقول للمخان اسماعيل آغا سمكو إن والده كان يملك جناحين، وأحرقهما ريشةً ريشةً بأعقاب لِفَافاته كي لا يطير. غير أنها قد ترسم صورةً، دون تحديدِ الشخوص، لمقتل رضوان باشا، رئيس مباحث اسطنبول، الذي حاول أن يفتح الطريق إلى بيت عبد الرزاق بدرخان، ومن دون أن تَذْكُرَ أكانت محاولة فتح الطريق تتمُّ بين بشرٍ أَمْ عوائقَ طبيعيّة من ترابٍ، وحجرٍ، وشجرٍ.

كان رضوان باشا يتقدّم من منزل عبد الرزاق بدرخان، الكرديِّ، بنفرٍ قليلٍ من عسكره الخيّالةِ، وهو في عربةِ حَنْطورٍ مظلّلةٍ بسقفها الجلديِّ، يقودها جوادان فقط. وكان واضحاً أن المهمة تقتضي قبضاً مهذّباً على الرجل الذي عُيِّنَ، بعد عودته من بريطانيا، رئيساً للتشريفات في قصر السلطان عبد الحميد. والأسباب الحقيقية تعود، برمّتها، إلى تاريخ أبعدَ من عودة عبد الرزاق - بإحراجٍ من أبيه، ووعودٍ سلطانيّةٍ - إلى تركيا. فهو عمل سكرتيراً ثانياً، في بداية التسعينات، في السفارة التركية ببطرسبورغ. ولمّا تكاثرت الوشايات عن اتصاله بالمناوئين للباب العالي، من أكراد، وأرمن، ويونانيين، هرب إلى ولاية «بدليس»، على أمل الانتقال إلى «يريفان» ليبقى قريباً من المعاقل الكردية في القُفْقاس، لكن علاقة السلطان بالقيصر الروسي لم تدع مجالاً للشفاعة في أمر عبد الرزاق بدرخان، برغم أن له أصدقاء في بطرسبورغ، فغادر إلى بريطانيا. وبعد بضع سنوات عاد إلى تركيا مرضيّاً عنه على مضضٍ، بوساطاتٍ كثيرة.

على أية حال، تقدَّم رضوان باشا من بيت غريمه، صديقِ الروس، والحائزِ جائزةَ ستانسيلاف تقديراً لعلاقاته بالامبراطورية البيضاء، لكنه تراخىٰ، فجاءةً، في مقعدهِ الوثير، وقد مالَ طربوشه بفعل انزلاق رأسه على مسندِ العربةِ الخلفيِّ، فتململ الحصانان

قلِقَيْنِ، ثم حَمْحَما وارتدَّا قليلاً، ثم توقَّفا متأمِّلَيْن، فيما دبَّ الهلع بين أعوانِ الرجل ذي الشَّأنِ، فتقافزوا عن خيولهم صاخبين.

قُتِلَ رضوان باشا المكروه دون مقدِّمات، ودون تحديد لأداة القتل أيضاً، وسط قهقهـة الملائكة التي تسرد الحكاية، فاتُّهم عبد الرزاق بدرخان، وعلي شاميل باشا بالجريمة، وأرسلا، بإضافةِ والد سِمكو إليهما، إلى طرابلس الأفريقية، التي كانت فيه حاميةٌ غريبة الأطوار، متذمِّرة من السكان المحلّيّين الكسالىٰ إلى درجةٍ لا مثيل لها. وغرابةُ أطوارِها، بمن فيهم من محقّقين وشرطة مدنية، أيضاً، كان باعثُها أنَّ ما مِنْ أحدٍ في المدينة الغبراء ينجز شيئاً قطُّ بمقدارٍ معقولٍ، حتى أن المحقِّقَ، الذي أمر بالإجهاز على والد الخانِ اسماعيل آغا سِمْكو، لم يفعلها إلا عن كسلٍ:

ـ «أأنت آغا؟»، سألَهُ المحقِّقُ، فردَّ الرجلُ المكابرُ:

ـ «ما أصلُكَ أنتَ؟» فاستغرب المحقِّق جوابَ والد سِمكو، ثم صمت، ليطلب بعد ذلك عشاءه، فقيل له إن الطاهي الطرابلسيَّ وضع القِدْرَ على نار مطفأةٍ وأغفى. لذلك تأخَّر الطعام، فأمر المحقِّق بضرب والد سِمكو حتى ينضج العشاء، فماتَ الرَّجل لأن فخذَ الثور المطهوَّ لم ينضج حتى الفجر.

«لا أجنحة لأحد» كرَّرها الخان سِمكو، العارف بمصير أبيه، حين لم يستطع أبو الطيرانَ من سجنه بطرابلس الموحشة. ومذ ذلك عقد هو وعبد الرزاق بدرخان روابط متينة مع الروسيين، الذين كانوا ضمّوا القفقاس التركيةَ إليهم في حرب ١٨٢٨ـ ١٨٢٩، وهي المناطق الأكثر ازدهاراً بالحركات الكردية، التي انطلق منها الرجلان بأفكار تعليمية غير مدروسة تماماً، لكنها حماسيةٌ تأْمَلُ للشعب الكرديِّ ثقافةً متَّصلةً بثقافة الروس. ومن مدينة «خُوَيْ»، بغربي ايران، ذات الثلاثين ألف نسمة، ظهرت جمعية «التعليم» التي انحصرت أهدافها في فتح المدارس، وإصدار الصحف، بدعمٍ من الأغنياء الكُرْدِ. ومن ثم اتَّصل عبد الرزاق بدرخان بنائب القنصل الروسي في المدينة، يطلب مساعدة إمبراطوريته حتى تشمل جمعيةَ «التعليم» بحمايتها الرسمية، في العام ١٩١٣. فكتب القنصل إلى بلاده رسائل تشرح الفائدةَ الحقيقية من دعم هذا المشروع، الذي تعدّى «التقارب الروحي بين الكُرْدِ والروس» إلى إنشاء أبجدية كردية جديدة، على أساس

الحروف الروسية، إضافةً إلى طلب عبد الرزاق، بإلحاح، أن يُفْتَتَحَ معهد لتدريس اللغة الكردية وآدابها في بطرسبورغ.

أدار «سِمكو» بنفسه جمعية «التعليم»، التي باشرت افتتاحَ مدارسَ كرديّةٍ في «خويّ»، فأثار ذلك حفيظة الموظفين البلجيك، وإدارة الجمارك الإيرانية الموجودة هناك، فأوصوا ـ معاً ـ السكان، سرّاً، بالامتناع عن دفع الزكاة التي تذهب إلى الجمعية، لأن «سِمكو» يحاول «نشرَ الدين المسيحي بين الأكراد». وقد ضحك «سِمكو» مراراً من الحكاية: «أفهم الإيرانيين الغيورين على دِيْننا، لكنني لا أفهم البلجيك». وفي افتتاح أول مدرسة في «خُوْيّ» استقدم اسماعيل آغا سِمكو تسعةً وعشرين طفلاً، مرتدين أزياء موحَّدة، وقبّعات قوقازية بيضاء، يحرسهم أربعون محارباً، فمرَّ بهم المدينةَ من أوّلها إلى آخرها، وسط نظرات الإعجاب من الجمهور الفارسيِّ الواقف صفّيْن، الذي تعوَّد إطلاقَ تسمية «أطفال الذئاب الجبلية» على أبناء الكرد.

و «سِمكو» يكرّر جملته «لا أجنحةَ لأحدٍ»، في جزءٍ مّا من أعماق «حَمْدي آزادْ»، المتمدّدِ على البساط الخشن باتّكاءٍ على مرْفَقِهِ، الآن، فيما ابنه «مَمْ»، المتسلّل إلى حقول بلدة «القُبُور البِيْض»، البعيدة، تلك الليلةَ، وهو في هيئة ابن آوى، يتوقّف قليلاً عن عويله المعتاد بين سربه، ليتأمّل نجمةَ الشمال المنحدرةِ إلى كهفها، كأنّما تنذرُهُ بقدوم فجرٍ لا قُدْرَةَ لـ «مَمْ» ـ وهو في هيئته هذه ـ على احتمالِ فجوره وحِيَلِه، فيُجْفِلُ «مَمْ».

كان هديرُ قطار الفجر، المنطلق من مدينة القامشلي بعربات نصف فارغة، يبعث دغدغةً في الأرض البعيدة، التي انطلق منها «مَمْ» راكضاً على قوائمه الأربع، بغريزةٍ تدرك أن الليلَ لم يعد قادراً على تدبير عُذْرٍ لشكْلِهِ الحيوانيِّ. وحَقْلاً بعد آخر صار يحسُّ بثقلٍ لا يتيحُ لقفزاته رشاقتَها المعهودةَ، ولم يعد يرى في النبات البريِّ، الذي يطأُهُ، غير معوِّقاتٍ خشنةٍ، باتتْ تصفع قوائمه صَفْعاً، أو تخدشه بوبَرِها الشوكيِّ. ومع الخيوط الأولى لمِغْزَلِ الفجرِ، الذي تديره أيدي الفضاءِ الشاحبِ بأظافرها النَّجميَّة، تسلل إلى عَضَلِهِ وَهَنٌ قَسَا لحظةً، إثر لحظةٍ، وبخاصّةٍ في قائمتيه الأماميتين، اللتين أحسَّهما تقْصُران، ، فيما تهيّأتْ قائمتاهُ الخلفيَّتان أنْ تستقيما.

عبر الدغل الصغير من شجر الشَّربيْن، والصفصاف، عاد «مَمْ» في اتجاه البيت، ناهضاً على قدميه المتعبتين، وهو يحرك ذراعيه لتعودا ليِّنتَيْن، ويُقَضْقِض بفكِّهِ الأسفل كأنما يمرِّنُهُ على حركةِ الكلامِ، بعدما كان حُكْراً على عويله الحيوانيِّ كابنِ آوى. ولمّا وصلَ الباب الحديديَّ، في السور العالي، دفعه فانفتحَ، لأن والده الذي يَؤُمُّ المسجدَ لصلاة الفجر يتركه مفتوحاً. وإذ دلف إلى ساحة البيت اتّجه إلى السلم، صاعداً إلى السطح حيث فراشُهُ الباردُ، فتمدَّد عليه ونام تحت السماء التي ازدادت افتضاحاً بتهديدات الصباحِ وابتزازه.

في الليلة التالية لم ينزل «مَمْ» المتمدِّد على فراشه فوق السطح، برغم الإغراء الهائل لعويل بنات آوى القادمِ من الحقول الغربية. فهو، «قد تذكَّر ليلته الماضية على نحوٍ كالحمّى، خشيَ الإغراءَ العذبَ في أن يكون مجرَّداً من الذاكرةِ، وقريباً من النبات والظلام الأسِرَيْن، فلا يعودَ إلى البيت قط، بعدما أحاطه والده علْماً بوجوب سفره إلى جزيرة قبرص، بعد أيام. واجتهد، بطريقةٍ قاسيةٍ، ليلةً بعد أخرى، على تسليم فكرِهِ إلى «الرجل الكبير» الذي سيلتقيه، في حقولٍ أكثر كمالاً، وسيهيِّئه ـ كما يهيِّئُ النجّارُ النَّواعيرَ ـ لحلمِ أبيه «حمدي».

كان امتحاناً حقيقياً أنْ لا ينزل «مَمْ»، تلك الليالي الأربع، من فوق السطح، وهو يتشبَّث بالفراشِ، كلَّ ليلةٍ منها، بمخالبه، كاتِماً عويلَ ابن آوى في حنجرته التي عليها أن تُجاري العويلَ البعيدَ لسربهِ في الحقول الغربية؛ لسربهِ الذي سينحدر إلى الشرق، عبر أدغال غير ممتدَّة، تتوازى على جهتي الأسلاك التي تقسِّم الحدود بين تركيا وسورية، لكن أغصانَ أشجارها، وعُلَّيقها، ومساربَ الجداولِ، تتلاحَمُ على نحوٍ هازئٍ. أمّا طَلَقاتُ خَفَرِ الحدود، القادمة من الجهة التركية دائماً، دون أن يردَّ عليها أحد، فلا يلبثُ الهواء، الذي ينقَسِمُ من حولها، أن يلتحمَ في حلقات لولبيَّة، أيضاً، كأنّما يخيِّطُ القَدَرُ للموتِ قميصَهُ المُمزَّقَ.

لم يتحدَّث «مَمْ» إلى أحد في الأيام القليلة التي سبقت سَفَره. كان مُغْتمّاً، وشارداً، في الآن ذاته. يُهَمْهِم من وقت إلى آخر: «لماذا أنا، وليس دينو؟». أمّا «دينو»، ذو الفم الساخر، فلم يكن يُخفي استخفافه بأخيه التوأم كلَّما صادفه في الغرفة المنفصلة

التي يقطُنانها معاً، في معزل عن الغُرَفِ الأخرى حيث الأبوان، والأخوات السّتُّ، اللواتي تتردّدُ مشاجراتُهنَّ بين أوراق شجرتي الكينا الكبيرتين، المنتصبتين في زاويةٍ من ساحة البيت.

ليس للتفاصيل اللاحقة أهمّية مّا. فقد وصل «مَمْ» إلى الجزيرة التي تتحدّثُ اليونانيّةَ برطانةٍ ثقيلةٍ، وكسولة. وكان في انتظاره ـ من قِبَل «الرجل الكبير» ـ من يدبّر له أمور الإقامة والسّكنى، ريثما يتسنى «للرجل الكبير» وقتٌ يهيّئُهُ لمُوْفَدٍ في الحادية والعشرين، لا يعرف إلاّ كتابة رسائل عن ضجرِه إلى أبيه، ومن ثمّ يمزّقها قبل إرسالها.

ستُّ سنواتٍ مرّت على وجوده في الجزيرة، قبل أن يقرّر «مَمْ» تحديد لعبته في أن يكون صيّاداً، دون مهارةٍ، وسطَ انتظارِهِ الكبير، كأنّما أيقظته العصافيرُ، التي تحط في العراء الممتدّ إلى الجهة الجنوبية من منزله، على صرخةِ أبيه، حين كان «مَمْ» يتتبّعُهُ بفخاخه في السهول: «لم نأتِ لنتصيّد يا أحمقُ، بل لأجْعَلَكَ قَلِقاً».

و «مَمْ» ليس في حاجة إلى المزيد من القلق، على أية حال. فالمكانُ قَلِقٌ برمّتِهِ إلى درجةٍ لا يمكن التفكير معها في القَلَق: شجيراتُ الفلفل تنمو. شجرةُ الكينا الصغيرةُ تنمو. شجرةُ العَفْص الجبليّةُ تنمو. الجَرْجيْرُ الفَكِهُ ينمو. البوغانفيل والجيرانيوم ينموان. شجر الأكاسيا يحدُّ الأفقَ الغربيَّ المُهَيَّأَ كمرتعٍ لطيور البوم. شجرةُ التين الرَّحيمةُ تحجب المنزلَ الواقعَ إلى الجهة الشرقية من منزل «مَمْ» بتواطؤٍ حنونٍ، نُمُوّاً بعد نُمُوّ. الزنابقُ الفصليّةُ تكرّرُ دعاباتِها لشهرٍ واحدٍ، ثم تميلُ كعبءٍ مُقَدَّرٍ على كاهل الحديقة. عريشةُ العنب تتعرّى وتكتسي في إهمالٍ وضجرٍ، كأنما تؤدي دورها دون إتقانٍ. والزيتون المزروع في الجهات كلِّها ـ على نحوٍ فظٍّ لا يُراعي التناسق المُمْكنَ في أصناف النبات من حول البيت ـ يؤسّس لنفسه سطوةً هادئةً، ومُحْكَمَةً، تطغى على شجيرات الليمون والبرتقال، المتشابكة خلف غرفة النوم.

هكذا، في بساطةٍ، يبدو كلُّ شيء قَلِقاً، بالقَدْرِ الهائل للرَّتابةِ التي توزّعها الحياةُ على فصولها. وما يزيد الأمرَ إحْكاماً أن طائري الحقل، اللّذين يضمرُ لهما «مَمْ» جيْلاً لم تنجح قط، يحطّان في الموقع ذاته خلف البيت، من الجهة الجنوبية، في بداية كل

ربيعٍ قلقٍ لا يعرف كيف يفصل بين بذورِ الأقحوان والهندباء. فيرجِّح «مَمْ» ـ والمكان على ما هو عليه ـ أن هناك سوء تفاهم بين الجهة الجنوبية وبينه، كسوء التفاهم ذاته بين الطائرين نفسيهما، كلَّما حطَّا هناك، لأنهما يجثمان دون مَرحٍ يليق بالطيور، ولا يتحرَّكان كما تتحرَّك الطيور، ولا ينقران الأرض كثيراً، أو ينفضان ريشهما المبتلَّ، بل يلبثان متقاربين، وقد لامسا بصدرهما الرَّملَ الرَّطبَ، ناظرَيْن إلى بيت «مَمْ» وهما يتهامسان:

«إنه يرانا»، يقول الطائر الأول، فيردّ الثاني:

ـ نعم.

«إنه أحمق»، يقول الطائر الأول، فيردُّ الثاني:

ـ الحمقى يرون الحمقى.

«أتظنّنا أحمقَيْن؟»، يسأل الطائر الأول، فيردُّ الثاني:

ـ لا. المكانُ أحمقُ، ونحن نفسِّر...

«نفسِّر ماذا؟»، يسأل الطائرُ الأولُ صاحبَه، فيردُّ الثاني:

ـ ما يقدرُ هذا الشابّ أن يفسِّرَهُ لنفسه.

«إذن، نحن أحمقان»، يقول الطائر الأول، فيردّ الثاني:

ـ نعم، لأنك تكرِّر اللعبة كلَّ عام.

«أنا؟؟»، يسأل الأولُ بامتعاضٍ، فيردُّ الثاني:

ـ قلت لك، إننا اكتفينا من طرائق صيد هذا الشاب للطيور. قلتُ...

«لم يستنفد طرائقَ الصَّيْد بعدُ»، يقول الأول مقاطعاً، فيردّ الثاني:

ـ أعلينا، نحن، أن نرشده إلى سبيلٍ أنجح ليتصيَّدنا؟

«لقد تصيَّدَنا، على أية حال»، يقول الأول في ضجرٍ، فيردّ الثاني:

ـ تصيَّدَكَ أنتَ، وحدَك.

«ولماذا تصاحبني، كلَّ عام، ما دام هذا الشاب قد تصيَّدني؟»، يسأل الأول صاحبَهُ، فيردُّ الثاني:

ـ لأنقذكَ.

«لِتُنقِذَني!!!». يصرخ الأوّل مستنكراً، فيقطع «مَمْ» حوارهما، متقدِّماً إلى جهة الصحراء، جنوباً، حاملاً الريشةَ التي وجدها في قاع حقيبته، وهو يتمتم: «انتظِرا»، مشيراً إلى الطائرين. والطائران لا ينتظران أن يقول «مَمْ» إنه وجدَ ريشةً بين ثيابه، وفي ودِّه أن يسألَهما لمن تكون. فَهُمَا ـ في خفقاتٍ خفيفةٍ من أجنحتهما ـ يقتسمان الفراغَ الذي يجعلهما ظِلَّيْنِ في اتجاهٍ معكوسٍ من الأرض على السماء، ويبتعدان.

لا ينظر «مَمْ» إليهما طويلاً، في ارتفاعهما، بل ينظر إلى المكان الذي جثَما فيه. وحين يبلغُ البُقْعَـةَ، حيث حطَّ الطائران، يرفع قبضته عالياً، ثم يفتحها فتنزل الريشةُ متمايلةً، وإذْ تصلُ إلى الأرض لا تتوقَّف، بل تظلُّ منحدرةً إلى الظلام، تحت القشرة الرمليَّة، في المَكْمَن الـذي طالمـا أرادَهُ «مَمْ» مساحةً لقبره، كأنَّما تتَّجه إلى جسده المسجّى مباشرةً فتخترقه، ثم تنزل أعمقَ، متمايلةً، صوب المياه الرّاكدة تحت عرش الله، وسط هَمهماتٍ من الملائكة المذعورة التي تتفرَّقُ جموعها وهي تنظر إلى الريشة الرمادية الصغيرة، المنحدرةِ من الأعلى، وقد علق بها رملٌ ناعمٌ من قبر «مَمْ».

لكن «مَمْ»، الذي لم يَمُتْ بعد، يعود أدراجه صوب البيت، بعدما تركَ الريشة تنحدر إلى العراء من قبضته، وهو يتمتم: «لماذا يطيران؟».

الفصل الثالث

دورةٌ من المزاح لتأكيد مصائرَ
كثيرةٍ ليس لها مكانٌ في هذا
الفصل / أو: مَهَمَّة «مَمْ» غير
المُحْتَمَلَة.

«هؤلاء البروتستانتيون الألمان يكذبون عليكم». تلك كانت الجملة التي استنسَخْتُها بضع مرّات فقط، عن الورقة الثقيلة التي أعطانيْها جاري الغارقُ في معطفه، ذو الكفّ المنتهية بجناحٍ صغير من الريش، وليس بأصابعَ. وكان طلبُهُ ثمانين ألفاً، لكن انشغالي في الأيام الخمسة، التي أعقبت لقائي به في البيت الواقع إلى شمال حديقتي الأمامية، لم يدع لي مجالاً للاهتمام كثيراً بتلك الجملة نصف الغريبة.

لا. لم أكن مشغولاً بالمعنى الحرفيّ، بل كنتُ مهموماً فنسيت أمر الجُملة الغارقة في مكانٍ مّا من جيب بنطالي المُهْمَل. وفي مساء اليوم الرابع تذكّرتها. فاستنسختُها مرات قليلة ثم ضجرتُ. ولمّا هممتُ بحمل تلك النُّسَخ القليلة إلى جيراني، صباحَ اليوم الخامس، وأنا أبحث عن اعتذارٍ لائقٍ، وعن جوربي، ارتفع الطنينُ المختنق لجرس الباب، ففتحته وأنا أرتدي فردة حذاء واحدة، لأرى الرجالَ الأربعةَ، الذين هُمْ صِلتي المزعومةُ بـ «الرجل الكبير»، واقفين أمام العتبة، بأيديهم الرّاكنة إلى دفء جيوبهم، وعلى شفاههم ابتسامات لا تُخفى، فبادرتهم منفردَ الأسارير:

«خبرٌ حلوٌ؟» سألتهم، فهزوا رؤوسهم:

ـ إنه ينتظرك.

تنفّستُ عميقاً، وقد اعترتني رجفةٌ خفيفة في العظام لم تصعد إلى اللّحم، لأنني،

برهةً بعد أخرى، وأنا أضع فردة الحذاء الثانية في قدمي، وجدتُني ـ بأحاسيسي الخفيَّة ـ غير عابىء باللقاء الذي انتظرته ست سنين، كأنّما انتظاري نفسه كان لقاءً طويلاً حتى الضجر. غير أنني لا أستطيع تحويل الحكاية إلى مسارٍ آخر، فما الذي سأفعله، إذا افترضتُ أن لي القدرة على مصارحةِ هؤلاء الأربعة، الواقفين أمام عتبة الباب، برغبتي في التخلّي عن لقاء «الرجل الكبير»؟ ما الذي سأفعله إذا أخذوا تصريحي على محمل الجدّ، ومضوا مبتسمين كما جاءوا؟ سأتحرّر من انتظاري. أعرف ذلك. لكنْ سيُقلقني ـ إلى الأبد ـ أنني لم أستنفد فضولي في شأنٍ انتظرتُه ستّ سنين، ولن يقتضي مني ـ كما هو واضح ـ أكثر من لقاءٍ سيُريح أبي، ويتأوّه مجالسوهُ استحساناً كلّما سمعوا الحكاية من تحت شاربيه الكثّين.

صَفَقْتُ البابَ من خلفي وتبعتُ الأربعةَ، متأمّلاً الشارعَ القوسيَّ عسى أجد مركبةً في انتظارنا، فلم ألْحَظ وجودَ درّاجةٍ حتّى. فتعلّلْتُ بسببٍ بدا لي بَدهياً، وهو أن بيت «الرجل الكبير» لا بد أن يكون قريباً. لكنني اكتأبْتُ، مع ذلك. فاسمٌ على هذا النحو من الثِّقل الذي سردَهُ أبي لي، مراراً، يقتضي من صاحبه مباهاةً تخلبُ ضيوفه، فلا يكلّفُهُم مشيَ فرسخٍ واحد، أو أمتاراً بين عَتَبَتَيْن. غير أنني مشيت إلى جوار صفِّ الأربعة اللاّمنتظِم، واضعاً يديَّ، بدوري، في جيْبَيْ بنطالي المتهدّل.

لا أعرف كيف بدت لي الشوارع القصيرة التي اجتزتها غريبةً، وأنا الذي اجتزتها مراراً، ستَّ سنين. كانت ضيِّقةً هذه المرَّة، متقطّعة بين كل عشرة أمتار، بسبب فوضى أغصان الخرّوب الشمثاء، والأكيدُنْيا المُهْمَل، والرُّمان، وبعض الأَثْلِ الذي ينمو على جانبيّ الإسفلت، حيث لم تهتدِ الدولة، بعد، إلى شقّ أقنية لتصريف مياه المطر، أو القاذورات، هناك. أما شجر الزيتون، بجذوعه المتقوِّسة، فكانت أغصانه المسترسلة على الأرض قد انسحقت بفعل أقدام المارّة، أو بفعل عجلات ثقيلة، فانْسَفَحَ منها زيتٌ بَقَّعَ الإسفلتَ من جهتيه.

لم نلتق بأحد. حين عرّجنا من مُنْعَطَفٍ على آخر، ولم نتكلّم. كان الصباح رمادياً ودافئاً، والبيوت يحكمها سكونٌ مُطْبقٌ. يماماتٌ شاحبة حطت على الاسفلت، ومن ثم طارت لتحطَّ على قرميد المنازل. عصافير قليلة عبرتْ أسلاكَ الكهرباء، من جهة إلى

أخرى، وسنونوةٌ واحدةٌ آثرتْ أن تنخفض في طيرانها، لتلامسَ رقعةً من مياه المطر قرب الرصيف، صاعدةً ـ بعدئذ ـ بجناحين خاطفين، كأنّما تمتحن الهواءَ المُهَرَّجَ من حولها.

كان الرجال الأربعة ـ مثلي ـ مرتديْنَ سُترات خفيفة، لكنهم ـ من منعطف إلى آخر ـ بدأوا يخسرون ذلك الهدوء الذي حملوه في وجوههم حين طرقوا بابي، وباتتْ حُبَيباتٌ متلألئةٌ من العَرَق تنْفُرُ من بين التجاعيد القليلة في الجباه ومن حول أنوفهم، دون أن يمسحوها. أما أنا فكانت يداي، وحدهما، تعرقان ـ قليلاً قليلاً ـ في جَيْبَيْ بنطالي، وأنا أضمُّ قبضتيهما على فُضول باردٍ، فيما تزداد من حولنا، كلّما اجتزنا شارعاً، أصواتُ أجنحة كثيرة تهدأ أو تعلو، لكنها لا تكشف عن مصدرها، كأنّما تتبعنا بأمرٍ يقضي الاّ تزعجنا، أو تثيرَ ريْبَتَنا.

البيوت بدت مهجورة من شارع إلى آخر، وأنا متعوِّد ـ على أية حال ـ أن أرى الجزيرة هذه مهجورة برمّتها، خلا ما يقولونه عن الشواطئ التي تزدحم، صيفاً، بسائحين قادمين من بلاد الجليد، وهم يحملون صُرراً كبيرة على ظهورهم، ويقطعون المسافات مشياً، فلا يكلّفون أنفسهم دفع نفقات النوم حتّى، لأنهم يتخذون من الشواطئ مهاجعَ ينامون على رملها، وإذا صعدوا الجبال العارية نصبوا الخيام الصغيرة التي يحملون. ومع هذا تحبّهم دولة الجزيرة، التي تولد نساؤها ببشراتٍ سمراء، وشعورٍ خرنوبية أو سوداء، ثم لا يدخلن أعوامهن الثلاثين إلاّ شقراوات، بقدرة قادر.

جزيرة تحبُّ ذوي البشرات الشمعية، وتُفْتَنُ بهم. أما عاصمتها التي أقطنها، في وسطها القاريّ الكَتيم ـ حيث لا بحر، ولا نهر، ولا أسماك، ولا فضول، ولا صخب، ولا قلق، ولا صيد، ولا نساء دون شَعر على أصداغهنّ ـ فقد وجدتها مهجورة أبداً، بساكنيها المتشابهين كورقةٍ مُسْتنسخَةٍ، ولهم أسماء موحّدةٌ، ونكهةُ طعام واحد، دون زيادةٍ في التوابل أو نقصٍ فيها.

كنتُ أراهم فأزداد وحشةً، حتى حسبتُ الجزيرة مهجورةً. وهي مهجورة على أية حال. فها نحن إذ نعبر الشوارع لا نسمع إلاّ رفيفَ الأجنحة، وأصواتَ أنفاسنا. لكنني أظُنُّنا نمشي في متاهةٍ، فلا نخرج من شارعٍ مشجَّرٍ صامتٍ إلاّ إلى شارعٍ مُشَجَّرٍ صامتٍ، بينما تنحدر حُبيبات العرق التي تلألأت على جباه الرجال الأربعة، أول الأمر،

لي ما تحت ياقات قمصانهم المُزَرَّرة، ومن ثم تغدو حركتهم ثقيلة فأكاد أسبقهم أحياناً، أستدركُ فأرجع إلى صفّهم المنتظم، لأنني لست الدَّليلَ.

البيوت متشابهةٌ، بدورها، إلى درجة مضجرة، برغم استقلال المنازل بعضها عن بعض، ممّا قد يترك للهندسة حريةً في ابتكار النوافذ مثلاً، أو السياجات، أو المداخل، أو الشرفات الأرضية، أو تصميم المنزل كلّه، ما دامت الفراغات الهوائية من حوله هي ملك قاطنه. لكن ما من مغامرةٍ تزيينيّةٍ قط، كأنما لا تحتمل الأقلام الزرقاء ـ التي يخطون بها الزوايا، والارتفاعات، على الورق الكبير المُسَطَّرـ إلاّ تكرار حصارها على الأساسات والأعمدة، بالضجر الكبير ذاته الذي رَسَمَتْ به أوّل تصميم.

بيوتٌ مكعَّبة: لا شيء أكثر. وأنا استنفدتُ فضولي في النظر إليها منذ الشهرين الأولين لوصولي إلى هذه الجزيرة. لكنني كنتُ أُصعقُ إذا رأيتُ شخصاً خارجاً منها ولم أره من قبل، أو داخلا إليها ولم أره من قبل. تلك كانت الدهشةُ الوحيدةُ الممكنة، التي غدت، يوماً بعد آخر، مثل توقيتٍ ميتٍ لموعد ميت. فالداخلون هُمْ هُمْ، والخارجون هُمْ هُمْ، بينما عدت أنا إلى استقصاء ما ينبغي كتابته إلى أبي، مستلهماً من الأبواب الخشبية، التي أبقيتها مغلقةً ستّ سنين، ما هو جدير بجعل هذه الجزيرة جزيرةً فيها بحرٌ، ونهرٌ، وجبل، وشجر، وطيور، وفكاهات، وحدائق، وهندسة، وموتى، وولائم، ومراعٍ، وسهوب، وثلج، وفخاخ، ورجال يقودونني إلى «الرجل الكبير»، كل يوم، لكنني أدّعي اعتذاري عن لقائه بانتظار أن يقول لي أبي ما الذي عليّ فِعْلُهُ، تحديداً، ومن ثم أُمزّق ما أكتبه إلى أبي فلا يصلني جوابُهُ، بالطبع، ولا تصِلُهُ جزيرتي. بينما يبقى شبح «الرجل الكبير» منتصباً في الحبر الذي أدوّن به وقتيَ المُمزَّقَ.

لا أعرف لماذا عنَّ لي، وأنا سائر مع الرجال الأربعة، أنني سأقابل رجلاً قصيراً، يرتدي صدّارة تحت سُترته المسدلة فوق بنطالٍ فضفاض. تعجبني فكرة أن أتخيل جميعَ من أراهم في صدّارات، حتى لو كانوا يرتدونها فوق سراويل قصيرة، ولا أستثني من ذلك النساءَ أيضاً، برغم أنني لا أعرف ما الذي سيفعلنه بالجيوب الأربعة المتوازية جهةَ اليمين وجهــةَ الشمال، حيث يودِعُها الرجال ـ عادةً ـ ساعاتِهم ذات السلاسل، وقطعَ النقود المعدنية التي تتبقى بعد صرف القِطع الورقيّة، وكذلك الورقَ الذي يلفّون به تبغَهم،

وبعضهم يضع فيها مِسْوَاكاً يحفُ به على أسنانه قبل كلّ صلاة، مطهِّراً فمه، بهذا النبات الكريم، من أيِّ هَذْرٍ تفوَّهَ به قبل وقوفه في حضرة الله.

كان أبي يرتدي صدّارة، أيضاً، حتى وهو يعجن الطين الممزوج بالقش والملح ـ مرتدياً سروالَهُ الكُتّانَ الطويلَ ـ ليُمَلِّطَ به ما تقشّر من جدران البيت الخارجية. وكانت سلسلة ساعته، الممتدة من عروة في الصدّارة إلى الجيب، تتراقص بفعل ساقيه اللتين تتناوبان غوصاً في الطين كَما سَاقَا لَقْلَقٍ مهرولٍ يتحضّرُ لطيرانِه. ولمّا كنتُ مأخوذاً بحركة السلسلة فقد تناوبتُ على استعارة صدّارةٍ من أبي، حين زاد طولي قليلاً بعظامٍ عجفاء، وعمدتُ إلى تعليق سلسلة خشنة، ذات طلاء ذهبي متقشّر، إلى عروة الصدّارة، فيما أودعتُ طرفَها الآخر في جيبي، دون أن يكون ذلك الطَّرَفُ منتهياً بساعةٍ، أو بحصاةٍ للتمويه، على أية حال.

كنتُ أزداد نمـوّاً، وتـزداد استعارتي لثياب أبي، وكلانا ينظر إلى الآخر بخيلاء خفيفةٍ. ومن ثم استعرتُ أحذيته، ليصل بي الأمر إلى طلب علبة فضية من العُلَب التي يحفظ فيها تبغه الرّطب، فأعطاني واحدة عتيقة بعض الشيء، دون تعليق، وأنا مُقبلٌ على الـرّابعـة عشرة. فصرنا ـ بعدئذ ـ نتبادل اللّفافات أحياناً، أو يُشْعلُ اللّفافة أحدُنا للآخر. لكنني لم أستعر منه قط واحداً من خواتمه الكثيرة، التي يتباهى بأنواع حجارتها، ونقوش فضّتها، ومواطن صناعتها. وهي، كلها، كانت من فضة، فأبي لا يحبّذ الذّهب للرجـال. وكـان يحفـظهـا في وشـاحٍ موصِلِّيٍّ مطويٍّ بتـأنٍ، يفرده عادةً أمام جُلَسائه الدائمين، ويتناول خاتماً يناوله إلى أقرب الرجال إليه فيمرِّرُهُ إلى من يجاورهُ، حتى يعبر الخاتمُ الواحدُ الحلقةَ كلَّها ويعود إلى أبي، فيتناول خاتماً آخر من الوشاح ذي الملمس القُطنيّ، لتكتمل دورةٌ جديدةٌ لخاتمٍ جديدٍ بين الجُلساء. غير أنني أتذكّر الآن ـ وأنا ماضٍ مع الرجال الأربعة في الشوارع الدائرية ـ شيئاً مَا لم أُعرْهُ انتباهي، أَوْلَمْ أكن في وضْعٍ يُمكّنني من الإنتباه إلى أشياء كثيرة، دفعةً واحدةً، ذلك المساء الذي قابلت فيه جاري الغارقَ في معطفه؛ أعني جاريَ الوافدَ منذ أيام قليلة ـ هو وزوجه ـ إلى البيت الـذي يجـاور حديقتي الأمامية، شمالاً، ومن ثم تبعه أناسٌ لم أرهم قادمين، لكنهم أودعوا دوابَّهم في المرآب الكبير المخصص للمركبات الآلية، وتوزّعوا صفَّيْن في الرواق

الطويل لذلك البيت، حيث رأيتهم في الضوء الشاحب لمصابيح شاحبة موضوعة في الزوايا على الأرجح.

نعم. حين مدَّ إليَّ الرجل الغارق في معطفه مودِّعاً ـ خارج باب البيت الذي دخلته مستطلعاً الصَّخبَ فيه ـ يدَهُ اليمنى المنتهيةَ بجناحٍ صغير، لمحتُ في يده اليسرى خاتماً ذا فَصٍّ أخضرَ مكسور، تحت الضوء البرتقاليِّ لمصباح الشارع المعلَّق إلى عمودٍ عالٍ.

أكانَ فَصُّ الخاتم أخضرَ حقًّا؟ ربَّما زيَّنَ لي الضوءُ البرتقاليُّ ذلك، لكنه كان، على نحوٍ ملفتٍ، شبيهاً بِفَصٍّ أخضر مكسورٍ في خاتمٍ لأبي. وما أذْهَلني عنه، آنئذٍ، هو يدُ الرجل التي بعثت فيَّ قشعريرةً جعلتني أنصرف دون سؤاله عن غرابة الأمر.

وها أنا أقشعرُّ الآن، بعد خمسة أيام من لقائي الرجلَ الغارقَ في معطفه، ليس بسبب يده الغريبة فقط، بل بسبب ذلك الخاتم الذي يشبه خاتم أبي، أيضاً. وفي كل منعطفٍ من منعطفات الشوارع، التي أجتازُها برفقةِ الرجال الأربعة، يعنُّ لي سؤالٌ لم يكن مُلِحّاً من قبل، كأنما ارتباكي الخفيفُ من التقاء «الرجل الكبير»، وأنا في طريقي إليه، يبعدني عنه إلى التفكير في أبي كثيراً، وفي أخي الذي لا أعرف ـ حتى الآن ـ سبباً مُقْنعاً لاختياري بدلاً منه في هذه المَهمَّة المُضْجِرة.

كان أخي ذا عينين خضراوين، ولطالما تفاخَرَتْ أُمّي بذلك في لحظات صفائها، وأبدتْ تشاؤمها منهما حين يعتكر مزاجُها، أو تضربُ داهيةٌ مَا حَقْلَها الغريبَ النامي وسط ساحة الدّار، حيث تتجاور فسائلُ شجر الكينا، والكوسا، والخسّ، والقُنَّبيط، والجرجير، والباذنجان، والفلفل، وقد تداخلتِ الأوراق، واتَّكأ بعضها على بعض، فاختنق النباتُ الذي اختنق، وعاش النباتُ الذي وجدَ مَسْلَكاً إلى الهواء العالي. ولم يكن لمواسم زرعها. بالطبع، أيُّ جدارةٍ باهتمامٍ. فالنباتات تُزْرَع في التراب، ويلزمها ماءٌ: ذلك ما تعرفه أمي.

لكن جيراننا. وأقرباءنا ـ أيضاً ـ كانوا لا يجدون في عيني أخي إلاّ شَبَهاً بعيون الجنّ، فيتَّقُونَها بقراءةِ كلماتٍ من القرآن، دون إعلان تشاؤمٍ أو استنكار، كأنما يعلنون حيادَهم إزاءَ ابتكارٍ من اللهِ لا يريدون تصنيفَهُ. وعينا أخي الخضراوان ـ الجامحتان حتى لَيَكادُ بياضُهما لا يُرى من اتّساع الخضرة فيهما، على نحوٍ غير أليف ـ إذا استقرَّتا على

عيني شخصٍ آخرَ أربكتاه.

كانتا عينين مُخترقتَيْن. كانتا هُلاميتَيْن يسقط كلُّ من يراهما في فخٍّ دبقٍ من الحيرة. لكنهما، بالنسبة لي، لم تكونا أشبه بعيون الجنِّ، لأنني لم أرَ جِنّاً من قبل. أما الجيران، والأقرباء، فقد رأوا الجنَّ من قبل: هذا ما يقولونه بصوتٍ خفيضٍ. وأمي التي تسمع، بين حين وآخر، آراء جيرانها، وأقرباءها، تُبدي تشاؤماً من عيني ابنها كلَّما رأتْ ورقةَ جرجيرٍ ذابلةً، أو زهرةَ فلفلٍ قضم الحلزونُ المتسلِّقُ نصفها. أمّا إذا ذبُلَ فسِيْلٌ من فسائل الكينا، وقد تعبت جذوره من البحث عن منفذٍ بين الحصى، فأمي تختلي بأبي كي تشرح له، في معزلٍ عن فضولنا، أن في الأمر ما يستوجب مراقبة «دينو»، الذي يُحدِّق طويلاً في حقلها المنزليِّ، دون احترامٍ لحياء النبات، فيهز أبي رأسه إشفاقاً على نفسه لا على حَقْلِ أمّي.

لكن الجِنَّ اجتاحت حقلَ أمي، دون أن نراها بالطبع، أو يراها الجيرانُ الأقربون العارفون بالأشكال التي تتنكَّرُ فيها الجنُّ، من صورةِ ماعزٍ إلى دُغْسوقٍ، ومن صَفيرٍ مهما كان مصدره إلى اهتزاز أوراق الشجر في الأحايين التي لا هبوب للهواء فيها.

لم نكن نحتاج إلى براهين لإثبات وجود تلك الكائنات التي تسكن ظلالنا، والتي تعاقد اللهُ معها كي تلفتَ أنظارنا إلى أننا لسنا الثِّقَلَ الحقيقيَّ للقَدَر. فهي تتأمَّلُنا أيضاً، وتتخاصم من أجْلنا، إلى درجة أن بعضها يترك صفوفَ نوعه ملتحقاً بالأنسيِّينَ، كما فعل أخي ربما، وهذه حكاية ينبغي توضيحُها. لكن الواضح ـ يقيناً ـ أن الجنَّ اجتاحتْ حقلَ أمي، بما سبّبتْهُ من هَلَعٍ بين أوراق شجيراتها، التي لم يكن يقترب منها عصفور، أو آدميٌّ، حتى ترتعش، إلاّ «دينو» الذي يمسِّد بيديه الأوراقَ كما يمسِّدُ فروَ هِرَّةٍ، فتنكمش مُستحيةً، وتَهْدأ.

أخواتي الستُّ، أيضاً، كُنَّ يقاسِمْنَ أمّي ريبَتَها، فلم أعهدهُن يتباسَطْنَ مع «دينو»، أو يمازِحْنَهُ كما يفعلن معي. وكُنَّ إذا لم يجدْنَ أحداً معهنَّ في حضور «دينو» ينْفَضِضْنَ عنه مسرعاتٍ. أمّا «دينو» فيزداد إطراقاً ككهلٍ، يوماً بعد يوم، ويزداد نحولاً وصمتاً. وأذكر أنني، حين ودّعت أهلي في سفري إلى هذه الجزيرة، رفع عينيه إليَّ، من وراء أكتاف أخواتي، وأبويَّ، وقد اغرورقتا.

أكنتُ أحْـذُرُه بدوري؟ لا. لم أحسَّ بشيءٍ من الـذي أحسَّتْهُ أمي، وأخواتي. لكنني لم أقترب منه كثيراً كأخٍ، إذْ كنتُ ـ كلَّما حدَّقتُ فيه، أو كلمته كلاماً عارضاً ـ أجدُ فيه نفسي ذاتها، ناحلةً مُؤرَّقةً، ذاتَ عينين خضراوين ككابوسٍ خفيفٍ ينحدرُ إليه حُلُمٌ مَّا. وأكثر ما كانَ يوحشني منه ابتساماتُه إذا ابتسم. ولطالما صرختُ به: «لماذا تبتسم؟»، في أوقات متباعدة. فيغمض عينيه هامساً: «أتعِبْتَ؟».

لماذا يظنني أتعبُ إذا ابتسم هو؟ لا أعرف. لكنَّ ألماً مَّا يتلمَّسني بقرْنَيْ حلزونٍ كلَّمـا نطق بكلمتـه الخافتة هذه. فأنا كنتُ، في مجافاتي له، أتأمَّلهُ كثيراً وهو يجتاز الأمكنة متثاقلاً، أو يبدو شارداً بعينيه المُطْرِقتين، اللتين إذا رفعهما فإنَّما ليخترق بهما المكانَ إلى هوَّةٍ لا تُرى في أعماقهِ القريبة. ولطالما بدا لي كَمَن يتأهَّبُ بهدوئه ونحوله المُسْتَشرِيَيْـن ليفجعني، أو ليفاجىءَ العائلةَ كلَّها بأمرٍ سيُحَيِّر. لكنْ لم تَبْدُرْ منه بادرةٌ تضعنا أمام نهايةٍ متوقَّعة، أو غير متوقَّعة أيضاً، للوحشة التي اختارها هذا التوأم، ولقطيعته غير المُعْلَنة معنا.

أبي، وحده، كان على خلافنا في علاقته بذي العينين الخضراوين: يتهامسان. يبتسمان مُطْرِقَيْن. ينظر أحدهما إلى الآخر متأمّلاً عينيه، دون إطالة. وأعتقد، من غير سبب أكيد، أن أبي كان يستحي من أخي «دينو»، قليلاً، إذْ يبـدو مرتبكـاً كلَّما وقفا يتحادثان، فيعمد إلى التطلع من حوله، أو التمسيد على شاربيه، ويستمع إلى توأمي أكثر من أن يتكلَّم. وهو المشهود له بمداخلاته الطويلة في أحاديثه، وبتشعُّباتها حتى مع أخواتي اللّواتي لا يصغين إلى أبعد من كلمتين يقولهما شخص مّا. أمّا أمي فتنام إذا حادثها أبي، في أية ساعة من ساعات النهار، وهي جالسة، أو متكئة على الوسادة بمرفقها.

ما الذي كان يقوله توأمي الناحل لأبي، كل تلك السنين، من الصِّبا الباكر إلى مطلع شبابَيْنا؟ أسأل نفسي وحدها، لأن أخواتي وأمي لم يُعِرْنَهما التفاتاً، فيما كان أمرهما يزيد فضـولي فضـولاً. لكنني أستطيع الزعم لنفسي أن كل الذي كان يقوله أبي ـ في المساءات التي تشتعل لفافات جُلاَّسه فيها بانتظام، داخل البيت أو في ساحة الدار ـ إنما كان لدينو شأنٌ فيه. إذْ عهدتُ أبي مراراً ينظر إلى توأمي، كلَّما نطقَ أمراً فيه غرابة بعض

الشيء، فيهز دينو رأسه كأنما يستحثُّ أبي للمضيِّ في الذي يقوله.

أوّل مرَّةٍ وقعتُ على ذلك التواطؤ الخفيّ حين حدَّث أبي جُلّاسه عن «فقيهْ طَيْرانْ»، وهو لَقَبُ كرديٍّ اسمه محمود، في القرن الثاني عشر للميلاد، أَلَّفَ منظومةً شعرية عن «حصان أسود» يتكلم كلاماً مُرْبِكاً. ولم يكن الحصان ذاك إلا البُرَاقَ الشريفَ، الذي أسرى بالنبيّ من الجزيرة العربية إلى المسجد الأقصى. وقد ارتأى «فَقِيْهْ طَيْرَانْ»، على لسان أبي، أن يجعل الحصان مَلُوْلاً بعضَ الشيء، متعثِّراً ـ لكن عنيداً ـ في ارتقائه مدارجَ الريح التّسعة، التي أوّلها الحَيرةُ، وثانيها الدَّهشُ، وثالثُها النَّظر، ورابعها الخوف، وخامسها الهمسُ، وسادسها العويلُ، وسابعها الذهول، وثامنها الرَّضى، وتاسعها الثرثرة. و «فَقِيْهْ طَيْرانْ» توقَّف طويلاً، بحسب رواية أبي، عند الثرثرة، كأنّما على الحكاية أنْ لا تُسْتَنْفَدَ. فالحصان الأسود، ذو الوجه الأدميّ، ورقبة الأسد، وجناحيّ النَّسر، يتوقّف كلَّما صادفَ بُوْمَةً في معراجه. ولمّا كان الوقت ليلاً، فإنما الحظْوةُ ـ بالطبع ـ لطائر البوم كي يصادف الحصانَ الجليلَ، الذي وجدَ شبهاً كبيراً بين وجههِ الآدميّ والوجه المسطَّح لذلك الطائر:

«من أنتَ؟» يسألُ البُرَاقُ البومَ ـ بحسب رواية أبي ـ فيردُّ الطائر الليليُّ:

ـ أنا الذَّهَبُ.

فيقهقه الحصان الأسود: «ولماذا أنتَ مُعْتِمٌ هكذا؟»، فيردُّ البومُ:

ـ لأن الليلَ لا يراني.

فيضحك الحصان ثانيةً: «وماذا إذا رآكَ الليلُ؟»، فيردُّ الطائرُ الواثق:

ـ حين ذاك يخسر الليلُ.

فيبادره الحصان متخابثاً: «وماذا تربح، أنتَ، إذا خَسِرَ الليلُ؟»، فيردُّ الطائر:

ـ أربحُ النهار.

فيهمهم الحصان الأسود مُسْتَدْرِكاً: «أنت ضعيف البصر في النهار، وليس هنالك ما تربحه في ضيائه الذي يُعميك»، فيردُّ البوم:

ـ النهارُ رسولي الذي يرصدُ لي أمكنة الطرائد بعيونه الكثيرة، وليس عليَّ إلّا أن أنتظر الليلَ لأقتنصَ.

ويضيف أبي إلى الحكاية أن البُرَاق يلتفتُ إلى النبيِّ هامساً: «لماذا يستهزىء هذا الطائر بي؟»، فيربُتُ النبيُّ على عنقه: «كلَّما استرسلتَ في سؤالِ الطيرِ غَلَبَكَ، لأن حيلتَهُ أصغرُ من جوابٍ تريده، فَتَتَبَلْبَلُ».

ويهمس الحصان إلى النبيِّ، بحسب رواية أبي، قائلاً: «لماذا يشبهني هذا الطائر؟»، فيردُّ النبيُّ: «لأنكما مقبلانِ على امتحانٍ واحد»، فيحمحم البُراق: «أيُّ امتحانٍ؟»، فيتوقف أبي عن السَّرد، ناظراً إلى جُلسائه أوّلاً، يعاين وَقْعَ روايته في وجوههم، ثم يلتفت إلى «دينو»، صارخاً من مكانه البعيد: «دينو... أكملْ أنتَ...»، فيحكُّ توأمي صدْغَهُ كأنّما كان ينتظر دوره في السَّرْدِ: «عليهما أن يكونا مُخْتفيَيْن. هذا هو امتحان البُراق والبوم». ويصمتُ، في حين يمسِّدُ أبي على شاربيه متأمِّلاً جوابَ ابنه، قبل أن يبتسم مؤكِّداً: «نعم. هذا هو المقصود»، ويتطلع إلى جُلسائه يستحثهم على قبول كلامه، فيتسمون بدورهم قائلين: «الأمر هكذا، إذاً». غير أن بعضهم يسأل أبي، مستوضحاً:

«لماذا أجاب البوم أنَّهُ ذَهَبٌ؟»، فيتطلع أبي إلى «دينو»، الذي يردُّ مُطْرِقاً: «حاول البوم أن يمتحن البُراق».

«ومن يستطيع أن يمتحن البُرَاق؟»، يسأل أحدُ الجالسين، مندهشاً من جواب توأمي، فيجيبه توأمي «دينو»: «أنا».

«أنتَ؟» يرفع السائل يديه في ذهولٍ، ثم يتطلّع إلى أبي مستنجداً به ضد ما يسمعُ من هذيان ابنه، فيلتفت أبي، إلى «دينو»، متسائلاً: «أنتَ؟»، فيجيب توأمي دون تردُّدٍ: «أنا»، ويقاطعهم قبل أن يمعنوا في مُساءلته: «وأين كان البُراق قبل الليلة التي طار فيها براكبِهِ؟». وحين يجدهم محتارين في الجواب، يسألهم ثانيةً: «وأين مضى، بعد تلك الليلة؟».

فيهمهم أبي «دينو. أظنُّك تُجاوزُ حدودك»، فيردُّ توأمي: «ألم يُجاوز البُراقُ حدوده، يا أبي، ليسألَ البومَ أسئلتَهُ تلك؟»، فيرفع أبي حاجبيه: «وما المُشْكِلُ في ذلك؟». فيردّ أخي «ليس من حقِّ طائرٍ خائف أن يستوقف طائراً غيرَهُ ليسأله». فيقاطعه أبي محتدّاً قليلاً: «أتعني البُراقَ الشريفَ؟»، فيردّ «دينو»: «كان خائفاً يا أبي من طيرٍ

يحتكر الليلَ لنفسه إلى الأبد، فيما كانت مهمة البُراق لليلة واحدة».

ويتدخل أحد الجُلساءِ معاتباً: «وكيف تستطيع أنتَ أن تمتحنَ حصانَ الله؟»، فيردُّ «دينو»: «أمتحنُهُ حين لا أجد جواباً عن مكانه». فيمتعض السائل متمتماً: «إنه هناك». فيسأله «دينو»: «أين؟»، فيجيبه الجالسُ: «قرب عرش الله»، فيُغضي توأمي قائلاً: «أتعني أنك ضجران؟». فيدْهَشُ السائلُ: «ولماذا تحشرني في الحكاية؟»، فيردّ أخي: «لأن البُراقَ لا ينتظر شيئاً بعد مهمته تلك».

كلامٌ مّا، من هذا، وأشعارٌ مبتورةٌ كان يكملها توأمي «دينو» لأبي، لفتني إلى تواطؤٍ خفيٍّ بين معرفتيهما، بل إلى تدخُّل دائم من «دينو» لتصحيح مسار حكايات أبي، وأحاديثه، حتى ولو لم تنتهِ تلك الحكاياتُ والأحاديثُ إلى مرادٍ منها. غير أنني أبتسم، الآن، بحسرةٍ خفيفةٍ عليَّ: فأنا لم أتدخل في شيء قطّ من المسار الصارم لذلك الانشداد الخفيّ من أبي إلى توأمي، كأنّما كنتُ أبكمَ. وأنا ـ بالطبع ـ لم أكُن أبكمَ، بل تأخذني صورة أخي أبداً وأنا أتطلّع إليه، مأخوذاً بأنامله الرقيقةِ الطويلة يرفعُها حين يتكلّم، ويديرها أمام وجهه كأنما يحرّرها من خيوط عنكبوتٍ عالقةٍ بها، في هدوء. أما حين ينظر إليَّ مباشرةً، وهو يتحدّث بين جُلساء أبي، فأجدُني موضعَ ريبةٍ يتفتّق جلدي معها عن ريش كالزّغب، وقد عرتني رغبةٌ في الطيران. ولطالما ظننتُ نفسي ـ تحت نظرات أخي الخضراء الباردة ـ طائراً، لكن دون تحليق أكثر من شبر عن الأرض.

ولم تكن بي رغبةٌ لأرتفع عن الأرض أكثر من شبرٍ، على أية حال. فأنا مفتونٌ ببقائي أسيراً تحت نظرات أخي، في تحليقي بجناحين قصيرين ألمسُ بهما العشبَ من تحتي، وأثيرُ الغبارَ الخفيفَ، متخبِّطاً بسويقات كلِّ نباتٍ يصادفني، كأنّما أنا وتوأمي «دينو» في مطاردةٍ فَكِهةٍ: هو ابن آوى، ولي جناحا غُرْنوقٍ ضعيف وجسم إوزّةٍ.

لكنْ يصادفُ أنَّ أخي يقترب مني، في جَرْيهِ القويِّ، فيصيبني هَلَعٌ بعد كلّ المَرَحِ الذي أكون فيه، وأنا أحسُّ لهاثَهُ ساخناً على ريشي، وأحسُّ مخالبه تجرح الهواء من حوليَ، فأنتفضُ مُلْقياً بثِقَلِ جناحيَّ الضعيفين على خوفي الذي يرفعهما إلى أعلى، كأنما يقذفني الفراغُ أبْعَدَ مع كلِّ خفقةٍ قويّةٍ فيه كقلبٍ مذعورٍ يلهو بِكُرَاتِهِ الخفيفة.

لم يكن أخي يُدْركني، ولم أكنْ أنجو: كانت الحقولُ، وحدها، تستغرب هذه

لمطاردة العمياء.

وها أنا، إذ أتقدّم مع الرجال الأربعة في شوارع العاصمة المقفرة، وقد نفذ عَرَقُهم من تحت آباط ستراتهم، وتلألأت الحيرةُ كندى فوق الحواجب، أكاد أشمُّ رائحة أخي مقترباً باندفاعٍ حيوانيٍّ، لكنه لا يحاول اقتناصي هذه المرّة، بل أن يلهو في المتاهة الصغيرة التي لا نجد فيها منفذاً إلى بيت «الرجل الكبير». ولطالما عنَّ لي أن أستوقفهم قليلاً لأستوضح منهم هذا العبثَ الدائريَّ الذي يجعلنا شركاء، لكنني آثرتُ الصمت وأنا أراهم في همٍّ ظاهرٍ. فالشوارع تتناسخ ببيوتها، وأسوارها، وشجرها، كأنها في مرآةٍ، والوقتُ هو ذاته، دون حاجة للنظر إلى ساعاتنا، لأن الظلال لا تريم، وهي باقية على كثافة واحدةٍ وامتداد واحدٍ، إلّا رفيفُ الأجنحة، الذي يواكبنا دون إفصاح عن مصدره، فكان يتواترُ أكثر فأكثر، قوياً، يهزُّ غُرَرَ الشَّعرِ المُسْدَلِ، أو المنتصبِ على جباهنا. وهو رفيفٌ خليطٌ، في اعتقادي غير المستند إلى معرفة قاطعةٍ، من أجنحة الهُدهد، واللَّقلق، والنُّمْنِمَة، والوروار، والسنونو. أمّا السبب الذي يحدو بي إلى حَصْرِ تخميني في هذه الطيور وحدها، دون غيرها، فهو عائدٌ إلى وَقْعِ أسمائها الكرديّة في مُخيِّلتي الشاردة. فالهُدْهد اسمه «سليمانُ ذو المنقاريْن»، واللّقلق اسمه «الحاجّ لَقْلَق» وعصفور النُّمْنِمَة اسمُهُ «عروس الفأر». والوروارُ اسمه «الثور المُخَطَّط»، والسنونو اسمه «الحاجُّ».

الرجال الأربعة يسوُّون، براحات أيديهم وبأصابعها، غُرَرَهم الشَّعثاء كلّما بعثرتْها ريحُ الأجنحة، مثلي. وهم يهمّون أحياناً بالتوقّف أمام بيوت معينة، ولا يلبثون أن يتراجعوا مدركيْن خطأ تقديرهم، فيزدادون جهامةً وبلبلةً، دون اعتذار منّي، ممعنين في المضيّ كأنما غشّهم مُقامرٌ. وقد امتدتِ الحالُ بنا دوراتٍ لا تُقَدَّرُ بالسّاعات، بل بالحيرة. وكلّما تنفّسوا الصعداء قليلاً، مشيريْن إلى بيتٍ مّا، ارتدّوا عنه بعد قليل، إلى أن وقعْنا في دَورانا على بوّابة سورٍ خشبية، علاها ياسمينٌ تساقطَ الكثيرُ من زهره، وامتدّتْ من خصاصِ ألواحها المتقاطعةِ غصونُ شجرةِ عَفْصٍ صغيرة، فبدا الرجال الأربعة واثقين، وقد انفردتْ أساريرُ وجوههم، وهم يشيرون عليَّ بأن أتبعهم إليها.

بحثوا، أول الأمر، عن زرِّ جرس كهربائي فلم يجدوا شيئاً. داروا من حول أنفسهم وتقاربوا متشاوريْن في همْسٍ، ثم عمدوا إلى قرع خشب البوّابة قرعاً خفيفاً بأيديهم،

فسمعتُ وقْعَ خطواتٍ تقترب، وإذ تطلعتُ من مربّعاتِ خشب البوّابة وجدتُ امرأةً في سترة خفيفة، كأنما ارتدتها على عجلٍ، تهمُّ برفع المزلاج. لكن عينيها وجدتا منفذاً من بين الأخشاب المتقاطعة فتأمّلتنا واحداً واحداً، ثم انفجرتْ مقهقهةً وهي تفتح البوّابة.

كانت في العقد الرابع، ربّما، ذات شعرٍ أشقر من صبغةٍ واضحة، مطموسٍ من الجانب الأيسر لرأسها، كأنما كانت متّكئة به على وسادة، بينما بدا شعرها، من الجانب الأيمن، منفوشاً في خصَلٍ متنافرة، لها مظهر قاسٍ مثل أسلاك نحاسٍ دقيقةٍ، صفراء، مُنفلتةٍ من وَشِيعَةِ مَرْكَبَةٍ آليَّةٍ. وقد خفَّفَتْ قهقهتها قليلاً حين فتحت البوّابة، وصارت في مواجهتي تحديداً. وإذْ تفرّستْ فيَّ بعينيها الشهلاوين، الضيِّقتين، غمزتني، وعادت فنقّلَتْ بصرَها بين وجوه الرجال الأربعة المحيطين بي، وانفجرتْ مُقَهْقِهَةً من جديد.

نظرتُ، بدوري، إلى وجوه الرجال الأربعة لأعثر على سببٍ مَا يُلْقي بنا إلى فكاهةِ تلك المرأة، فوجدتُهم واجمِيْنَ، ثم انفردتْ أساريرهم حين باغتتنا المرأةُ سائلة بلغةٍ يونانية: «أتريدون الرجل الكبير؟».

هزّ الأربعةُ رؤوسهم كأطفالٍ موافقِيْنَ، ثم همّوا بالدخول فاعترضتهم المرأةُ وهي على مَرَحِها، بعينيها الضيِّقتين، سائلة: «ولماذا تريدونه؟»، فبادرتُها بنفسي بالانكليزية: «إنه ينتظرنا». فردّتْ بالانكليزية: «أووهْ. اعرف ذلك منذ زمن. أمّا أنتَ. . .»، وتأمّلتني من جديد مُرْدِفَةً: «أنتَ لم تكن معهم. من قبل».

«لا»، أجبتُ المرأةَ، وابتسمْتُ فابتسمَتْ، قبل أن أُكمل: «هذه أوّل مرة آتي فيها إليكم»، فهزّتْ رأسها قائلة:

«ستعوّدُ ذلك»، فسألتها: «ما الذي تعنينه؟»، فأجابتْ: «أعني أنَّ كلَّ مرّة ستكون المرّة الأولى».

لم أفهم شيئاً. وقد سألتها، بالطبع: «لم أفهم»، فردّتْ: «منذ متى أنتَ مع هؤلاء؟» وأشارتْ بنظرة من عينيها إلى الرجال الأربعة، فاستغربتُ سؤالها، لكنني أجبتُ: «اليوم». فعَلَتْ قهقهتُها الدائمة وهي تنفخُ من بين شفتيها الرَّقيقتين الساخرتين: «ستعوّد ذلك، إذاً. ستعوّد ذلك».

«سأتعوّد ماذا؟»، سألتُ المرأةَ قلِقاً، وأنا أنظر من حولي إلى الرجال الأربعة

الواجمينَ كأطفال ينتظرون إشارةً من شخص مّا، فردَتْ: «ستعوِّد ما تعوِّده أصحابُك، هؤلاء»، فلم أفهم تلميحَها ثانية. وإذْ وجدَتْني شارداً عن مغزى كلامها الساخر غمزتني من جديد، ملتفتةً إلى الرجال الأربعة، وهي تظلِّل عينيها، لا من الشمسِ بل من الغيوم:

«أتريدون الرجل الكبير؟»، فهزّ الأربعة رؤوسهم إيجاباً، فضحكتِ المرأةُ ذات العينين الضيِّقتين: «ولماذا تريدونه؟»، فالتفتوا إليَّ، تلقائياً، فأجبتُ المرأةَ مِنْ فوري: «لأنه ينتظرنا». فغمزتني المرأةُ للمرة الثالثة في سخرية واضحة، وهي تعيد سؤالَها على الرجال الأربعة، كأنما تستثنيني: «لماذا تريدونه؟»، فالتفتوا إليَّ من جديد، يستحثّونني كي أجيبَ فلم أتكلَّم. ولمّا طالَ صمتي عادوا ملتفتين إلى المرأة الشقراء، مردِّدين ما قلتُ: «لأنه ينتظرنا». فتخابثتِ المرأةُ: «لقد خرجَ»، قالتها وهي تغمزني للمرة الرابعة، فشهقَ الأربعة مستغربين: «إلى أين؟»، فأجابتهم: «إلى المكان الذي تعرفونه».

أيقنتُ أن فظاظةً مّا كانت تسيطر على الصباح غير المَرِح ذاك، وهي تنشرُ خيوطها بين الرجال الأربعة، والمرأة الشقراء، من فوقي، وأنا أزداد انحناءً حتى لا يلمسني شيء منها. لكن كان عليَّ أن أستوضح الجميعَ، وقد عرتني بارقةٌ من كآبةٍ وضجرٍ متمازجَيْن، فسألتُ الرجال الأربعة وأنا ألجم احتدادي: «ما الحكاية؟»، فردّ أحدهم وهو ينظر إلى المرأة، وليس إليَّ: «لا تقلقْ. . .»، فقاطعته المرأة: «سيقلَقُ الرجلُ الكبير»، فقاطعَها هو: «لا تتحدَّثي عنه هكذا». فسوَّت المرأة جانباً من شعرها براحة يدها قائلة: «لا تؤاخذني»، واسترسلَتْ ضاحكةً.

ضحكتُ بدوري. أدرتُ ظهري للبوّابة، وللمرأة، وللرجال الأربعة، ثم ضحكتُ ضحكاً خافتاً لكنْ طويلاً، ناظراً إلى الجهة الأخرى التي لم ألتفت إليها من قبل، حيث امتدّ سور طويل واطىءٌ من شجر الجيرانيوم المُغْبَرّ. وعلى ارتفاعٍ منه ـ بتوازٍ معه ـ كانت زوبعة من الزرازير تحط على سلكٍ كهربائي. وأنا لم أعهد طيور زرازير في الجزيرة من قبل. لكن مَشْهَدَها كان يبعث على الدَّعةِ، بكَسَلها المعتاد، وهي تنكمش تحت ريشها الأسود المزيَّن، فاقتربتُ من الرصيف الآخر، حتى لمستُ بيدي سور الجيرانيوم، وأنا أتطلّع إلى أعلى، فإذا هي على خصامٍ، يريدُ بعضها النزول عن السلك الكهربائي إلى

حديقة الدار المجاورة، وبعضها يريد البقاء حيث هو، للمزيد من التفكير في الحكمة من دخوله هذه المنطقة:

«إنها مهجورة»، يقولُ بعض الزرازير، فيردّ البعضُ الآخر:

ـ لا تعنينا الأمكنةُ المأهولة.

فيعود البعضُ الأول قائلاً: «إنها مهجورة، ومسكونة، وذلك ما يُقْلِقنا». فيردُّ عليه البعضُ الآخر: «فكّرْ بالذي يحلو لك من الحالَيْن». فينتفضُ البعضُ الأول: «لا أفكّرُ حين تختلط الأمور»، فيجيبه البعضُ الآخر: «فلنغادرْ إذاً».

لكن تلك الزرازير، حين وَقَعَتْ عليَّ بعيونها المستديرة، هَمَسَ بعضُها إلى بعضٍ: «إنه ينصتُ إلينا»، وضحكَتْ في صمت.

كنتُ أضحك في صمتٍ أيضاً، مُنَقِّلاً بصري بين السلك العالي وبين البوّابة التي وقف أمامها الرجال الأربعة يحادثون المرأة في تعب يجعلهم منكمشيْنَ، دون فضولٍ، كأنما يريدون التخلُّص من المحادثةِ، لكن المرأة تطوّقهم مسترسلةً في مساءلاتٍ لا تريد أجوبة عليها قط:

«الرجل الكبير... ها. أنتم تريدون الرجل الكبير»، وتغمض عينيها الضيّقتين، مقاطعةً الرجال الأربعة الذين لم يتكلّموا، وهي تضيف: «دعوني أخمّن لماذا تريدونه...»، فيهمهم الأربعة في خجل: «نَعْني...»، فتفتح المرأةُ عينيها على وسعهما: «تريدونه لأنكم...» وتشبك أصابع يديها متأمّلةً وجوههم، فيبادرونها: «هو الذي طلب اللقاء بهذا الشاب»، وهم يشيرون إليَّ. فتلتفتُ المرأة صوبي التفاتة خفيفة برأسها المتطاول: «أنت سبب هذا كلّه»، فأردُّ عليها من الرصيف الآخر، مبتسماً: «أنا سبب واحدٌ من الأسباب»، فتقهقه المرأة دون باعث على القهقهة: «ولماذا يطلبك الرجل الكبير؟»، فأردُّ: «لأنه ضجران».

كاد يغمى على المرأة من كثرة ضحكها، وهي مستندة بكتفها إلى البوّابة الخشبية، ولمّا تمالكت نفسها قليلاً خَطَتْ خطوتين خارج السور، مشيرةً بيدها اليمنى إلى بيت ذي نوافذ زرقاء، جنوباً، في الشارع ذاته: «هنالك تجدون الرجل...»، وأردفت بعد برهةٍ: «الرجل الكبير»، ثم عادت أدراجها لتغلق البوّابة على مهل. ولمّا لم يبق منها إلاّ نصف

وجهها مرئياً، قبل أن تطبق الدفّة الخشبية على عمود الاسمنت المنتصب، غمزتني من جديد: «إذا لم تجده اليوم عُدْ غداً»، وغابت ضاحكةً وراء المربّعات المفرّغة في البوابة.

سرنا، بالطبع، صوب البيت الذي أشارت إليه المرأة، تواكبنا خفقات الأجنحة الخفيّة ذاتها، لكنني لم أحسَّ شبحَ أخي «دينو» قربي، كأنما فارقني في أثناء محاورتنا مع المرأة ذات العينين الضيّقتين. ومن ثمّ نسيت أمره، وأمر أعماقي معاً، حين صرنا في موازاة سور ذلك البيت، بسياجه الحديدي الواطىء جداً، وبوّابته المفتوحة. ولم يقتض دخولُنا إلى حديقته الشعثاء إذناً، لأن رجلاً كهلاً كان هناك، منحنياً على عشب يقتلعه، فاقتربنا منه لأسأله بنفسي، بلغة انكليزية: «هل لك أن تقول للرجل الكبير، من فضلك، إننا هنا؟»، فاستقام الرجل في سترته الصوفية، التي تتدلى من تحتها أطرافُ قميصه المخطط، في إهمال، ثم نظر إليّ، وإلى الأربعة، مبتسماً، ورفع إحدى كتفيه: «لا انكليزية»، يعني أنه لا يتقن الانكليزية، فتدخل الأربعة سائلينه باللغة اليونانية التي يعرفونها: «الرجل الكبير ينتظرنا»، فردّ عليهم الرجل بكلام ترجموه لي: «أيّ رجل كبير؟»، ولمّا أشاروا بأيديهم إلى بيت المرأة ذات العينين الضيّقتين، وأنها هي التي دلّتهم، كما قالوا له، قهقه الرجل الكهل فبانت أسنانه المتآكلة، ثم تمتم بكلمات ترجمها أحد الأربعة كالتالي: «إنها تدلُّ الجميع على بيتي. أظنُّها تخبىء الرجلَ الكبير في خزانة ثيابها».

شُدِهْتُ لبرهة، أمّا الأربعة فبدوا ـ برغم قلقهم الواضح ـ أكثر بروداً وتماسكاً. ولمّا هممنا بالرجوع إلى الفراغ الدائري للشارع قال الكهل بضع كلمات ردّ عليها الأربعة بـ «نعم». وقد سألتهم عن كلماته فردّوا أنه سألهم: «ألم تزوروني من قبل؟»، فتوقفتُ عن المشي:

«ولماذا زرتموه من قبل؟» سألتُهم، فأجابوا:

ـ لنسأل عن «الرجل الكبير».

«برفقة مَنْ جئتم في المرات الماضية؟»، سألتُهم ثانيةً وقد عرتني رجفةٌ خفيفة، فلم يجيبوا، ملتزمين صمتاً ثقيلاً، فحذّرتهم محتدّاً:

«لن أبارح هذا المكان إذا لم تجيبوا»، فردَّ أحدهم في إعياء:

ـ خفِّف علينا من مساءلاتك.

«أعليَّ أنا أن أخفِّف عليكم؟ وما هذه اللعبة؟» قلتُها، فردَّ فَرْدٌ آخر منهم:

ـ إسمعْ. نحن نقوم بالذي طلبه «الرجل الكبير»، والمسألة شاقّة قليلاً.

قلت: «هل عثرتم عليه في المرّات السابقة، في بيت مّا من هذا الشارع؟»، فردّوا:

ـ هو الذي سيعثر علينا، حين ننفِّذُ طلبَهُ كاملاً.

فصرخت: «وما هو طلبه؟»، فردّوا محتدميْنَ أيضاً:

«هذا الذي تراه الآن، هذا الذي تراه».

في صمت ثقيل، عبر دورات ثقيلةٍ بين شوارع ثقيلةٍ، افترقنا بنظراتٍ ملولةٍ ألقيتها عليهم، وألقوها عليّ. وكنا كلَّما ابتعدَ بعضُنا عن بعضٍ خطواتٍ ألتفتُ إليهم، ويلتفتون إليَّ، كأنّما نكتم ضحكاً كان ينبغي استنفادُهُ من قبل، لكننا لا نجرؤ على إطلاقه الآن، فيما كانت أيدينا، جميعاً، في جيوبنا.

وصلتُ إلى البيت، في وقتٍ لم يزل صباحاً، على أية حال. ولمّا عبرتُ الحديقةَ في اتجـاه الباب التفتُّ إلى شجيرة الفلفل المنكمشة على نفسها دون ورق، ثم إلى شجرات الورد الثلاث، الشّعثاوات، معتذراً عن شيء لا أعرفه، وفتحتُ الباب ـ بعد ذلك ـ داخلاً إلى عتمته الخفيفة الباردة.

إستبـدَّ بي ضِيْقٌ فاحشٌ حين صرتُ داخلاً، وأنا أطبق الباب من خلفي. فلقد ظننتُ أنني سأنجو من انتظاري، أخيراً، لكنني عدتُ إليه أقلَّ حظّاً في النجاة حتى من شجيرة الفلفل الممزّقة في أعماق جذورها. ولمّا درتُ في الغُرَفِ متعلِّلاً بالبحث عن مقعد، أو كرسيٍّ، أستريح عليه بعد الدورات القلقةِ لنزهة الصباح القَلِقِ ذاك، وجدتُني أتّجـه إلى باب المـطبـخ المفضي إلى الحديقة الخلفية، ففتحته لأشرف على العراء المترامي على ميعدة خطوات منّي، حيثُ بدتِ الغيومُ أكثر اقتراباً من الأرض، عاريةً، كأنّما ستستحمُّ.

ألقيتُ نظراتٍ خفيفةً، غير مستقرّةٍ، على المشهد أمامي: جنوباً حيث شجرات الصنوبر التي تسوِّر المنزلَ البعيدَ، فيما وراء الأرض العارية؛ وشرقاً حيث السياج الطويل

للمدرسة التي تضم صفوفاً ابتدائية، ترتفع منها أناشيدُ متهدِّجةٌ صباح كلِّ سبتٍ، بسبب خللٍ واضح في مكبِّر الصوت لِستِّ سنين؛ وغرباً حيث سور حلبة سباق الخيل، وقد ضلَّلتهُ شجراتُ الأكاسيا التي تجتذب طيور البوم في المغيب. ولما نزلتُ ببصري إلى العراء الممتدّ أمامي، لمحتُ وسط الحصى والرملِ الرماديين ـ المبقَّعين بأعشابٍ عنيدةٍ لم يبدُ منها إلاّ أعناقُها ـ طائريْ الحقل بقنزعتيهما المنفوشتين، وهما يتناوبان نَقْراً في الأرض، في الموضع ذاته الذي طالما تمنّيتُ أن أُدْفَنَ فيه.

لا أعرف كيف لشخصٍ مّا أن يميِّز طيرين يشبهان طيوراً أخرى لا تُحصى، لكنني تعـرَّفتُ إليهما، (وأنا أتعرَّف إليهما كلَّما حَطَّا في العراء ذاك)، بسبب الخمول الذي يعتريهما بعد قليلٍ من وصولهما، فيجثمان بصدريهما على الأرض ناظرَيْن إليَّ، ليثيرا حنيني إلى قَدَرٍ كان عليَّ أن أتَّخذَ فيه شكلاً يشبه شكليهما، بجناحين أكثرَ ثِقَةً، وريشٍ محبوكٍ كخديعةٍ، وأنا أتقدَّم حيث يقف شبحُ أبي إلى جوارِ شبحِ «بَهْرام جُوْرْ» ـ الأمير الذي تتبَّع غزالة إلى كهفٍ جبليٍّ، على جواده، ولم يخرج قط.

يقيناً، وأنا في هيئة طيرٍ، لم أكنْ لأُثيرَ ريبتهما (أعني أبي وأميره) وهما جالسان على حجرين رمليّين قرب شجرة توت، فيما تعلو ـ في هَذْأَةِ المكان ذاك ـ أسئلةُ أبي التي لا تنقطع. والشابُّ ذو العمامة، وصدّارةِ الصَّيد الجلدية ذاتِ الزَّرَدِ، يُطْرِقُ مبتسماً، وقد أخذ بيدهِ لجامَ جواده السارح.

حطَطتُ على الشجرة أوّل الأمر، ثم نزلتُ بجناحيَّ الرشيقين قرب حوافر الجواد الهادىء، ثم تقدَّمت بوثباتٍ مُتَّزِنةٍ كوثباتِ الدُّوريِّ حتى صرت قبالهما، فأشار أبي إليَّ بإيماءة من رأسه:

ـ هذا طيرٌ بَطْران.

فتأمَّلني «بَهْرامْ»، وهزَّ رأسه غير موافق:

ـ لا أظنُّ.

«ولماذا يقترب إلى هذا الحدِّ؟»، سأله أبي، فأجابه الشابُّ بنظرات كسيرةٍ قليلاً:

ـ لِيَسْمَعَنا.

فقهقه أبي حتى أنني كدتُ أعود إلى غصون شجرة التُّوت، ثم استدركَ ضِحْكَهُ،

فتأمّلني بدوره، قائلاً:

«إنه يشبهُ. . . »، وتوقّفَ مُسْتَحْضِراً قرِيْناً أُشْبِهُهُ، فقاطعَهُ «بهرامْ جُوْرْ»:

«إنه يشبه الطيورَ الأخرى»، وتطلّعَ إلى أبي الذي بدا مقتنعاً بجوابه، ثم ضحكَ ضِحْكاً خافتاً، خجولاً، ونظرا إليّ معاً يتأمّلانني، بل يتأمّلان مَرَحهما الخفيفَ. غير أن غزالةً نَفَرَتْ من مكانٍ مّا في الدّغل القريب، لتقفَ فوق الأرض العارية الصّلدةِ، مُدْركةً أنها أخطأتْ. ولمّا نظرتْ إلى الرّجلين الجالسين، لم تَسْتَدِرْ عائدةً إلى الدَّغل، بل هبّتْ راكضةً إلى جهة عاريةٍ من الأرض تتّصل بسفحٍ عارٍ من الجبل، فأجْفَلَتْني، فاتّكأتُ على ريحِ جناحيَّ طائراً إلى غصنِ شجرة التوت، فيما انبرى «بَهْرَامْ» قائماً يهرولُ إلى جواده.

كان أبي، الذي نهض قائماً بدوره، يكتم رُعْباً مّا بين عينيه. «لا»، صرخَ أوّل الأمر، مشيراً بيده إلى «بَهْرَامْ»، لكنّ الشابَّ التفت إليه، وهو يضع رِجْلَه في ركاب جواده، ويدُهُ على فمه، كأنّما يريد من أبي السُّكوتَ، فسكتَ أبي.

كنتُ أرى شبحيْهما من موقعي على الشجرة العالية كطائرٍ غيرِ حَذِرٍ: شبح أبي الحيرانَ، الغارق في قلقٍ يكتمُهُ سكوتُه، وشبح «بَهْرَامْ» يعدو بجواده وراء الغزالةِ. وبأثرٍ من فضولي الذي غذّتْهُ حكايةُ الشابِّ الغريبة، التي أقلقتْ طفولتي وصباي، اندفعتُ بجناحيَّ خلف الجواد الرشيق، في المطاردة المُقَدَّرةِ ذاتها، الهندسيّةِ كخيالِ الرواةِ. فإذا الحجارة تحت حوافر الجواد هي الحجارة التي عرفتُها، وإذا الغبار الخفيف من خلف الغزالة هو الغبار الذي عرفتُه، وإذا لهاث «بَهْرامْ» هو اللهاثُ الذي أُعِيْدَ على مسمعي من أفواه كثيرة حَكَتِ الحكايةَ، وإذا الهواءُ المتشقّقُ من حول الفريسة الراكضة ليس إلاّ الهواءَ الساكنَ في ساحةِ دارنا. ولمّا دخلتِ الغزالةُ كهفاً في الجبل، وتبعها «بهرامْ» بجواده، آثرتُ العودة إلى حيث تركتُ أبي قرب شجرة التوتِ، فانعطفتُ كما ينبغي لطائرٍ أن ينعطفَ في رشاقةٍ، وقد استجمعتُ في ريشِ جناحيَّ سِحْرَهما الذي يُغوي البعيدَ فيقتربُ البعيدُ، فإذا بي، بعد تجذيفٍ قليلٍ في الهواء أصل إلى موقع أبي. فأراه جالساً على الحجر الرّمليِّ ذاته، وهو يقدّم في راحتيه المبسوطتين ورقاً أخضر إلى غزالةٍ وديعةٍ لم تكن إلاّ غزالة «بهرامْ».

حَطَطْتُ على أقرب غصنٍ إليهما في شجرة التوت، دون أن يعتمل في أعماقي سؤالٌ مًا. كأنّما كان على المشهد أن يكون هكذا. فيستردُّ أبي الغزالةَ من الحكاية، ويبقى «بَهْرام» في الكيف. غير أنَّ ضِيْقاً استبدَّ بي، فالتفتُ صوبَ سفح الجبل القريب الذي يقع فيه الكهف، وانطلقتُ بأقصى ما فيَّ من قوة، لكنني ارتطمتُ بغصنٍ ثخينٍ لبس حرباً بطائرٍ أن يصدمَهُ، فتهاويتُ متمايلاً في الهواء كريشةٍ لا ثِقَلَ لها، ولمّا وصلتُ إلى الأرض التقطني «مَمْ آزادْ» ـ الذي هو أنا ـ بأنامله، قرب شجرة الليمون في الحديقة الخلفيَّة لمنزلِهِ، ومن ثم تطلّعَ من جديد إلى طائرَيْ الحقل اللذين يعرفهما، وقد حطّا في المكان الذي طالما تمنّيتُ أن أُدْفَنَ فيه.

كانت الريشة الرمادية بين أنامل يدي اليسرى، وأنا ألمحُ الطائريْن يتناوبان نَقْراً على الأرض العارية. فانحَيْن فجوةً يهبطانها إلى طبقةٍ تحت القشرة الظّاهرةِ، ومن ثم التصق أحـدهـمـا بالاخـر، في مواجهـة ريحٍ تطمسُ فـنزعتْيهمـا المنفوشتَيْن، وتُبَلْبِلُ ريشَهما. ولمّا انحدر إلى الطبقة الثانية من القشرة الظاهرةِ للأرض ـ بعد نَقْرٍ كثيفٍ ـ سقطا في بركة ماءٍ، فانتفضا قليلاً ليغوصا إلى حيث الوحل، ومن ثم اجتازا الوحلَ إلى الطبقة الثالثة الظاهرة للأرض لينحدرا إلى الظلام الشبيه بشَعْرِ الماعز، ومن الظلام إلى الكثافةِ اللّزجةِ، أعمق. حيثُ على الأجنحة أن تكون أكثر حَذَراً في ارتطامها بشرايين عمياء تُغذّي التراب. ومن التراب المُتَجمِّع كحوصلةٍ، انحدر الطائران في اتجاه قشرة الأرض السـادسـة، الظاهرةِ كَلَغْوٍ، حيثُ سُجِّيَ جَسَدِي الميّتُ على مِسْطَبَةٍ رخاميّة، فحطّا ينقران رُخامَ المسْطَبَة.

كُنْتُ أضحـك من دَأْبهـمـا الصـارم في نقـرِ الـرُّخام الصُّلْدِ، لكنني أحسَسْتُ منقـارَيهما يفتحان ثغرةً لجسدي فأهوي ـ وهما يتبعانني بأجنحتهما النّزِقة ـ إلى فراغٍ ذهبيٍّ، وتهوي معي الحديقةُ، والعراءُ، وبعضُ الغيوم، والفخاخُ التي نسيتها منصوبةً في الرمل، والرَّملُ، والشارع الإسفلتيُّ فيما وراء الحديقة، والملائكةُ المسـتـلمةُ إلى وقائع اليومِ السابق، وحلبةُ سباق الخيل، وحقيبتي التي عَلَتْ ريشةٌ في قاعها حين فتحتُها بعد ستِّ سنين.

كنتُ أهوي إلى حيث بيتي، لأسقط في المكان ذاته الذي أتطلّع منه إلى طائرَيْ

الحقل؛ أيْ في حديقتي الخلفية، المشرفة على عراء تحدُّه ـ جنوباً ـ شجراتُ صنوبرٍ شعثاء. ولمّا لم أكنْ ميتاً بعدُ، كان عليَّ العودةُ إلى داخل المنزل، بعد نزهتي الصباحيّة مع الرجال الأربعة الذين داروا بي متاهةَ المدينةِ الصامتة، لأجلس قرب حقيبتي المفتوحة، ناظراً إلى ثيابي قطعةً قطعةً، وهي مفرودة على سريري.

لم أفكّر، تلك اللحظة، إلاّ في كتابة رسالة طويلة إلى أبي. لكنها قد تكون مختزلة جداً بسبب التَّداخل الهائل لأفكار تراودني، وحكاياتٍ عن السنين الستِّ في جزيرةٍ لا تعرف ـ هي نفْسُها ـ كيف أضحتْ جزيرةً وسط مياه حقيقية تعبرها الريحُ فتماوج، ويؤمُّها سائحون لا يشبهون السائحين، وتصلح مكاناً فاجراً لانتظارِ من يريد أن ينتظر قَدْرَ ما يشاء، وعلى النحو الذي يشاء، بسببٍ أو دون سببٍ، حيّاً أو ميتاً.

«يا أبي، أنا عائد إليك برسالة من الرجل الكبير». هكذا قرّرتُ أن أبدأ الكتابة إلى أبي، مضيفاً: «لم يتعرَّف عليَّ. أصارحُكَ أنّه لم يتعرَّف عليَّ برغم كلِّ ما قلْتُهُ عنك لهُ، لكنّه ـ أمام إلحاحي الفظِّ في وجوب كتابةِ كلمةٍ إليك بعد ستِّ سنين من انتظاري ـ استسلمَ، كاتباً بقلمٍ رصاصٍ على قطعة ورق انتزعَها من جانبٍ في عُلْبَةِ تبْغه «لا ننتظرُ أحداً». هذا ما كتبه الرَّجل يا أبي».

«إنه لا ينتظر أحداً»، هذا ما سأكتبه، وسأضحك طويلاً من كلماتي هذه، متصوِّراً وجه أبي وهو يقرأ الرسالة القصيرة، ثم يطويها، ثم ينشرها أمام عينيه، متأمِّلاً حُرُوفها ذات الحبر الأزرق، متمتماً: «ولماذا أرسلتُ مَمْ، إذاً؟».

ربّما لن يقول أبي كلماته على هذا النحو، لكنه سيردِّدُها في مكانٍ مَا من أعماقه، وهو يتطلّع إلى مُجالسيْهِ في الغرفة المستطيلة المخصَّصة لسهَرِهِ قرب مدفأة المازوت، في هذا الوقت من السنة. وربّما حوَّر فيها، قائلاً: «كان الرجل الكبيرُ ينتظر إبني مَمْ، لكنه ماتَ فجأةً». وسيسأله مجالسوه: «من الذي ماتَ؟»، فيقول أبي: «ماتَ مَمْ».

«لا» سأصرخ من الجهة الأخرى في الرسالة: «ماذا تعني أنني متُّ يا أبي؟» وسيردُّ أبي: «أعني أنك مُتَّ، لا أقلَّ ولا أكثر».

«ما هذا المزاح؟» سأقول لأبي، فيردُّ:

ـ وما الدليلُ على أنك حيٌّ؟

«هذه الرسالة يا أبي»، سأصرخ وقد انتابني قلقٌ كبير، وسيهمس من تحت شاربيه:

ـ أيةُ رسالة؟

«هـذه الرسالة يا أبي؛ أعني الرسالة التي أُنبئُكَ فيها أن الرجل الكبير لا ينتظر أحد»، وسيصرخ بي أبي «أرسلتُكَ إليه لأنه لا ينتظر أحداً أيها الأبله، فلا تكتبْ إليَّ».

لم أكتبْ رسالتي إلى أبي، بالطبع، حتى لا أضع نفسي في موقف كهذا، بالرغم من أنني فكرتُ في كتابة رسالة طويلة إليه، وأنا أنظر إلى ثيابي الممدَّدة، كأشباحٍ رقيقة، فوق سريري. وقـد تذكَّرتُ، في اللحظة تلك، أن عليَّ واجباً تجاه الجيران الجدد، الذين قطنوا البيتَ الواقع إلى الشمال من حديقتي؛ أعني أنْ أحمل النسخ القليلةَ التي استنسختها من جُمْلةٍ تتحدث عن بروتستانتيين كذبوا على شعبٍ مَا. وقد تلمَّستُ جيوبي فألفيتُ الأوراق مركومةً في جَيْبَيْ بنطالي، وجَيْبَيْ سُترتي الخفيفة، موزَّعةً بأقدارٍ متساوية عليها، لكنها تجعَّدتْ قليلاً.

عدتُ من غرفة النوم إلى المطبخ أولاً، لأُشعل لفافةَ تبغٍ سعلْتُ مع أول نَفَسٍ منها مراتٍ عديدة، فأطفأتها وقد دمعت عيناي فلم أمسحهما، بل خطوتُ إلى بهوِ البيت، حيث المرآة المؤطرة بنحاسٍ أحمر، ناظراً إلى عينيَّ تحديداً، في وجهي غير الحليق ذلك الصباح، وابتسمت.

يعنُّ لي أن أنظر إلى عينيَّ في المرآة كلما دمعتا، إذا سعلتُ أو تثاءبتُ، أو بكيت أيضاً، لألتقط ذلك الخيط الذي يقرِّب التشابُهَ بينهما وبين عيني أبي اللَّتين تدمعانِ كلَّما ضحك. فقد كنتُ أنا وأخي «دينو»، في طفولتينا، نعمدُ إلى حكِّ عيوننا لتدمعَ كلَّما رأينا عينيْ أبي دامعتين، في محاكاةٍ ساذجةٍ وفكاهية في آنٍ واحد. وقد استمرّت العادةُ تلك معي حتى حين صرتُ شاباً، ولا أعرف، بالطبع، إن كان «دينو» ما يزال على مثل حالي.

عيناي، على أية حال، لا تشبهان عينيْ أبي المُجَلَّلتين بغموضٍ في محجريهما العميقين. وعينـاي جاحـظتانِ قليلاً، مكشوفتان ومضحكتان في ثباتهما على الأشياء والـوجـوه، وذلـك مـا لـم أحبَّـه فيهما قط. لكنني كنتُ أجدهما فَرِحتين متأمِّلتين حين تدمعان، فألتقط الشَبَهَ بيني وبين أبي الذي يكرِّر عبارته المعهودةَ: «هذا الهيكل المائل»

كلّما ذكرَ الوقتَ بنظرةٍ إلى ساعته، أو بإشارة إلى الزمن في حكاياته عن كردستان. أمّا لماذا يكون الزمنُ هيكلاً ماثلاً فهذا ما لا أعرفه، وما لا أعرفه ـ أيضاً ـ إنْ كان يقصد بالهيكلِ هيكلَ إنسانٍ، أو حيوان، أو عِمارة.

كانت جملته تلك لا تستدعي أيَّ تأمُّلٍ فيها، قط، لكثرةِ تردادها. لكن يعنيني ـ الآن ـ أن أتـأمَّـل عينيَّ لأعرف عينيْ أبي، المختبئتين وراء دموعي، لا لشيء، بل لأكـاشفهمـا بالذي أراه من طبقات قبري المكشوفة لطائرين ينزلانها في مرحٍ، وهما ينقـران كلَّ شيء: الـريحَ، والمياهَ، والـظلامَ، والقهقهـاتِ الكثيرةَ، والأيامَ، والفُطْرَ الأخضرَ الذي ينمو على عظامي المرتجفة.

قد ينفجـر أبي في قهقهـةٍ أكبرَ إذا رآني مسترسلاً في إيجاد شَبْهٍ بيننا على هذا النحو، فأنا نفْسِي كدتُ أضحك بعد تلك النظرة التي ألقيتها على وجهي في المرآة ذات الإطار النحاسيّ، لكنني توجّهت إلى المطبخ ثانيةً، بدافعٍ من جوعٍ طارىء، لأتناول قطعة من الخبز مع بقايا طبيْخٍ باردٍ، من عشاء سابق. ثم جلست على كرسيٍّ ذي مساند معدنية، وأواصر من قماش اهترأتْ حوافُّها، وأنا أتأمّل إحدى الورقات التي استنسختُ عليها «خدعةَ بروتستانتيّيْنَ ألمانٍ» جاءوا إلى الشرق الكرديِّ ذات مرّةٍ، كأنّما أستعدُّ، بعد خمسة أيام، لمواجهة الجار الغامض، ذي اليد التي تنتهي لا بأصابعَ بل بجناحٍ صغير.

لم أنقطع عن التفكير في هؤلاء الذين وفدوا، فجاءةً، بدوابِّهم، وأقفاصهم، إلى البيت الذي يقع إلى الشمال من حديقتي الأمامية، وبخاصّةٍ بعد لقائي بالرجل الغارقَ في معـطفه، تلك الليلة، بعدما ناداني باسمي، وطلب مني ـ في خَفَرٍ ـ أن أستنسخ الجملةَ المملّة عن بروتستانتيين شُقْرِ الشّعور، يبحثون في المجاهل عن أحلافٍ تحت غطاء العرق الآريِّ.

لـم أنقطع عن التفكير فيهم، لكنني كنتُ على يقين، خلال خمسة أيام، أنّ أموراً توشك على وضع حدٍّ لانتظاري، فلم أغادر البيت إلّا إلى المتجر الصغير المجاور، لأتبضّع أطعمةً، أو أشربةً، وتبغاً، حتى لا أفوّت فرصةً على زائرٍ يطلبني. وفي صباح اليوم الخامس وقع الذي انتظرته، فزارني الرجال الأربعة، الذين باتوا أكثر قلقاً منّي، بعد

لجولة الخرساء على شوارع خرساء بحثاً عن «الرجل الكبير».

وفي اليوم الخامس، أيضاً، أيْ بعد عودتي إلى البيت من الجولة المذكورة، تذكّرتُ طلب الجيران، فقرّرت حَمْل الأوراق التي استنسختُها إليهم. ولمّا فتحت باب البيت المفضي إلى الحديقة الأمامية وجدتُ الوقتَ قرابةَ العصر، برغم اعتقادي أن جولتي مع الرجال الأربعة لم تستغرق أكثر من نصف الصباح، أو ثلاثة أرباعه، دون اقترابٍ من الظهيرة. وإذ عبرتُ الحديقةَ وجاوزتُ سورَها، لأنعطفَ صوبَ سور البيت المجاور، حيث جيراني الجدد، رأيت ـ شمالاً ـ قرب سور حلبة سباق الخيل، التي تقع على مبعدة أمتار، الرجالَ الأربعةَ الذين اصطحبوني صباحاً، جالسين القرفصاء على التراب الأحمر المحيط بالسور الشبكيّ، ووجوههم إليّ.

ابتسمتُ للأربعة وأنا أتقدّم إليهم، وفي عيني اعتذار منهم ومنّي، معاً، عن نزهةٍ في صباحٍ لم يكن ينتظرنا، فتُهْنا، واقعين في لعبة اختباءٍ بيننا وبين الأمكنة، دون أن ندري ودون أن تدري الأمكنةُ.

لماذا عادوا ليجلسوا على مبعدة أمتار من بيتي، على هذا النحو المضحك قليلاً؟ ذلك ما تبادر إليّ وأنا أتقدّم إليهم مبتسماً دون سبب، ومرتبكاً من المفاجأةِ أيضاً. فلو كان لديهم شيء يقولونه لطرقوا بابي. ولمّا قاربْتُهم، ووجهي إلى شجرات الأكاسيا الباسقة خلف سياج السور الشبكيّ، الذي أوْلوه ظهورَهم، وضعتُ يديَّ في جيبيْ بنطالي. وفي وقفتي أمامهم لم يلهمني الموقفُ كلاماً سديداً، فنطقتُ ما استظْهَرَهُ لساني ارتجالاً:

ـ منذ متى أنتم هنا؟

نظر الأربعة إليّ نظرات هادئة كسولة، من تحت حواجبهم، وأطالوا التحديق فيّ كأنهم غير معنيِّيْن بأية إجابة، فازداد ارتباكي، فتداركتُ الأمر بأن جلستُ القرفصاءَ مثلهم إلى جوارهم، ناظراً صوب بيتي الذي ظننتهم يتطلعون إليه. ومن ثم التفتُّ إلى أقربهم مني، سائلاً: «لماذا رجعتم إليّ؟»، فبدأ الرجل مُبَاغَتاً بسؤالي، وهو يمسح على حاجب عينه اليسرى، قبل أن يجيب: «لم نرجع إليك»، فأقلقني جوابه، ولذا حاولتُ التمويه على نفسي بسؤال فَكِهٍ: «أتراهنون على الخيول؟».

التفتَ الرجل إلى أصحابه الثلاثة، وسارَرَهُمْ بكلماتٍ قليلة، فضحكوا. وعاد الرجل نفسه، الذي اخترتُ جلوسيَ القرفصاء إلى جواره، يحادثني: «لا نحبُّ الخيول».

«ما من أحدٍ يحب الخيول»، قلتُ للرجل، فأبدى إصغاءً ممتزجاً بابتسامةٍ مرحةٍ، ثم التفتَ إلى أصحابه يهمس إليهم بكلماتٍ جعلتهم يضحكون من جديد، وعاد فسألني:

ـ ظننّا البعضَ يحبُّ الخيول.

«لا» قلتُ جازماً. «ما من أحد يحبُّ الخيول»، أضفتُ.

لم ينظر الرجل اليَّ، بل إلى بيتي، مبتسماً، وقد خِلْته سيسترسل في سؤالي عن هذا الاستنتاج الواثقِ ثقةً مضحكة، لكنه ظل صامتاً، فحاولت استدراجه:

«ما من أحد يحب الخيول»، ردّدتُ كلماتي للمرة الثانية. فالتفتَ هو والثلاثة الآخرون صوبي في هدوء لا فضولَ فيه. ولمّا وجدتُ في نظراتهم شيئاً من الضجر عدتُ إلى سؤالي الأول:

ـ إذا لم تكونوا هنا من أجلي، فلماذا تجلسون متطلعين إلى بيتي؟

«لا نتطلّع إلى بيتك»، ردّ الرجل الذي أجاوره، مضيفاً: «نتطلّع إلى هناك»، مشيراً بإصبعه إلى البيت الذي قطنه جيراني الجدد. وبالطبع كان ضَيْقُ المسافة بين البيتين سبباً جعلني أغفل عن اتجاه نظراتهم، تحديداً، لكنني بوغتتُ من إجابته:

«هؤلاء؟ وماذا تريدون من هؤلاء؟» سألتُ مستغرباً، فردّ الجالس إلى جواري: «ننتظر أن يغادروا».

«أن يغادروا؟» قلتها، وضممتُ طرف سترتي بيدي على صدري كأني أقي نفسي من ريح. واستدركتُ فسألته: «ولماذا سيغادرون؟».

«انتهى عقد استئجار البيت»، أجابني الجالسُ القرفصاء إلى جواري، فتمتمتُ: «أيّ عقد؟ هم هنا منذ أيام قليلة»، فأجابني الرجل جازماً: «انتهى عقدهم».

لم أستطع تمويه حيرتي، فعدت أسأله: «إذا انتهى عقد أحد فإنّما يجدّده. ألا يستطيع هؤلاء أن يفعلوا أيضاً؟».

وضـع الـرجل يده على كتفي أولاً، ثم ربت عليها كأنّما يُقنعني بالتخفيف من أسئلتي، لكنني لم أتوقّف:

ـ وما علاقتكم بعقد هؤلاء؟

«علاقتُنا؟» قالها الرجل ورفع حاجبيه، مُرْدِفاً: «لا علاقة لنا بعقدهم».

نهضتُ واقفاً. واضعاً يديَّ في جيبيْ بنطالي من جديد، ناظراً تارةً إلى الأربعة الجالسين القرفصاء. وطوراً إلى البيت المجاور لحديقة بيتي، وقد بلبلني هذا الإسراف في التمويه الذي يُثْقِلُ على المكان.

«لكنهم سيستـأجـرون بيتـاً آخر، بعقد جديد»، قلتُ لنفسي بصوت مسموع، ولويت عنقي صوب الأربعة، مُرْدِفاً: «ألا ترون ذلك؟»، ثم غادرتهم بخطواتٍ هادئة نحو البيت، وحين وصلت إلى مقربة منه عنَّ لي أن أعرِّج، بالأوراق التي في جيوبي، على جيراني الجدد، لكنني، بغتةً، قررت دخول بيتي، فنافذةُ واجهة المنزل الأمامية ستتيح لي أن أُرضي فضولي في معرفة خاتمة مّا، أو شبه خاتمةٍ، للذي ينتظره هؤلاء، والمغيبُ يوشك أن يكلِّل النهارَ القصير لربيعٍ يعلن عن نفسه في تردُّدٍ.

حين صرت داخل البيت أحضرت كرسياً، ومنضدة صغيرة، وضعتهما لصق النافذة المطلة على الحديقة الأمامية، والتي يُرى منها طرفٌ من سور سباق الخيل، ورجلان فقط من الأربعـة الجالسين، لأن عمود السقيفة التي تعلو مدخل بيتي، من الخارج، يحجب الآخرَيْن. وقد وضعت كأس شراب أمامي، وأشعلت لفافة تبغ، ثم جلست في ارتخاء، كأنَّ الوقتَ كلَّه لي.

كلُّ شيء هادىء داخل المنزل الذي قطنه النزلاء الجدد، ولا أضواء أيضاً، لأن النوافذ مقفلة بإحكام. لفافتي أضاءت يدي فانعكستْ على الزجاج. وبعد استغراق قليل لفت نظري النـورُ الأبيضُ الشحيحُ الذي غمر رأس عمود الكهرباء. وهو يبدأ هكذا، شحيحاً وأبيض، ويشعّ أكثر من ثمّ فيصير أصفر، ولمّا تكتمل إضاءةُ المصباح التدريجية يغـطي حديقتي لونٌ برتقـاليٌّ، ويجـاوزها فينـسفحُ على الشارعِ الإسفلتِ، والأرضِ الخلاءِ الرملية غرباً، دون أن يصل، بالطبع، إلى سور سباق الخيل. لذلك غاب عن نظري الرجلان اللذان كنتُ ألمحهما، أولاً، ومن ثم غاب السور، أيضاً، كأنما التهمته

شجرات الأكاسيا التي ظلت تُرى بالإضاءة الرصاصية لسماء المغيب من خلفها.

ظننت أن المسألة حين تدخل هذا الحيِّزَ المسائيَّ فلا بدَّ من حركةٍ، لكن الرجال الأربعة لم يتحركوا من كمينهم المعتم، فيما بقي البيت المجاور على هدوئه. أمّا أنا فكنت أتنقّل بين الكرسي وبين المطبخ لأملأ كأسي بالشراب، دون أن أشعل النور في الغرفة، مكتفياً بالحزمة الكبيرة البرتقالية من ضوء مصباح الشارع، التي اندلقت من النافذة على الحائط خلفي، وانحدر بعضُها فأصابَ قَصْعَةً نحاسيةً ذات نقوش، وضعتها على حامل، في الركن، للزّينة.

رويداً رويداً، حين نصب الظلام دعائمَه القوية، ووزّع سطوتَهُ توزيعَها الحسنَ والمتوازنَ، بدأت أصواتُ الجنود المتحصّنين في دُشَمِهِم تتعالى من جهتي الخط الذي قسَّم الجزيرة في حَرب ماضيه: هؤلاء يشتمون، وأولئك يشتمون، بادئين ـ كعادتهم كلَّ ليلٍ ـ صولاتٍ يمتحنون بها حناجرهم حتى الصباح.

مناوباتٌ على الصراخ، فيما وراء شجرات الأكاسيا. وفيما وراء السور الغربي لحلبة سباق الخيل، هي وحدها التي آنسَتِ السكونَ الثقيلَ. فاستأنستُ بها، بدوري، ما دام المشهد على حاله؛ أعني أن البيت المجاور لا يتفتّح عن نأمةٍ، ولا يستطلعُه الرجال الأربعة المنتظرون، أيضاً. وبرغم قشعريرة خفيفة من البرد تسلّلت بين جلدي وقماش سترتي، وتسلَّل معها نفادُ صبرٍ ملجوم، آثرتُ المكوث في مكاني، وأنا أكاد أنصهر في الضوء البرتقالي لمصباح الشارع، بعدما تراجعت بكرسيّي إلى الوراء قليلاً فسقط كشلال عليّ. غير أنني، في الدقائق البطيئة التي تلتْ، أحسست ـ بحقٍّ ـ إنصهاراً في أعضائي أحالها إلى غبار خفيف تسرّب عبر الزجاج، مع الضوء ذاته، عائداً إلى المصباح المعلق على العمود الخشبي العالي، ليتجمَّع هناك هالةً كانت ستتكاثف أكثر لولا الرذاذ الخفيف الذي انحدرَ من أعماق الليل ليجرفَ غبار أعضائي، في كل قطرة منه، فتساقط بعضي على أوراق شجرة الرمان في حديقة البيت المجاور، وعلى أوراق شجرة البوغانفيلي. وراح بعضي الآخر يستقر على شجرات الورد، وأوراق الزنبق الكثيف من حول النخلتين الصغيرتين قرب السياج.

كنتُ أتوزّع مع بعض القطرات على أسطحة الأوراق أولاً، ثم تأتي القطراتُ التالية

فتدحرجني صوب الأرض الصلدة، فأتشبث بالعشب القليل، أو الرمل، أو الاسمنت، حتى لا أنزلق إلى الأعماق الباردة، تماماً كما وجدتُني أتشبث بالكرسي، وأنا نصف غائب، حتى لا أصعد مع الضوء البرتقالي، عبر النافذة، إلى الخارج.

لا أدري كم من الوقت مضى على جلوسي، لكنني أفرغتُ منفضة لُفافات التبغ أربعاً في سلة المهملات؛ أيْ أنها امتلأت أربع مرّات بالأعقاب القطنية؛ أيْ أنني استنفدت علبة تبغ، ربّما، في جلوسي ذاك. فقمت عن الكرسيّ أتمطّى، ملقياً نظراتٍ فاحصة على كلِّ اتجاه، وقد ألصقتُ وجهي بزجاج النافذة حتى علاه بخار أنفاسي. ولأوّل مرة، منذ حضر نزلاء المنزل المجاور، تفكّرتُ في دوابهم، التي كانت خليطاً من حمير بلقاء عالية، وبعض الثيران، وقد دفعوا بها إلى ساحة البيت الخلفية، المسقوفة بقماش سميك وحبال من معدن.

لم أسمع أصوات تلك الدواب طوال الأيام القليلة الماضية على وجود النزلاء في المنزل، كما لم أسائل نفسي في سبب جلبها إلى وسط هذه المدينة. وقد ارتأيت أن أخرج لألقي نظرة، من تحت عريشة العنب، على الساحة الخلفية للمنزل المجاور، حيث يفصل حدود البيتَيْن سياج واطىء من أسلاك رفيعة، صدئتْ مع الوقت، وتسلّقها نبات ذو سيقان زرقاء وورق قاسٍ وصغير يشبه آذان الفئران، وهو أشعث غير متجانس، مشتّت وأخضر دائماً، لا يحتاج إلى سقاية أو عناية، كئيب قليلاً، لكنه أفضل من لا شيء.

خرجتُ من الباب نازلاً الدرجتين الأماميتين، ثم انعطفتُ يميناً، ملامساً بكتفي سعفة نخلٍ، لأصير - بعد خطوات قليلة - تحت عريشة العنب الجرداء، ذات الأغصان الملتفّة في الأعلى كثعابين يابسة. ومن ثم تقدّمت صوب السياج الصدىء فلامسته بأصابعي، متطلّعاً من فوقه إلى ظلام الساحة الخلفية التي كانت مرآباً. وبالرغم من أن الجدار الجنوبي لذلك المنزل، والعريشة الصغيرة المتكئة عليه من الجهة المقابلة لعريشتي، قد حدّا من وصول الضوء البرتقالي إلى تلك الساحة، لكن الأشياء كانت واضحة فيها: ثمت عجلة مطاطية لسيارة، وألواح خشب، ومرآة كبيرة جداً، في إطار أثري استغنى عنه نزلاء سابقون، وبعض حبال مقطوعة، ملقاة في فوضى على الأرض،

إضافة إلى ورقٍ رطبٍ متراكم لم يكنُسه أحد لشهور.

حين أكملت استطلاعي الصغير عدتُ على أعقابي. في اتجاه الضوء البرتقالي العالي، ولمّا صرت لصق عمود الكهرباء تماماً، ظلّلت عينيّ بيدي جاهداً أن ألمح شبحاً مّا من أشباح الرجال الأربعة، الذين كانوا جالسين القرفصاء قرب سور حلبة سباق الخيل، فلم أميّز في الظلام البعيد أحداً. فأرخيتُ يدي، وأنا أتطلّع إلى حركة نزولها من أمام وجهي إلى جنبي، كأنما هي يدُ غيري.

أكان أخي «دينو» يظلّل عينيه بيده، في تلك اللحظة، أيضاً؟ مرَّ ذلك ببالي لَمْحاً. وأظنه - زيادةً في تأكيد ما خطرَ ببالي - كان يحاول استطلاع موقعي، في الجانب الآخر من البحر، وهو جالس مع جلساء أبي، يمتدح - بنفاقٍ فكِه - وليمة «شِيْرُوْ بابانْ» التي جرت في وداعي، قبل ست سنين.

لقد أراد الرجل المذكور هيبةً لنفسه، فأَوْلَمَ لأبي ولجلسائه على ثلاثمائة وأربعين علبة سردين، تراكمت صفائحها الفارغة كأهرامٍ صغير، والتصقت الرائحة والزيت بكل شيء، حتى أنني إذا شممت يديّ اليوم وجدتُ في عظام سلاميّاتهما بقايا من عبق وليمة «بابان». وقد ظل أخي «دينو» يمتدح - كلّ ليلة - الزيتَ كأنه سيشربه، ويمتدح الرائحة كأنما سيغلق عليها طين جدران البيت. وبقي على حاله حتى سافرتُ، غير أنني لا أتوقّف عن سماع صوته ذي البحّةِ الخفيفة كلّما تذكرته: يحضرني صوتُه أولاً، ثم تحضرُ صورتُه. وصوته مرتبط عندي بمناجاته الهامسة للحمارين اللّذين جرّا حصّادة «شِيْرُو بابانْ» الضخمة، حين تعطّلت في اليوم الأوّل لدخولها حقل قمح «علي زِيْرِيْ».

كان عاثراً حظُّ «بابانْ». أمضى شهراً، هو وفنّيوه ذوو اللّحى، في خيمة مضروبة قرب حصّادته الـ «جون دير» يجدّدون القِطَع البالية، ويدهنون مفاصلها بالشحوم، والزيوت المعدنية، حتى أصدرتِ الآلة أصواتها المختنقة الأولى كدليل على انبعاث روحها الحديدية. وفي خضمّ انشغاله بصيانة ذلك الغول الأخضر، تعهّد حصادَ ستة حقول كبيرة من مزارعين أصدقاء. غير أن آلته توقّفت في امتحانها الأول، ولم تكن قد حصدت غير كيسين اثنين انكبّ الخياط عليهما بمسلّته وخيوطه القُنّبية. ولمّا بحثوا عن جرّار آلي يعود بالحصّادة إلى مرآب التصليح لم يجدوا غير حمارين قادهما توأمي «دينو»

إلى «باباتْ» الغاضب، الذي كان قد وعد أخي بتشغيله سائقاً على الـ «بيك آب» حين يفرغ من تصليحه المصلّحون، لينقل أكياس القمح الملأى إلى مستودع في العراء. والعمل ذاك من أكثر الأعمال سهولة في موسم الحصاد، الذي لا يجاوز الشهرين.

ربطوا الحصادةَ إلى الحمارين، وتولى «دينو» قيادتهما. وحين التقيته في العراء القريب من بيت «باباتْ»، الذي لا يبعد عن بيتنا كثيراً، كان «دينو» يناجي الحمارين بهمهماتٍ لم أقع فيها على كلمة واضحة، لكنها مقنعة. نعم، مقنعةٌ، حتى أن الحمارين لم يعيرا قهقهاتنا اهتماماً، وترفّعا عن النظر إلى السخرية في إشاراتنا. وفي المساء حضر «باباتْ» مجلس أبي، في ساحة دارنا، ليوسّط الجالسين من أجل بيع حصّادته، ولمّا سمع نبأ سفري ارتأى، برغم كَرْبه، أن يُوْلِمَ لنا جميعاً في داره، وكانت الوليمة ثلاثمائة وأربعين علبة سردين، ولا أعرف لماذا لم يزدِ الرَّقْمُ أو ينقص.

على أية حال، كان للحمير نصيبها الوافر من الرفاهية في هذه الجزيرة. لأنني حين وصلتُ، وصرتُ أتردّد على مطعم صغير يتحدّث بعض روّاده لغتي، عمّتِ الإشاراتُ إلى الحمير، تلميحاً أو تصريحاً، كلَّ كلماتنا، وقصصنا، وشتائمنا أيضاً. غير أننا لم نلتق بهذه الحيوانات التي طارت شهرتها أكثر من أية صناعة أو محصول، وباتت تزاحم تمثالَ فروديت المكسور الذي تكثر صوره في الإعلانات السياحية انتقاماً من حاضر نساء الجزيرة، والحفنةَ القليلة من الأعمدة التي قَبِلَها التاريخُ في ضجرٍ واضح، من جزيرةٍ تفيض أيام العُطَلِ فيها عن التقويم الشمسي: عُطَل خاصّة بالأسماء، وبالقديسين، وبالمياه، وبالاستقلالات، وبالغزوات، وبالميلاد، وبالفصح، وبالفِطر والأضحى الإسلاميّين، إضافة إلى أعياد تُعلنُ في حينها بغتةً (أو هكذا تهيّأ لنا). ومن ثم تتسع دائرة التعطيل لتشمل أعياد جيرانهم اليونانيين في البحر المتوسط، حتى أن السائحين كانوا يدورون على أنفسهم دائخين، في مواسم الإصطياف، بحثاً عن مطعم، فلا يجدون ـ وبخاصّة في شهر آب، حيث الاستراحة الجماعية لشعب بأكمله ـ فيكادون يأكلون خرائطهم.

لقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها الحمير، مذ قدمتُ إلى الجزيرة، حين جاء نزلاء البيت المجاور، الذي رصدتُ ساحتَهُ الخلفيةَ فلم أجد فيه أثراً للدّواب. ولمّا

أنزلت يدي التي ظلَّلْتُ بها عيني، تحت الضوء البرتقالي لمصباح الشارع، كي أعثر ـ في الظلام ـ على شبحٍ مّا من أشباح الأربعة الجالسين قرب سور حلبة سباق الخيل، أيقنتُ أن عليّ التغاضي عن حكاية ذلك اليوم كلّه، والعودة إلى الداخل. فاتجهتُ إلى الممرّ الإسمنتي، الذي يخترق شجرات الورد، والنخلتين الصغيرتين. لكنني توقفت حين جاورت شجرات الورد، المتشبثة ببقايا ورق ميت من السنة الماضية، وانحنيت انحناءة خفيفة أصغي إلى نبضها الضعيف، وإلى نعاسها، في ذلك الهدوء الواثق. وأنا يحلو لي، في الهدوء الليليّ، أن أصغي إلى شجرات الورد، ليقيني الغامض أن الشيطان يستلقي تحتها بعد كل جولة من جولاته التي يقدِّم فيها براهينَه ـ في جدالٍ تعرق منه الأيدي ـ على أن الله لا يخذل أحداً. وهو يختار شجرات الورد التي في حديقتي تحديداً، لأنني ضجران، وهي حال يجد الشيطانُ في أصحابها عزاءً لنفسه، لأنهم مشغولون ـ أبداً ـ ببرهانٍ واحد على أن الحقيقة لا تُعنى بصورتها كما ينبغي.

بالطبع لم أسمع، في ذلك الهدوء، صوت أنفاسٍ، أو خشخشة ثياب تحت شجرات الورد، وقد أَلِفتُ الأمرَ على أية حال. فأنا حسبي أن أصغي، وحسبُ الشيطان أن يؤكد أنه ليس هناك. وهو يعرف أنني أصغي، وأنا أعرف أنه هناك. أمّا شجرات الورد فتبقى صامتةً تعضّ على ورقها القديم وهي تلد، في عسرٍ، ورقاً آخر سيبقى صامتاً حتى سقوطه.

حين جاوزت شجرات الورد، ارتقيت الدرجتين الرخاميتين المتصلتين بمسطبة تفضي إلى باب البيت، فإذا بالدرجة الثانية تهتز قليلاً. عدتُ نازلاً ثم صعدتهما من جديد لأختبرهما فوجدت، فعلاً، أن الثانية منهما مخلخلة. حرّكتها بيدي فكادت تنخلع. قلت لنفسي أنني سأخبر صاحب البيت كي يثبّتها ببعض الإسمنت من الجوانب، لأن صعودَها مزعج بالإهتزازة المباغِتة التي تُحْدِثها تحت القدمين.

كنتُ قد تركت باب البيت مفتوحاً، دون ضوء من الداخل، فبدا مثل حقيبة. لا. بدا ـ على الأرجح ـ مثل شقٍّ واسع في ستارة، فدلفتُ منه وأنا أتحسّس الزرّ الكهربائي على الجدار، يساراً، فأضاء الرواقُ الطويلُ. أغلقتُ الباب من خلفي وتقدّمتُ إلى غرفة النوم، حيث ثيابي المنشورة على السرير، من أيام عدّة، مُذْ تخيّرتُ النوم في غرفةٍ أخرى

ليست للنوم. وقد درتُ من حول نفسي نصف دورة لأرى إنْ كانتِ الحقيبة في موضعها فإذا هي في موضعها. رفعتها إليَّ وأنا منحنٍ لأطمئن على الريشة في قاعها فلم تكن الريشة هناك.

لقد حملتُ تلك الريشة التي كانت نائمة بين ثيابي بأناملي، من قبل، لكنني لا أتذكّر إن كنتُ أعدْتُها إلى قاع الحقيبة أم سقطت منّي في الحديقة الخلفية، وأنا أرصدُ الطائرين في العراء الممتدّ إلى ما وراء الحديقة بأمتار كثيرة.

إنها ريشة لا تذكّرني بشيء، على الأرجح، بل يثيرني أمرُ وجودها بين ثيابي، بالرغم من أنني قد أتماصى عن وجودها في حقيبتي، وتلك هي الكيفية الحقيقية التي على شخص مّا أن يتصرّف بها إزاء وجود ريشة في حقيبة سفره. فالحكاية برمّتها أن ريشةً سقطت من مكانٍ مّا. بطريقةٍ مّا، مقصودة أو غير مقصودة ـ بالتأكيد ـ بين ثيابي، وكان حرياً بي، حين وجدتها تعلو في ظلام الحقيبة، خفيفةً لا يؤبه لها، أن أتركها هناك أو حملها بأناملي إلى منفضة الرماد، لأتسلّى بإحراقها، في برهةِ شرودٍ، بجمر لفافتي، وأنا أتشمّم رائحةَ نشيشها وهي تنكمش قليلاً قليلاً، مطيعةً ومتألّمةً في الآن ذاته. لكنها كانت شيئاً غير محسوب في السيرورة المحسوبة لتلك الحقيبة المغلقة ستّ سنينٍ على ثيابٍ أعرفها قطعة قطعة، ومتاعٍ آخر قليل. لذلك أظنُّ أنها باغتتني على نحوٍ ليس من حقّها، في برهةٍ من أشدّ البُرهات فجوراً، أعني البرهةَ التي كنتُ أزمع فيها على انتحار محكومٍ بقرارٍ كسول. وهي برهةٌ فاجرةٌ لأنها شهيّةٌ ومُكْتنِزةٌ. هكذا وجدتُها، ولا أعلمُ كيف كانت تجدُني هي، أعني تلك البرهة. لكنني أسمح لنفسي بتقديرات، ومنها أنها كانت تنظر إليّ ـ في سيرورة انسيابها الرهيف ـ متأمّلةً، كأنّما تبتكر لنفسها ذاكرةً مّا. ومحاولتُها المارقةُ تلك لم تكن لتروق للزمن، على أية حال، فهو لا يدعُ لبرهةٍ من برهاته، مهما كان شأنها، أن تخرج على الثِّقل الجوهريِّ الذي يجعله ـ أعني الزمنَ ـ خاصّيّةً بلا ذاكرة.

لا أستطيع تحديد الجهة التي كانت تتأمّلني منها تلك البرهةُ المذكورةُ، لكنها ـ في تقديري ـ كانت تشرف عليّ من مستوى أعلى قليلاً من السرير، ليتهيأ لها التفرّس في ملامح وجهي عن قرب، حيث شفتي السفلى المرتخية على ذقني المدبّب،

ووجنتاي الغائرتان، وأنفي الأقنى، وأجفاني المستطيلة، وحاجباي اللذان يجعلان عيني غير ثابتتين من تحت ظلّيهما، وجبهتي المنخفضة كأنما ضغطت عليها غُرَّة شعري الكثيفة، المتناثرة خصَلاً. وفي تقديري، أيضاً، أنها كانت برهة مثقلةً بشؤون يطغى عليها ارتباك، كأنّما عبرتْ ـ أعني البرهةَ التي تتأمّلني ـ مكاناً آخر غير هذا المكان، من قبل، مزدحماً بنساء يبكين، وأوانٍ فخّارية تتناثر متكسِّرةً. وحيوانات أعتقد أنها قردةٌ تتسلّق ستائر طويلة. أيْ أنها كانت مثقلةً حقّاً، مليئةً، ليس في وسعها اكتناز المزيد من شؤون أخرى، في مكانٍ ثانٍ بلغتْهُ على نحوٍ مّا، لذلك ارتأتْ أن تتأمّلني كأنما تستريح قليلاً، قبل أن تعبر إلى ما يجعلها ماضياً ذا شكل، ورائحة، محاطاً كعنق الببغاء بطوق يمكن شدُّه بسلسلة فيأتي على مضض، مصفّقاً بجناحين قصيرين لا يرفعانه، وهو يتنفّس باختناق.

قبل انحدارها الى الفاجعة كانت تتأمّلني تلك البرهةُ بعينين من فضولٍ سكران، ومشتّتٍ أيضاً، حيث كنتُ عاكفاً على حقيبتي الفارغة في مشهد ثابت. وهو مشهد ثابت لأنني خارج البرهة تلك، التي تستطيع، وحدها، أن تجعل المشهد متحرّكاً باقتدارها الزمنيّ. ولأنها خارجيٌ، منفصلةٌ عن الحيِّز الذي أَشْغِلُهُ بي من المكان، فقد احتارتْ حيرةً هي المدخل إلى ابتكارِ ذاكرةٍ لنفسها، وحِرْتُ أنا من السكون الذي اختزل ذاكرتي إلى كثافةٍ محدودةٍ أشبه بصدى ضربة على زجاج بعيد. لكنني كنت حيّاً، وكانت البرهةُ تلك حيَّةً، وفي مُكْنَةِ ريشةٍ رمادية صغيرة أن تجد متّسعاً لها بيننا، فتنحدرَ متمايلةً، في هدوء مُسْترسِلٍ، إلى الحكاية التي تفتح ذراعيها لأبي، في مكانٍ مّا، على بعد أمتار قليلة من الليل الذي رفعتُ فيه الحقيبة إليَّ فلم أجد فيها الريشةَ تلك.

حين وضعت الحقيبة على الأرض، خرجت من غرفة النوم إلى رواق البيت الذي تدلّت على أحد جدرانه لَبْلابتان نَمَتا خارج أصيصين معلّقين بحبال إلى السقف. ومن الرواق عرّجت على صالة الجلوس الواسعة، ذات الأثاث القليل، معيداً التطلُّع، من شُباكها، إلى البيت المجاور، وأنا أهمس لنفسي: «لماذا أنا يا أبي، وليس أخي دينو؟». وهو سؤال طالما ردّدتُه عليَّ، بالرغم من أنني كنتُ أستحي قليلاً من أن أتمنّى لأخي امتحاناً كهذا. لكن، ماذا لو كان «دينو» معي، هنا؟ يقيناً كنتُ سأرسله ليستقصي وجود

الرجال الأربعة الجالسين قرب سور حلبة سباق الخيل، بعد جدال يطلب فيه مني أن أذهب لأستطلع بنفسي. وهذه حالنا، فما من واحد منا نفّذ أمراً للآخرين، أو لنفسه، إلاّ بعد مشاحنة: هو يطلب مني وأنا أطلب منه. وقد نسينا معاً، أنا وهو، من ولد قبل الآخر، لنتخذ الدقائقَ الفاصلة بين ولادتيْنا ذريعةً للاستعلاء بدعوى وجوب احترام الصغير للكبير، برغم معرفتي أن مسألةً كهذه لم تكن لتحلَّ المشاحنات التي لا محيد عنها بيننا. فما من امرىء كان يصغي إلى الآخر في ساحة بيتنا: لقد ولدنا، جميعاً، أنا وأخي «شقيقاتي - ومن قَبْلنا أمّي وأبي - عنيدين دون سبب. ولو كان «دينو» معي، ست سنين، لانقسم البيت، وانقسمت أبوابه، وحديقتاهُ، والضوء البرتقالي لمصباح الشارع، والهواء الأبله في الجهة التي أقطنها من المدينة. لكن مشاحناتٍ مفترضةً أفضلُ، على أية حال، من انتظارٍ على هذا النحو. ومن يدري، فلربما صرنا مطيعَيْنِ، يهادن أحدُنا الآخرَ، كأن يقول لي، مثلاً:

- لم يعد بقاؤنا مهمّاً يا مَمْ، فلنرجعْ.

«إلى أين؟»، أسألُه، فيقول:

- إلى بيتنا.

«وماذا علينا أن نفعل الآن؟»، أسأله، فيقول:

- اجمعْ أمتعتنا في الحقائب.

ولأنني مطيع، بحسب افتراضي، فإنّما أنكبُّ على جَمْعِ كلّ ما تقع يداي عليه من ثياب، ومن قطع نحاس زيَّنّا بها الجدران المبقّعة بفُطْرٍ تُخلّفه الرطوبة، إضافة إلى منافض الرماد، والصحون، والكؤوس، وأباريق الشاي المبعوجة من كثرة ما ركلناها في أوقات مشاحناتنا. وبالطبع لا أنسى المخدّات، وشراشف الأسِرَّةِ، وعلبتيْ الكبريت الباقيتين، والشمعة الكبيرة التي أشعلناها مرّتين ربّما. وأكاد أدسُّ كيس الخبز في إحدى الحقائب فيحذّجني «دينو» بنظرة مستاءة، فأعدل عن فكرتي. وحين أنتهي من حزم تلك الصُّرر الجلدية المنتفخة حتى التُّخمة، أجرُّها واحدةً واحدةً إلى المسطبة الرّخامية خارج باب البيت، منتظراً الخطوة التالية التي سيُقْدم عليها أخي، فإذا به يشير عليَّ أن أتبعه في اتجاه عريشة العنب، فأتبعُهُ.

على مهل يدور «دينو» من حول نفسه، ناظراً إلى عريشة العنب في دقّة، ومن ثم إلى شجرة التين التي تفتقت عن ورق لمّا يزل غضّاً، وصغيراً. ويذرع المسافة القليلة بينهما، رافعاً يديه يَسْتَكْنِهُ مساربَ الريح، وينحني ليتأمّل أيُّ الزوايا أكثر ظِلّاً ورطوبة، وأيُّها جافٌ مكشوف للشمس. وإذ يَفْرَغُ من تقديراته، ومن تخميناته، ومن مَسْحِهِ المُرْتَجَل للمكان، يهمس إليّ: «هنا»، مشيراً بيده إلى فسحة صغيرة بين الشجرتين تتقاطع من خلفها، على شكل زاوية منفرجة، بعض شجرات الجيرانيوم، مضيفاً: «ضعِ الحقائبَ هنا». فأعود راجعاً إلى الحقائب، دون مساءلته عن الحكمة في نقلها من فوق ذلك الرخام النظيف إلى هذه الأرض الرطبة المعشبة، المليئة بالحلزون. وواحدةً واحدةً أنقلها، وقد عرقتُ من ثقلها، إلى المكان الذي أشار توأمي إليه، حتى تستقر الحقائب التسع، بأحجامها المضحكة، في حلقةٍ غير منتظمة. ولمّا أتنفّس الصعداء، بعد أداء المهمّة، يباغتني «دينو» قائلًا: «احرسِ الحقائبَ حتى أرجع»، ويستدير مغادراً، فأناديه بصوتٍ خفيض:

ـ دينو.. متى سترجع؟

«سأرجعُ.. احرسِ الحقائب يا مَمْ»، ويمضي عاقداً يديه من خلف ظهره، فأناديه ثانيةً:

ـ والأثاث؟ ماذا سنفعل بالأثاث؟ ألن نخبر صاحب البيت أننا مغادران؟

لا يردّ «دينو» عليّ، ولا يلتفتُ، فأجلس فوق أقرب حقيبة إليّ، ستّ سنين أخرى، يتراكم فيها عليَّ ورق عنب وورق تين كثير، وغبار، وزهر جافٌّ من شجرات الجيرانيوم، وزرْقُ طيور، وبيوت عناكب، وحلزون ميت ملتصق بقوة إلى شعري وثيابي، حتى أنني أختفي والحقائب، بتمامنا، تحت أهرام من السَّقْطِ النباتيِّ والرَّخويِّ.

بعد ست سنين من مكوثي في الظلام الثقيل، والرطب، بين شجرتي العنب والتين، ينفد صبري قليلاً، فأتزحزح من مجلسي، رافعاً وجهي من فوق كَوْمِ الورق والغبار إلى الهواء، وأنا لا أقوى على فتح عينيّ، فأسمع أخي «دينو» يخور كالبقرة ويشتم كلّ شيء. ولمّا أفتح عينيَّ، أخيراً، أجده مرتجفاً من الغضب، فأتنحنح لأُلْفِتَ انتباهه، فيلتفتُ إليَّ، فاتحاً ذراعيه كأنّما يكمل حواراً كنّا بدأناه من قبل:

ـ ألا ترى؟ سينقلون حلبة سباق الخيل من هنا.

«ولماذا سينقلونها؟»، أقول له، وأنا أنفض بعض الورق عن شعري، وبعض خيوط العناكب عن حاجبيّ، فيردّ «دينو»:

ـ يتذرّعون بقربها من الخط الفاصل بين شطري الجزيرة، حيث تجفل الجياد من المناورات العسكرية للجانب المعادي الآخر.

«وما شأننا بهذا، أنقلوا الحلبةَ أم لم ينقلوها؟»، أقول لأخي «دينو»، فيردُّ محتدماً:

ـ وكيف نغادر إذا نقلوها؟

«لا أفهمك» أقول لأخي، فيحدّجني بنظرة استخفاف، هامساً:

ـ ألا ترى، أيها المغفَّل، أنهم إذا نقلوا الأمكنةَ لا نستطيع نحن ـ بعد ذلك ـ أن ننتقل؟

«إنهم ينقلون الحلبةَ وليس المكانَ» أقول لـ «دينو»، فيصرخ ملء شدقيه:

ـ عُدْ إلى حراسة الحقائب يا مَمْ.

وبالفعل أعود فأدفن نفسي تحت أهرام الورق الذي خَصَفَتْهُ السنونُ الستُّ عليَّ، فلا يُرى منّي شيءٌ قط.

هذا ما كان سيحصل، في تقديري، إذا كنتُ أنا الشخص المطيع في العلاقة بيني وبين أخي «دينو» لو كان معي هنا. لكن، ماذا لو كان «دينو» هو المطيع؟ لربّما أقول له، حينئذٍ، على سبيل المثال:

«لماذا لا تتزوّج يا دينو؟»، فيجيبني:

ـ وأنت؟

كثيبة. وجهها كثب مستطيل. عيناها صغيرتان عسليتان، وشعرها خرنوبيٌّ أجعد لا يقوى مشطٌ على تسريحه. طويلة قليلاً. ترتدي البناطيل على أحذية ذات عنق، مفلطحة من الأمام كبساطير الجنود. أصابعها طويلة أيضاً، لا تدخلُ صحنَ الطعام إلاّ لتخرج مبتلّةً بالمرقة أو الزيت، فتمسحها بفخذ بنطالها. وهي تتحدَّث نَفْخَاً، أيْ يخرج صوتها من بين أسنانها القصيرة مدفوعاً بلسانها دَفْعَاً ليرتطم بشفتيها المزمومتين. وأكثر كلامها عن بوذا، و«كرِشْنـا»، وأسماء أخرى من الشرق توحي بسلام «في داخلها»، دون سبب واضح، أو تعليل مبنيٍّ على فهمٍ. وتحبُّ الساري الهندي: «ما أجمله. ما أجمل الهند»، فننصحها أن تذهب للإقامة هناك، فلا تتردّد في القول لنا إنها تفكر بذلك حقّاً، فنذكِّرها، حينئذٍ، باحترام البقر، والشرب من الغانج، والطهو في القلل النحاسية، والإنجاب الكثير: «تزوّجي من فقير تكسّيْ أجراً». ولمَ لا؟. لا يهمّ عندها من تتزوَّجه، ما لم يتأفَّفْ من دراجتها النارية. و«صاحبة الحذاء العسكري» اضطرت، في الآونة الأخيرة، إلى بيع دراجتها النارية، محتفظة بالخوذة وحدها، التي تجلبها معها إلى المطعم، وقد تأبّطتها دون داعٍ.

.. ومدخلي هو المزاح، أول الأمر، مع «صاحبة الحذاء العسكري»:

ـ ما رأيك أن أشتري لك دراجة نارية؟

تتأملني الفتاة، بل تتأمّل كلماتي: «ولماذا تشتري لي دراجة نارية؟».

«إذا تزوَّجتِ أخي دينو»، أقول لها ضاحكاً، لكن ببعض التأكيد غير المازح من عيني، فتلتفت إلى «دينو» المختبىء خلف عينيه الخضراوين، سائلة:

«ولماذا لا يسألني دينو؟»، فأنهض عن الكرسيّ مشيراً على «دينو» أن يجلس في مكاني:

«تعالَ دينو. اجلس قربها وكلِّمْها أنت»، فيقوم «دينو» بدوره عن كرسيّه، لنتبادل مكانينا. لكنني أمدّ بجذعي من جانب أخي، لأتمكّن من رؤية الفتاة التي بات «دينو» يحجبها عني، لأحصر الحوار معها بي وحدي، كأنما لا أثق كثيراً بقدرة هذا التوأم ذي العينين الخضراوين على الإقناع:

«اختاري دراجة نارية من نوع وسط يا فتاة. الميزانية لا تسمح بأكثر»، أقول لها،

فتتفكّر قليلاً، وهي تعبث بفتافيت خبز على طاولة المطعم: «وماذا أفعل بالأثاث الذي عندي؟»، فأردُّ: «اجلبيه معك».

ولأن «صاحبة الحذاء العسكري» تعيش وحدها في شقة صغيرة، في هذه الجزيرة التي تعمل فيها عملاً لم نسألها عنه، بعيدة عن أهلها الذين يسكنون بلداً آخر، شرقي البحر المتوسط، فإنما لا يتعدى أثاثها منضدةً صغيرة، وكرسيّين جلديين، وحقيبةَ ثياب واحدة، ومقلاةً، وموقدَ غاز للطبخ بشعلة واحدة، ومدفأة كهربائية، وكرة من الزجاج تسبح فيها سمكة حمراء. وهي - بالطبع - تجلب أثاثها هذا إلى بيتنا، فتضيفه إلى الأثاث الآخر القليل، أما السمكةُ وبيتُها الزجاجيُّ فيستقرّان على خزانة صحون، قرب نافذة المطبخ: «تحتاج السمكة إلى ضوء»، هكذا تعلّل الفتاةُ اختيار الموقع. وتضمّ ثيابها إلى ثياب أخي في غرفة نومه، بينما تُمَدِّدُ فراشها القطني إلى جوار سريره، تماماً كما كانت تفعل في بيتها الذي لم يكن فيه سرير. وإذ يقول لها «دينو» أن تجعل بين الفراش والسرير مسافةً، ما داما سينامان على السرير، لا على الفراش، تردُّ أنها لا تريد لَمْسَ الأرض بقدميها مباشرةً حين نزولها عن السرير. ولمّا يقترح عليها «دينو» أن تلبس شبْشِباً في قدميها حالَ نزولها عن السرير، تردُّ أنها تفضل ارتداء حذائها على الفراش، ولا تحبُّ الشّبْشِب. وهكذا نسمع، طوال الوقت، صوت حذائها الثقيل على بلاط الغُرَف، وسقوط خوذتها التي تتحرك معها، في كل عشر دقائق، فترتجّ على الأرض الصلدة ككُرة، وترتجُّ أصداغُنا معها. فنقترح عليها أن ترتديها، لا أن تحملها، حتى نوفّر على الخوذة السوداء، ذات الواقي البلاستيكي الشفيف من أمام، خدوشاً أخرى لا متّسع لها، فتوافق.

أجفلُ من «صاحبة الحذاء العسكري» أحياناً، حين تخرج من الحمّام، أو من غرفة النوم بمنامتها، والخوذة على الرأس. وأنا أسأل «دينو» مراراً إن كانت الفتاة تنام إلى جواره بالخوذة فيرفع كتفيه، مردِّداً: «لا يهمّ. لا يهم. بخوذة أو من دونها ينام المرء إذا أراده»، فأكتم غيظي من لامبالاته. ولمّا تسألني «صاحبة الحذاء العسكري»، كعادتها، عن الدراجة النارية التي وعدناها بشرائها، أقترح عليها الانتظار حتى نستأجر بيتاً آخر، ذا غُرَف نوم أكبر من التي تنام فيها، لتتسع للدراجة أيضاً، فتقتنع. ولمّا تخبرُ «دينو»، عن قناعة، بحجتي المقبولة في التسويف، يتوعّدها أخي: «لن تنام دراجتك معنا في

الغرفة ذاتها. الخوذة تكفي»، فتعود الفتاة إليَّ مُبَلبلةً: «لا يهمّ يا مَمْ. إشترِ الدراجة ونحن في هذا المنزل. سأجد لها مكاناً تحت عريشة العنب».

لن أشتري أية دراجة. هذا قراري. وبخاصّة أنني بتّ أضيق ذَرْعاً بأحاديثها التي تحوّلت عن الهند إلى بوليفيا، مسترسلة في وصف حيوانات اللاّما، حتى نكاد نراها تعبر البيت من غرفة إلى أخرى، ببرادعَ على ظهورها، وأجراس في رقابها الطويلة، بحسب ما تصفها الفتاة. وإذا أسألها متفكّهاً، أحياناً، لماذا لا تختار البيرو، تردُّ أن اسم بوليفيا أقرب إلى الأسماء الأنثوية، ولذلك تفضّل البلد المذكور على غيره. ومما يزيد في ضيقي بها ـ أيضاً ـ أنها تترك عملها فجاءةً: «لا أستطيع الجمْع بين الزواج والعمل» تقول «صاحبة الحذاء العسكري» بصوتها الذي يَخْرُجُ نَفْخاً، وتضيف: «دينو يشخرفي نومه فيوقظني كثيراً. أريد تعويض ذلك في الصباح». وهي تنام ـ بالطبع ـ حتى ساعات الظهيرة، ثم تعكف، كما يليق بامرأة في أوّل زواجها، على طهو أطعمتها المعتادة، التي لا تُجاوزُ الخضروات المغمورةَ بمياه كثيرة على النار، والمعكرونةَ غير المملّحة، ومعلّبات الفُطر، والأرضي شوكي، وحساءَ الدجاج المطحون كدقيق الكلس الممتزج بالتراب، والخبزَ المحمّصَ جداً، والجبنةَ الصفراء، وصحوناً من سوائل أخرى يطفو على سطحها رماد لُفافاتِ «صاحبة الحذاء العسكري» التي لا تبارح زاوية فمها اليسرى، وقد أغمضت عينها من تأثير الدخان المتصاعد لصق خدِّها إلى أعلى. ورماد تبغها في كلّ مكان، على أية حال: في السرير، ومن حوله، وعلى أرض المرحاض، وفي المغسلة، وعلى منضدة الطعام، والكراسي، وبين أرجل الكراسي، وفي أصيصَيْ اللُّبلاب المعلقين إلى السقف لصقَ جدار الرّواق.

أظنّ أنني أخطأت، منذ البداية، في استضافة معدة جديدة إلى منضدة الطعام. فها أنا وحدي أُطعم «دينو» الذي لا يعمل، وزوجَهُ «صاحبة الحذاء العسكري»، بالمخصّص القليل الذي يصلني من «الرجل الكبير» بانتظام. لكنني أقرّر أن أعيد الأمور إلى نصابها، فأختلي بأخي:

ـ كيف أحوالك؟

ينظر «دينو» إليّ بارتياب، مجيباً: «تمام».

«وزوجُك؟» أسألُه، فيردّ: «تمام».

«لا أوافقك»، أقول له، فَيُبْدي دَهَشاً:

ـ لا توافقني على ماذا؟

«على أن كلّ شيء تمام»، أقول له، فيستوضحني:

ـ أرأيت خللاً مّا؟

«كلُّ هذه الحكاية خَللٌ في خلل»، أقول له، فيستوضحني من جديد:

ـ أية حكاية؟

«زواجك هذا» أقول له، فتتهدّل كتفاه من إرهاق مفاجىء، وهو يسألني:

ـ ألم تكن صاحب الفكرة؟

«نعم»، أقول له، ثم ابحث عن كلمات مقنعة قليلاً: «أخي . . دينو. . أنت غير مهيّأ. . »، فيقاطعني:

ـ ما الذي أنا غير مهيّأ له؟

«أعني . . »، أقول الكلمةَ، وأتمتم: «أعني أننا غير مُهَيَّأَيْنِ. . »، فيتمتم هو، بدوره:

ـ أَوْضِحْ أكثر يا مَمْ.

«ما الذي ينبغي أن أوضّحَهُ يا دينو؟» أصرخ بأخي، وأضيف: «فلترحل عنّا هذه المرأة»، فيبتسم توأمي، ويرفع إحدى يديه كأنما يهدِّئني:

ـ أتخافُها؟

«أخاف مَنْ؟ هذه الـ. . . »، أقول مختنقاً، فيقاطعني:

ـ أنت تخافها. لا عيب في ذلك.

«أخافُها؟» أكرّر الكلمةَ غير مصدّق ما اسمع. «أأنا أخافها؟»، وأتمعّن في «دينو» المبتسم: «قلْ لي لمَ أخافها؟»، فيحدِّق فيَّ بعينيه الخضراوين:

ـ لأنها لا تراك.

«لا تراني؟»، وأضحكُ من سخريته التي تغيظ: «هي لا تراني؟ إذا لم تكن تراني فما الذي تراه؟ المنفضة؟»، أقول لأخي ذي العينين الثابتتين على انفعالي، فيردّ في

هدوء:

ـ ترى كلّ شيء إلّاك.

أتمعّن، بدوري، في وجه «دينو». إنه يحاول إرباكي بكلام لا معنى له، لذلك أتجاهل الاستمرار في هذا الجزء من حوارنا، قائلاً: «إسمع يا أخي، سأشتري لك تذكرة سفر لتعود إلى بيت أبيك وأمك»، فيردّ «دينو» دون انفعال:

ـ اشتر تذكرة لك. أنا سأبقى.

عند هذه الكلمات من أخي أجد نفسي متّجهاً إلى المطبخ، الذي أعتقدُ أن «صاحبة الحذاء العسكري» تتجوّل بين صحونه، فلا أجدها، فأتقدّم مباشرةً من الكرة البلّورية الجاثمة على مسطبة قرب النافذة، لأدفع إحدى يديّ في فُتْحَتِها العلوية، ملتقطاً تلك السمكة الحمراء، المرحة دون سبب، وأرفعها وهي ترتعش إرتعاشة خالية من المرح هذه المرّة، ثم أقضقضُ أسناني كأني سألتهمها حيّة....

لقد ضحكتُ، أو بدا لي أنني ضحكتُ، حين وصلتُ إلى هذا المدى من افتراضِ أن أخي «دينو» معي، وأننا نتبادل أدواراً مطيعة، بينما أنا واقف قرب شباك صالة الجلوس، أتطلّع منه إلى البيت المجاور، الغارق ـ هو وحديقتي ـ في الضوء البرتقالي. وفي هدوء أخرجت علبة تبغي لأشعل منها لفافةً بدا جمرها هادئاً مثلي. فأنا، في اللحظات تلك، بتُّ أتخلّى عن فضولي كلّه، برغم أنني كنتُ ما أزال في سترتي، وبنطالي، في ذلك الليل، كمن يستعد لسهرةٍ. ولمّا أعدتُ علبة التبغ إلى جيبي سمعتُ حفيف الأوراق التي نسختُ عليها جُمْلةً عن بروتستانتيين ألمانٍ كذبوا على أناس مّا، في تاريخٍ مّا، فعنّ لي، من فوري، أن أحملها عبر الأمتار القليلة التي تفصل المنزلين، لأسلّمها للرجل ذي اليد التي من ريش.

ومن دون تردّد أخرجت الأوراق من جيوبي، وضممتها في يدٍ واحدة برغم أن أصابعي كادت لا تُطبق عليها، حتى أقدّمها، دفعةً واحدة، لمن يفتح لي الباب. كنتُ سأقول لهم: «هذه أوراقكم، وأنا آسِفٌ لأنني لم أستنسخْ أكثر»، وأعود أدراجي، معتذراً عن الدخول إلى منزلهم، ولو ألحّوا.

فتحتُ الباب، ودلفتُ خارجاً، دون أن أُطبقه خلفي. ثم نزلتُ الدّرجتين اللّتين

تخنخلت إحـداهـمـا، وعبـرتُ الممشى الإسمنتيّ المستقيم، بين شجـرات الـورد والـخلتين، حتى البوّابة الواطئة، فاخترقتُها متّجهاً يميناً إلى بوّابة المنزل المجاور، التي كانت مفتوحة.

أظن أن ذراعي صدمتْ غصناً من شجـرة الـرمان المائلة صوب ممشى حديقة المنزل ذاك، لكنني جاوزتها صاعداً ثلاث درجات تُفضي إلى عتبة الباب، الذي واجهته بضَلّي المنكسر على عمود إسمنتيّ تسلّقه لبلاب جاف، ومن ثم ضغطت على زرّ الجرس الكهربائي، مقرّباً أذني من خَشَبِهِ الدّاكن، فلم أسمع الرّنين من الداخل. ضغطت من جديد، مُلْصقاً خدّي بالباب، فكان الأمر كسابقه: أيْ ما مِنْ رنين.

تعلّلتُ بوجود عطْل في الجرس، فقرعتُ الباب بيدي قَرْعاً خفيفاً، ووضعت أذني ـ من جديد ـ على الخشب البارد علّني أسمع صدى خطوات، فلم يأتني منه شيء. فعدتُ أقرعه قَرْعاً أقوى، لكنني توقفتُ فجاءةً، إذ ندَّ عن الباب صريرٌ، فاتّضح لي أن دفّتـه التي كنتُ أقـرعها غارتْ إلى الداخل قليلاً، مما دلَّ على أنه كان مفتوحاً طوال الوقت. وأوّل ما صادفَ عينيّ ـ من الخَصَاص القليل بين الدُّفتين ـ ضوءُ شاحب انعكس على جزء من جدار الممر الـذي لمحتُه لَمْحاً، لأنني أدرتُ عنقي إلى جهة الشارع مستطلِعاً إنْ كان يراني أحدٌ مّا، فرأيت أن شجرة الياسمين المعرّشة على قسم كبير من السياج تجعلُ ستاراً عليّ. إذ ذاك دفعتُ البابَ فانفتح على مصراعه.

لا أعرف ـ تماماً ـ هل تكوّمتُ على نفسـي وأنا أقي وجهي بساعديَّ، أم ابتعدت عن الباب ملتصقاً بالحائط. لقد فعلتُ شيئاً مّا من هذا القبيل، غريزياً، لأتفادى ذلك السيل الهائل من الطيور التي اندفعت خارجةً في أسراب، برفيفٍ مختنق من أجنحتها، وهي تبعثر الظلامَ الشاحب بهياكلها الشاحبة، قبل أن تمّحي إمّحاءً في البياض الكثيف للّيل، كأنما تلقي بأنفسها في وهجٍ أبعدَ ممّا أرى.

تخلّع قلبي، وكـلُّ ما أحسسْتُه من جسدي ـ بعد تلك المباغتة ـ هما صدغاي اللّذان باتا يتمدّدان وينقلصان تحت ضربات نبضي المذعور. وإذ مرَّتْ دقيقتان، ربّما، وبدا أن المنزل أفرغ ما في أحشائه من طيور، تمالكتُ نفسي، فمددتُ رقبتي من الباب، في اتجاه السكون الذي يعتصره ضوءُ الداخل الناعسُ، ومن ثم تجرّأت فخطوت داخلاً

إلى ممرّ البيت، ومنه إلى بهوه الواسع حيث رأيت، من قبل، صفّين بشريين متقابلين. لكن ما مِنْ أحـدٍ كان هنـاك، فيما بدت صحون الطعام، المرصوفة صفاً واحداً على الأرض، كأنما فرغ منها الآكلون تواً. وفي الجهات كلّها كان ثمت لُحُفٌ منضّدةٌ لصق الحيطان بانتـظام، وثمتَ ملاءات نسـائية، وحـوائـج ملفـوفـة في صُرَرٍ من الجلد، وسجـاجيد، وأقفـاص فارغـة، وعُلب تبغ صفيحيّة مرقّشة، ومغازلُ صوفٍ، وأحذية، وطاسات ماء، ومعاطف، وأمشاطٌ من عظم عَلِقَ بها بعض شَعْر طويل، ملتمع تحت الضـوء الشـاحب المُغـطىٰ بسَلّة في أحد الأركان، كأنما استعرض قاطنو ذاك المنزل أشياءهم كلّها.

لم أُطِلْ بقائي في الداخل الموحش، فأسرعتُ عائداً. ولمّا صرتُ خارج الباب، انتبهت، أوّل مرة، أن يديّ فارغتان، لأنني أبصرتُ الأوراق التي كنتُ أحملها مبعثرةً على العتبـة، والأدراج، وقـرب شجـرة الرمان، والبوابة، حتى أن بعضها تدحرج إلى رصيف الشارع، ممتزجاً بالضوء البرتقالي، الذي بدا أكثر هزالاً. وإذ رفعتُ وجهي إلى جهة الغرب، التي غابت فيها الطيور، خيِّل إليّ أن في مُكْنَتي رؤية ظلال ما في الأفق المسـدود بجـذوع الأكـاسيا، فظلّلتُ عينيَّ بيدي من الضـوء البـرتقالي، ليتسنّى لي حصرها، وأنا أكاد أجزم أنها لأربعة أشباح تبتعد، رويداً رويداً، عن سور حلبة سباق الخيل، في اتجاه الجنوب.

الجزء الثاني

الفصل الأول

«دِيْنُو» يستعيد الدَّوْرَ الذي
كان مَرْصوداً له، والحكايةُ
تستعيد المكانَ.

قبل أيام قليلة من سفر «مَمْ» المزعوم إلى جزيرة مزعومة ـ في صباح الليلة التي ظن فيها أنه قاوم إغراء عويل بنات آوى، فلم يقم عن فراشه نازلاً إليها كما فعل في ليلة سابقة ـ نادى «حمدي آزاد» ابنته الصغيرة «رُوْهاتْ»، ذات الشَّعر الصَّبياني: «اصعدي السَّلُم، وأيقظي أخاك»، فركضت الصغيرة ركْضَها إلى لُعبةٍ، وزحفت ببطنها على درجاتٍ أوسع من خطواتها المتسلِّقة، ولمّا بلغت أعلى السّلَّم توقفت قليلاً وهي تلقي بنظرات من رأسها المدبّب من الخلف على فراش بدا خالياً، لكنها أكملت تسلُّقها لتستوي واقفة على السطح، واقتربت من الفراش فقلَّبت لحافه الرقيق، وإذ لم تجد «مَمْ» رفعت المخدَّة أيضاً، مُسْتَنفدةً آخر احتمال في استطلاعها، ثم عادت راكضة لتنحدر زحفاً على بطنها إلى أسفل، من فوق درجات السُّلَّم، مثلما صعدتْها. وإذ استقرَّت على الأرض هرولت في اتجاه أبيها متعثرةً بحصى الساحة: «ليس هناك»، قالت الصغيرة كلماتها ومسحت أنفها بظاهرِ كُمِّها.

عبس «حمدي» المتهيء لمغادرة البيت، في قميصه الكاكي المسدل على بنطاله الكاكي، وأمالَ بباطن كفِّه حطّتَهُ المعقودة كعمامة من حول رأسه، معبِّراً بحركته تلك عن استياء مكتوم ما لبث أن خرج من بين شفتيه تمتمةً: «ألم أقلْ له أن يرافقني هذا الصباح إلى السوق؟». ثم تقدَّم من بوابة السور الحديدية كأنّما يتناسىٰ أمر ابنه، لكنه عاد أدراجه ليمدَّ نصف جذعه من الباب إلى داخل البيت، حيث تلمُّ زوجه «كَسْبُو» كؤوس الشاي

الفارغة، وفتافيت الخبز المتناثرة من إفطار الصباح الذي خاضه أولاده بالكثير من الصراخ والجَلَبة، وبأمزجةٍ مُرْتَجلَةٍ دافِعُها النكاياتُ. فهذه «هيفين» تخلط الحليب بالشاي، و «ولات» تفتُّ الخبز في اللَّبن لتتناوله بالملعقة، فيما «عيشانة» لا تريد مشاركتها في الصحن نفسه، وتريد بعض الحلاوة الحمويَّة في اللَّبن. أمّا «روهات» فتريد دبساً على خبزها، فتنزلق قطرات منه على كُمّ «رحيمة»، فتصرخ مُنْذِرةً فتدلقُ «هيلانة» كأس الشاي من حركة «رحيمة» في احتدامها. وفي هذه الأثناء ـ عادةً ـ يرتفع صوت «دينو»، أو «مَمْ»، في محاولات لإسكاتهنّ، فيهدأنَ لبرهةٍ، ثم يرجعن إلى صخبهنّ. و «مَمْ» و «دينو» يجسان منفصلين عن أخواتهما، لأنهما يتأخران في النهوض معظم الصباحات، ويريدان بعض السكينة، حتى في الأيام التي كانا يذهبان فيها إلى الثانوية. ولكنهما، مذ أنهياها معاً، لم يجدا الكفاية من الأوراق الثبوتية لدخول الجامعة، فالأب من جنسية «غير مُسْتَكْمَلَةٍ»، وذلك يعني أن لا جنسيَّة قط. لذلك توقّفا عن الدراسة ليشتغلا مع أبيهما في مخزن الأقمشة الكبير الذي يملكه. أمّا في الصيف، فقط، فيفضّلان عملاً موسمياً عند تجار القمح والشعير، أو كمعاونين على الحصّادات، ومدقّقي حسابات لا تحتاج إلى جهد عند أصحاب تلك الحصّادات. وكان «مَمْ» موعوداً، في صيف سنته الأخيرة هذه، أن يعمل سائقاً على «بيك آب» يملكه «شيرو بابانْ» المنحوس.

بالطبع، لم يشارك «مَمْ» أخاه «دينو» في إسكاتِ أخواته ذلك الصباح، لأنه لم ينضمّ إليه على الإفطار. ولمّا مدَّ «حمدي» نصف جذعه من باب البيت ـ حيث كانت زوجه تمسح آثار السُّكَر، والقَطْر الحلو، عن القماش المشمَّع الذي فردتْهُ على الأرض، بمعونة بعض بناتها ـ سائلاً «دينو»، وكان قد بدأ تناول إفطاره توّاً: «أرأيت مَمْ؟»، فهزّ الأخير، الذي لا يحبّذ النوم على السطح كأخيه، رأسه سَلْباً.

«أين هو؟» نفخ «حمدي» كلماته، والتفت من حوله دون أن تثبت عيناه على شيء: «ألم أقل إنه سيرافقني اليوم إلى السوق؟»، فتقدّم «دينو» ـ الذي نهض فجاءةً عن فطاره، في محاولة للجم احتداد الأب الموشك على انفجاره، تدريجاً ـ قائلاً: «سأرافقك إذا أردتَ». فأومأ له الأب برأسه أنْ يتبعه، ومضيا خارجيْن.

كان «حمدي» مزهواً بمذياعه ذي الموجتين، الضخم، الخشبي، المزوَّق بواجهة

من القماش السكّريّ اللون، تتخلّلها عينٌ زجاجية تغدو خضراء بعد نصف دقيقة من إشعال الجهاز. وفي الأسفل ثمت لوحة زجاجية طويلة أفقياً، مرقومة بحسب مسافات وهمية بين العوالم التي يجتازها المؤشر الرقيق، الأبيض، ذو الرأس القطنيّ، بلمسة من أنامل من يريد. وهو مذياع من نوع «سيرا» الذي لا يستهان به، بحقّ. والدليل أن «حمدي» لم يفكّر باقتناء غيره مدى إحدى عشرة سنة، برغم التشويش الدائم الذي يتحرك مع حركة المؤشر، حتى أن أولاده يصمُّون آذانهم عن سماعه بالأيدي. غير أنه قرر، أخيراً، أن يأتي بجهاز أكثر قدرة على اقتناص الإذاعات، ذي هوائيٍ يمكن الاستحواذُ به على جاذبية الأرض، والعزلُ بين اللُّغات المتشابكة لبشر يتزاحمون على الهواء أيضاً. وقد اتفق مع ابنه «مَمْ» أن يمضيا معاً في الصباح، ليعود الشاب بالجهاز الجديد، ويبقى الأب في مخزنه.

من عادة «حمدي» أن يقطع المسافة بين بيته ومخزنه مشياً، برغم الوقت الذي لا يستهان به، فيبلغ في بعض الأحيان ثلاثة أرباع الساعة إذا لم تكن الخطى عجولة. وفي ذلك الصباح لم يكن الرجل وابنه عجولين، على أية حال. وقد سلَّما على بعض المشاة، وشربا طاستين من عرق السوس حين صادفا البائع الحلبيّ، المتجوّل بقِرْبَةٍ كبيرة على ظهره المنحني. غير أن تسليمهما زاد كثيراً لمّا دخلا سوق القماش المسقوف، بدكاكينه المتقابلة، وباعَتِهِ الجالسين على كراسٍ من قش، في ارتخاء صباحي يعوِّضون به استيقاظهم الباكر. وفي آخر السوق، من الجهة الجنوبية، كان ثمت سرداب ذو أرضٍ منحدرةٍ ومُدَرَّجةٍ تنتهي إلى بابٍ حديدي متين غارق في ظلٍّ كثيف، ما أن فتح «حمدي» قفله حتى بانَ المخزن أكثر إضاءة من الداخل، بفعل الكوى الصغيرة، المتناثرة في موازاة السقف، المغلقة بزجاج سميك يجعل ضوء الشارع الموازي لحافة سطحه الخارجي حرّاً في التغلغل إلى القبو الواسع الأرجاء، ذي الرفوف الكثيرة التي فاضت لفائف الأقمشة عنها فَرَكَنَها «حمدي» إلى الجدران، والزوايا، واقفةً كأشباح دون رؤوس.

لقد اكتفى الرجل ببعض اللَّمسات على نماذج من قماش مركوم على منضدته الصلبة المستطيلة، ثم فتح دفتراً ذا ورق مسطَّر، فألقى نظرة سريعة على صفحات فيه،

كأنما يتمّم وضعَ نقطة في السطر الذي قرأه البارحة، وأومأ لدينو أن يتبعه فتبعه الشاب صاعداً إلى السرداب، ومنه إلى ساحة السوق المسقوفة، حيث صادفا صبياً مسرعاً بصينية عليها كوب شاي، فعمد «حمدي» إلى صَرْفِهِ: «سأعود بعد قليل»، فردَّد الصبي، الذي من مهمّاته أن يهرول بكوب شاي إلى كلِّ بائع قماش يُجَلْجِلُ الساترُ الحديديُّ لبابِ دكانه صباحاً: «بأمرك. سأرجع حين تعود»، ودار حول نفسه نصف دائرة ليتوجّه بالكوب الساخن إلى قادم جديد، بينما نادى «حمدي» أحد جيرانه قائلاً: «أنا راجع بعد قليل إذ أرادني أحد»، ومضى مع «دينو» خارجاً من البرودة الصباحية للسوق إلى الشارع المكشوف لشمسٍ تنسج، على عجلٍ، قيظاً أخرس.

لم يبتعد الإثنان أكثر من شارعين، ليقفا أمام واجهة تعلو زجاجها لوحةٌ ملأى بشرارات تقدحُ قَدْحاً من بطاريات مرسومة باللون الأسود على كادر أحمر. وكان «حمدي» كلّما نقّل بصره من مذياع معروض إلى مذياع آخر يتطلع، بعد ذلك، إلى ابنه «دينو» مبتسماً، فيهز الشاب رأسه مستحسناً. ولمّا استنفدا استطلاعهما من الخارج دخلا إلى محل الأجهزة الكهربيّة، ليرحّب بهما شخص بدين أشيب، يرتدي معطفاً أزرق رقيقاً يقي به ملابسه النظيفة ربّما، ودعاهما إلى الجلوس فجلسا على كرسيين متقابلين لصق طاولة تناثر عليها مولّد صغير مفكوك، ومفكّاتٌ، وبَراغٍ. ثم استعرض الرجل بضاعته، وهو يشير من مكانه إليها على الرفوف: «هذا يشتغل بالبطاريات وبالكهرباء معاً. وهذا من غير هوائيٍّ، لكنَّ له واقياً ذاتياً من التشويش. ذاك ـ الذي له مُجَسِّمان صوتيان تحت القماشة ـ مكفول لسنتين. أمّا إذا أردت نصيحتي، يا سيد حمدي، فعليك بهذا الجهاز الألماني»، وأشار إلى صورة مذياع على جدار علبة طويلة مغلقة: «سيأتيك بإذاعات لم تولد بعد»، ثم اهتزت غُددُ الشحم المحيطة بفَكّيه وهو يضحك من جملته، فضحك «حمدي» وابنه أيضاً. وقد عاد، بعد برهة من المرح، إلى تأكيد كلامه: «يستطيع هذا المذياع أن يُصيب مدينة بالصداع. الألمان ألمان. حين يصنعون آلة فإنما يريدون أن يأخذوها معهم إلى القبر». وهنا فاجأ «حمدي» ابنه: «ما رأيك يا دينو؟»، فارتبك «دينو» من خبرته المعدومة في أصناف الأجهزة الناطقة: «اخترِ الذي تراه يا أبي».

«فلنجرِّب ألْمَانَكَ» قال «حمدي» للرجل البدين، الذي نهض من فوره في خفَّةٍ

وأنزل الصندوق الورقيّ الطويل ليضعه على الطاولة، ثم فتحه وأخرج الجهاز ليدلُّهما على بعض ألغـازه الآلية، وعـاد فأغلق عليه الصنـدوق: «مبـروك. مبـروك»، فتمتم «حمدي» كلمات شكرٍ، ودفع ثمن المذياع دون مساومة.

على باب محـل الآلات الناطقة افترق الأب وابنه: عاد «حمدي» إلى مخزن أقمشته، واتّجه «دينو» بالمذياع، الذي تأبّطه، إلى البيت. وفي اللحظة تلك، كانت «كَسْبُو» تنتظر المذياع بدورها، جالسةً على الدرجة الإسمنتية الوحيدة أمام عتبة البيت، بعدما أنهت مشاغل الصباح التي لها روائحُ خبزٍ ووسادات، فيما تناثرت بناتها في الساحة المســوّرة كدجـاجات، يتخاطف بعضهنّ من بعضٍ أغلفةَ وسائد يتدرّبن على نقشها بخيوط ملوّنة تدحرجت كراتُها على الحصى.

«هيفين» المقبلة على الثامنة عشرة من عمرها، كانت في الداخل وحدها، ولمّا طوت الكتاب الصغير الذي قرأته مراراً، خرجت إلى عتبة الباب بثوبها المخطط الطويل، وشعرها المجدول في إهمال، لتجلس قرب أمها على الدرجة الإسمنتية، وهي تمدُّ يدها الكســولـة إلى كيس التبـغ ذي القماش المخمل، والملفوف من وسط بخيط أخضر، فنظرت «كَسْبو» إلى يد ابنتها شزراً، لكن لم تبدِ حركةً لمنع وصول اليد إلى مرادها. وقد تأنّت «هيفين» في عَقْدِ لِفَافةِ تبغٍ لنفســها دون التفات إلى أمها، حتى لا يكون التقاء نظراتهما مدخلاً إلى مشاجرة، ومن ثم أشعلتها وقامت عائدة إلى الداخل، بعيداً عن أعين أخواتها اللواتي قد تشي إحداهن بأمرها إلى الأب.

بعد قليل بدا التعب على بنات «كَسْبو» الخمس، الأخريات، من كثرة ما تجاذبن أغلفة الوسائد، أو تسلّقن الأسرَّة الخشبية الضخمة، ذوات المساند العالية من حوافها، والمنصوبة في جهة أقرب إلى غرف العائلة منها إلى غرفة «مَمْ» و«دينو»، وغرفة ضيوف الأب التي نصفها للمؤونة. وهم ينصبون هذه الأسرَّة، صيفاً، في ساحة الدار، فتتحول إلى ملعب للبنات، يتعاركن عليها، ويأكلن، إذا غمرها ظلُّ المنزل الجنوبيٍّ وشجرتي الكينا الضخمتين، وتخطُّط الصغيرات «رحيمة» ذاتِ الاثني عشر عاماً، و«روهات» ذات التسعة أعوام، و«هِيْلِيْن» ذاتِ الخمسة، بالطباشير مربّعات على سطحها للقفز، فتضطر أختهنّ «عيشـانة»، الداخلة توّاً عامَها الرابع عشر، إلى غسل السطح الخشبي بخرقٍ

مبلولة، كلَّ مساء، قبل تمديد الفُرُش السميكة عليها.

تقدمت البنات الخمس من أمّهنّ لاهثات، ثم جلسنَ حلقةً من حولها لا ينبسنَ إلّا «ولات»، التي تلي أختها «هيفين» في الولادة. فقد شدّت كُمَّ أمُّها الواسع: «أين مَمْ؟»، فردت الأم ضجرةً: «وأين يكون في مثل هذا الوقت يا سيّدة؟»، فتمتمت البنتُ: «أنا لم أره..»، فقاطعتها أختها الصغيرة «هيْلِيْنْ» وهي تمضغ شيئاً مّا: «أنا رأيته». لكن «ولات» أخرستِ الثرثارةَ الصغيرةَ: «أنت لم تري حذاءك»، فامتعضت «هيْلِيْنْ»: «هذا هو حذائي» وأشارت إلى قدمها. عند ذاك جذبتها أختها «روهات» من طرف ثوبها، صارخة: «اجلسي يا زيزه»، فاحتدمت ذات الخمسة أعوام: «أنا لستُ زيزاً»، ممّا اضطر الأم ـ التي لا تبدو أكبر بكثير من كبرى بناتها «هيفين» ـ إلى التدخُّل: «ولماذا تريدين من هيْلِيْنْ أن تجلس يا روهات؟»، ثم جذبت يدَ الصغيرة في وداعة: «تعالي يا حبيبتي. أنت قمر، ولستِ زيزاً»، وأجلسَتْها في حضنها.

على مهل كان «دينو» يتّجه غرباً، عبر الشارع الطويل المشجَّر في منتصفه، والذي ينتهي امتداده الشرقي بساحة صغيرة فيها كرة اسمنتية مثقوبة تَدرُّ الماءَ على شكل نوافير، وهي محاطة بسياج حديدي تعلو حوافَه الرماحُ المسنونة تحذيراً للصِّبيةِ العابثين. وكلّما قطع الشاب، ذو العينين الخضراوين، خمسين متراً ـ على الأرجح ـ نقل المذياع إلى إبطه الآخر المبقع بعرقٍ خفيف طَفَر ظاهراً من قماش قميصه. وقد توقّف، مرّةً، لصق شجرة صنوبر غبراء يستظل بها قليلاً، واضعاً الصندوق على العشب البرّي، فيما طوّق خصره النحيل بيديه مستطلعاً ـ دون فضول ـ العراءَ الذي كان ملعباً لكرة القدم، جنوباً، ذا يوم، فيما بقيت خشبات المرميَيْن منتصبةً، بطلائهما الأبيض المهجور. والعراء، ذاك، كان مديداً قبل أن تحدّه، من الغرب، أسوار حديقة عامّة نمت أشجارها سريعاً. وبعد ذلك ـ بأعوام قليلة ـ انبثقت كتلة هندسية من الإسمنت، شرقاً، خشنة الجدران، مضاءة ليلاً من الخارج على نحوٍ يؤنسُ، سمّوها «مبنى البريد» الجديد، بدلاً من مبنى بريد سابق كان سرّياً على الأرجح، فصناديق البريد، القليلة، الملتصقة بجدران مكتبات التي تبيع القرطاسية، كانت تكفي الناس، الذين لم يتعوّدوا تلقي الرسائل، أو [illegible]

حمل «دينو» مذياع أبيه، من جديد، مكملاً سيره، وبه فضول خفيف على اختفاء «مَمْ» ذلك الصباح. إذ ليس من عادة أخيه الكسول أن يغيب عن البيت باكراً، وعن إفطاره بخاصَّةٍ، حيث عليه أن يعيد على مسامع «دينو» تذمُّره المعهود، وهو يلقي بنظراته على أمه التي تتجاهله: «هل صنعوا هذا الخبز من القنّب؟ إقطعْهُ بأسنانك، بالله عليك»، ويمدُّ الرغيف إلى «دينو» الذي يُريهِ أنه يحمل في يده من الخبز إيّاه: «معي يا مَمْ؛ معي من خبزك». ويعود «مَمْ» فيرفع كأسَ الشاي الشفيف إلى مستوى عينيه: «أترى يا دينو ما أراه؟ إنهم يغلون مع هذا الشاي قليلاً من التراب». لكن «دينو» يخفّف عليه: «ليس عَكِراً يا مَمْ. أنت تبالغ»، ويرفع كأسه في اتجاه ضوء الباب: «انظر إلى كأسك في مواجهة الضوء يا مَمْ. أترى؟ ها؟ إنه رائق»، فيقاطعه «مَمْ»: «أنت لا تعرف طعم فمك، وبصرك يخفُّ»، فيبتسم «دينو» هامساً: «ذلك أفضل. سآكل دون تذمّر، في الأقل».

غير أن «دينو» نفسه لا يخلو من وَغْلٍ في مزاجه الصباحي أحياناً، وهو مزاج يكاد ينسحب على العائلة، التي تُقْدِم على نهارها ـ أبداً ـ بشيء من القلق، بالرغم من أنَّ ما مِنْ باعثٍ واضحٍ يُغذِّيه. فالأمور ميسورةٌ، بعامّةٍ، في المنظور القريب، والبعيد أيضاً، والـرّاهـنُ في عافيةٍ. لكن الغَيْبَ في الجيوب، والكـلُّ يُدْخِلُونَ أيديهم في جيوبهم يسحبون حفنةً منه: «حمدي»، و«مَمْ»، و«دينو»، و«كُنْبُو»، و«هيفين». أمّا الأخريات فهنّ مقبلات، بدورهنَّ، على ما يشبه هذا. ولطالما ردّدت الأم ما لا يردّده الأبُ، مثلاً، لكن يرضيه أن يسمعَ: «لا تضحكوا كثيراً. الضحك مَجْلَبَةٌ للفجيعة»، فيضحك منها «مَمْ» ضِحْكاً مُجَلْجِلاً: «تعالي.. تعالي، واجلبي معك شهادة من جامعة حلب»، وهو يشير إلى الفراغ الذي قد تنزل منه الفجيعة بحبلٍ من شَعْر الماعز.

إن ما سيحمله الغدُ هو، يقيناً، ما كان سيحدث اليومَ، وقد تأجّل: ذلك هو نذير أعماقهم الساخر، هذا إذا جرى حسابٌ مّا يضيفه «حمدي» إلى قلق العائلة: «ثلاثة أمور تحيِّر. واللّهِ..»، يقولها لزوجه التي تلتهم التبغ في شراسة ووداعةٍ معاً، ويقولها لجلسائه المتأمّلين، مضيفاً: «الموت، والكون، والإنسان». ولربّما ردّ عليه واحد ممن تفتحت له بعض المدارك بين يدي الفقهاء الأمّيين: «إنها لا تحيّر يا حمدي: الموتُ هو قضاء الله،

والكون معجزتُهُ، والإنسان ـ أنتَ تعرفُ ـ سيدفع الحساب حتى آخر شعرة في إليتِهِ»، فيضحك الحاضرون، بينما يكرر «حمدي» جملته: «مع ذلك فهي تحيِّرني».

لا يحبُّ «دينو» الإنصات طويلاً إلى المذياع، الذي لا يكفي خمسون جهازاً ناطقاً من نوعه لتلبية فضول مساء واحد من مساءات «حمدي»، وهو ينقل المؤشّر بين المحطات، ويتأفّف من قلّة نشراتها الإخبارية. و«مَمْ»، بدوره، غير منجذب إلى آلة أبيه الناطقة. لكن «هيفين».. ويبتسم «دينو» السائر على مهل صوب البيت. فأخته المنكبّة، في دأب لا ينقطع، على قصة العاشقَيْن «مَمْ وزِينْ»، التي كتبها قبل بضع مئات من السنين الكرديُّ أحمد خاني، تشارك أبيها التنقيب عن مذيع منسيٍّ بين الأرقام الصغيرة للمحطات، وتجلس ضامّةً فخذيها إلى صدرها وقد طوّقتهما، تماماً كما يفعل «حمدي». وقد تقاطعه بين وقت وآخر بكلمات لا تزيد ولا تنقص: «أهُمْ يتحدّثون عن كردستان يا أبي؟»، وهي تعني المذيعين، فيردُّ الأب مُغَمْغماً: «ليس بعد. ليس بعد». ولا يعرف «دينو» لماذا تسأل أخته سؤالاً كهذا، بعينه، وهي التي لم تسمع، من قبل، ذِكْراً لكردستان في إذاعات أبيها. غير أنه يحبُّ ـ على نحوٍ مّا ـ ذلك التّرقُّبَ الأليفَ الذي يصاحب سؤال أخته. وهو ترقُّبٌ تحمله «هيفين» طوال يومها، وربّما في النوم أيضاً، كما يظن «دينو». ولربّما عمد إلى تأجيجه أكثر باعطاء أخته لفافات تبغ، سرّاً، بالرغم من أنه لا يدخّن، فيستحيل ذلك الترقُّب الأليف إلى ذهولٍ خَفِرٍ يشوبه الإمتنان في عينيها المبتسمتين، المبتلتين. و«دينو» يمتعض من «مَمْ»، الذي يدخن بشراهة مثل أمه، حين يقسو على أخته إذا رأى لِفافةً بين أصابعها، فيمرُّ «دينو» بها، وهي منكسرة قليلاً، فيحرِّضها على إعادة قراءة قصة «مَمْ وزِيْن»، بقصد مليء بالدّعابة، لأن العذابات التي تحلُّ بـ «مَمْ»، الذي في الحكاية، كفيلة بشفاء غليل الأخت. ولربّما استمرّ «دينو» في دعابته حتى تنفجر أخته بالضحك على مرآى من أخيه: «أشكري أباكِ. لو لم يسمِّه مَمْ لَمَا تشفَّيْتِ منه». وهو يعمد، أحياناً، إلى الإسراع إلى الكتاب الصغير فيقلب صفحاته على عجلٍ، بطريقة تهريجية: «أين وضعوا الشمعة؟.. أين.. أين.. ها. هنا»، ويرفع «دينو» يده مشيراً بها إلى كتف «مَمْ» الذي يتجهّم قليلاً، دون غضب: «هنا. نعم. حفروا في اللحم مكاناً للشمعة»، ويجذبُ «مَمْ» من كتفه، واقفاً على أطراف أصابع

قدميه: «دعني أشمُّ اللحم المحترق». ويهتف: «هيفين. تعالي» فتضحك الأخت من غير أن تتقدَّم، بينما يستمر «دينو» في لعبته: «هاتي لِفافة تبغ لنشعلها من هذه الشمعة قبل أن تنطفىء».

بالطبع يجد «دينو»، وسط مزاحه الخفيف، بواعث تحفزه إلى مساءلة أخته «هيفين» عن استرسالها في قراءة هذه القصة، التي ألهمت «حمدي» اسم ابنه، مراراً:

«هل تقرأينها نكاية بـ «مَمْ»؟ يسألها، فتجيبه:

ـ أوه. أنا أحب «مَمْ»، لكنني لا أحبّ اسمه.

«إذن، تقرأينها نكاية باسمه» يقولها «دينو» مبتسماً، فترد «هيفين»:

ـ أقرأها، مراراً، نكاية بـ «زِيْنْ».

«نكاية بـ «زِيْنْ»؟»، ويرفع «دينو» يديه مستوضِحاً: «ما الذي فعلَتْهُ المسكينة؟»، فتلوي أخته شفتها:

ـ مسكينة؟!

«ألا ترينها مسكينة؟» يسأل «دينو» أخته، مضيفاً: «مسكينة جداً لتحبَّ هذا القرد المدعو مَمْ». فتستوقفه «هيفين»:

ـ أترى؟ غشَّتْكَ أنتَ أيضاً.

«ولماذا تعيدين قراءة هذه الحكاية إذا كنتِ ترين فيها كلَّ هذا الغشّ يا أختي؟» يسألها «دينو»، فترد «هيفين»:

ـ أقرأها ـ قلتُ لكَ ـ نكايةً بـ «زِيْنْ».

وهنا يعمد «دينو» إلى مجاراة أخته في حوارها الأقرب إلى المداعبة:

ـ متى اكتشفتِ أنها تغش؟

فتردّ «هيفين»:

ـ منذ اختارت أن تُحبَّ «مَمْ».

«وما وجه المكيدةِ في أن تحبَّ «زِيْن» شخصاً مثل «مَمْ»؟»، يسألها «دينو»، فتردُّ أخته:

ـ أعني ـ صراحةً ـ أنها لم تحبَّ «مَمْ» بل تصيَّدتْهُ لسذاجته، ولأنه الوحيد الذي

يقبل أن يتعذّب إلى هذا الحدّ من أجل عينيها.

«الحق على أحمد خاني الذي ألّف هذه الحكاية يا أختي»، يقول «دينو»، فتردُّ «هيفين»:

ـ أنا، من جهتي، أُذكّر «زِيْنْ» أنني أعرف لعبتها.

فيضحك «دينو»، ويقول مجارياً أخته في المرح الذي يشملُ الموقفَ: «وما الذي يهمّها إن عرفتِ لعبتها؟..»، فتقاطعه أخته:

ـ تغتاظ.. «زِيْنْ» تغتاظ.

ربما تستطيع «هيفين» بحقٍّ، أن تُغيظَ العاشقةَ الصغيرةَ «زِيْنْ»، المتهاديةَ بجَلَبَةِ حليِّها وأثوابها بين صفحات الحكاية، حيث المكائد التي لا تنتهي، والزفرات التي تقرع الحروف بأيدٍ تكادُ تُرى. لكن «دينو»، الذي يتقدّم متأبطاً مذياع أبيه صوب البيت، يرى ثلاثة مغتاظين من أدوارهم: «زِيْنْ»، و«مَمْ» ـ شابّ الحكاية، وأخته «هيفين». ويتداعى فكره إلى أخيه «مَمْ» أيضاً، وهو ينقل المذياع من إبط إلى أخرى في برهةِ وقوفٍ صغيرة. فمذ أخبر «قادِرْ خَمُّو» ـ وهو من زائري بيتهم الليليين ـ الأبَ «حمدي» أن ابنَه «مَمْ» يشبه «اسماعيل آغا سمكو»، رئيس قبيلة الشِكاك في مطالع القرن العشرين، والأبُ يعدُّ ابنَهُ لقَدَرٍ آخر، معجون بأيدٍ كثيرة في معجن حجريٍّ، ومخفوقٍ كالبيض الذي سيُصْنَعُ منه كعكُ العيد اليابس على طريقة «كَسِبُو».

و«قادِرْ خَمُّو» يحفظ في جيب سترته الداخلية، أبداً، صورة باهتة تداخَلَ بياضُها بسوادها، وفيها ثلاثة رجال، اثنان واقفان، متمنطقَيْن أحزمةً ملآى بالطلقات، فيما الثالث جالس جانبياً، على مسطبة طينية، مطوّقاً إحدى ركبتيه الظاهرة من شِقّ معطفه براحتي يديه، وهو يعتمر قبّعة فروٍ قرغيزيّة لا تشبه الحطّتين السميكتين المعقودتين على رأسي الواقفين على يمينه وشماله: «هذا هو سِمكو». أمّا الشّبه المزعوم بينه وبين «مَمْ» ففي استطاعة أيِّ شخص من الجالسِيْنَ أن يؤكّده، ما دامت ملامح الرجل الذي في الصورة تكاد تتساوى بالبياض الشاسع، البعيد، الذي من خلفها. وبالطبع يؤكّد «حمدي» ما يؤكّدهُ أيُّ آخرُ: «الجبين. نعم. والحاجبان المعقودان. نعم. هذا الانحدار في الأنف. نعم. والشفتان..»، والجواب هو ذاته، أيّ تلك الإيماءة المتكرّرة

من الرؤوس، بالرغم من أن شاربي «سِمكو» يحجبان شفته العليا، ويتّصل ظلّهما بشفته السفلى فتتداخل الملامح.

وماذا أيضاً؟ نَمَتْ لدى «حمدي»، وهو يتفرّس يوماً بعد آخر في ملامح ابنه، صلةٌ غامضة باسماعيل آغا سِمكو، القاسي، الذي سبقَ «القاضي محمد» إلى الحديث عن دولة كردية، قبل قيام «جمهورية مهاباد» بخمس وعشرين سنة على التقريب، لكنه آثر أن يصفّي حساباته مع الأقاليم كلّها من حوله، فصادم الروس، والترك، والآثوريين، والايرانيين، غالباً مرّةً ومغلوباً أخرى، كأنّما يريد كلَّ شيء، حتى تصيَّده كمينٌ في العام ١٩٣١، وهو ذاهب بانكسار كبير إلى إيران، ليعلن خضوعه.

غير أن «حمدي» يتجاهل، على نحوٍ صارم، نهاية «سِمكو»، الذي انقلب إلى ذئبٍ مُطارَدٍ بفضل حنكة «عبد الله طَهْماسَبْ»، قائد جيش «رضا خان بهلوي»، بالتعاون مع قبائل أذربيجان التركية: «كانوا يحضّرون لسِمكو تشريفاً، حين استقدموه إلى مدينة «أُشْنويَة».». والحكاية لم تكن تشريفاً بالطبع، على النحو الذي يرويه «حمدي» لنفسه، لكنْ أن تعمد الدولة التي قبلت خضوع «سِمكو»، وعودته إليها، إلى نصب كمين له فذلك ما يؤجّج مزاعم «حمدي»، ولوعته، في أنهم كانوا يخافونه. ومن يكون مُهاباً لا يذهب لإعلان خضوعه، وطلب العفو.

و «حمدي» الذي وصل إلى مخزنه، بعدما غادرهُ ابنه «دينو» بالمذياع إلى البيت، ألقى نظرة خاطفة على الجدار الذي يواجه الباب تماماً، حيث عُلّقتْ صورة كبيرة، مرسومة بالقلم الرصاص لِسِمْكو الجالس، ورفيقيه الواقفين، والمنقولة بإتقان ـ لكن بإضافة بعض الخطوط الواضحة على الملامح الباهتة ـ عن الصورة التي يحملها «قادِرْ حَمُّو» في جيب سترته الداخلية. ومن ثم استدار يميناً ليتجه إلى منضدته الصلبة المستطيلة، فقلّب عليها عيّناتِ قماشٍ يريد الباعةُ الآخرون، ذوو الدكاكين الصغيرة، لفائفَ منها. فـ «حمدي» يبيع بالجملة قماشَهُ الآتي من بيروت، وحلب، والموصل. غير أن القسم الأكبر من ذلك القماش الملفوف على خشب مُضَلَّع يجري التصريح عن مصدره للخاصَّة فقط من عملاء «حمدي»، لأنه قادم، عبر الجبال، من «تبريز» إيران، وعبر غابات الشمال السوري من «ديارْ بكرْ» و «أُضَنَةْ» التركيتين، بحذر كبير، وعَرَق

كثير، مروراً بمحطّات تتغير فيها وجوه الذين يسلّمون القماش والذين يتسلّمونه، حتى يصل إلى متنفّذين يخبّئونه في القرى المبثوثة على الشمال المتاخم للحدود التركية، ومن ثم يُوزَّعُ، محاصَصةً، على مخازن البيع بالجملة، بعد إيصالها إلى بيوت أصحاب هذه المخازن على بغال لا تتقن السّير إلاّ ليلاً، بتمهُّلٍ لا يُجْفِلُ الدجاجَ، ولا يَسْتَنبحُ الكلابُ.

أنـزلَ «حمدي» لِفافةً ثقيلة من قماشٍ مُعَرَّق عن أحد الأرْفُف، ودحرجها على المنضدة بعدما أمسك بطَرَفٍ منها، فترامى نهرٌ متماوجٌ من نسيجٍ يحنو على أَلَقِ طيّاتِهِ، تحت الضوء الآتي من الكوى العالية. ثم انحلّتِ اللّفافةُ الثخينةُ، رويداً رويداً، وهي تدور على نفسها كلّما رفع «حمدي» مِتْرَهُ الحديديَّ وخَفَضهُ، منكبّاً على قياس طولها. وفيما كانت اللّفافة المعرَّقَةُ تزداد نحولاً على مركزها الأسطوانيّ في جهةٍ، كان القماش يتراكم ويعلو، في فوضى، على الجهة الأخرى من المنضدة، فيغري بالسباحة فيه، تماماً كما كانت بناته يسبحْنَ في الصّوف الذي تُمَدِّدُهُ أُمُّهنّ على الأسِرَّة الكبيرة في ساحة البيت، خائضاتٍ فيه كأنما يَخُضْنَ في ماءٍ، وهنَّ يرشُقْنَ به بعضهنَّ بعضاً، أو يقذفْنَهُ كراتٍ إلى أعلى ويتلقَّفْنَه، بالرغم من صراخ أمهنَّ التي لم تنتهِ من حَلْجِ ذلك الصّوف الذي تنشّفه في الشّمس. وهي تغسله وتحلجُه حتى إذا حَشَتْ به لُحُفَها وفُرُشَها عادتِ اللُّحُفُ والفُرُش ثخينةً نابضةً بالليونة، منتفخةً تغري بالسباحة عليها، بدورها.

توقّف «حمدي» مرّةً، أو مرتين، عن الاستمرار في قياس القماش بمتره الحديدي الصُّلب، ذي الرنين في اصطدامه بخشب المنضدة، متفكّراً في غياب ابنه «مَمْ» الفجائي ذلك الصباح، وهو يكاد يجزم لنفسه أنه سمع حركة نزول ابنه السُّلَّمَ في الليل، لكن نعاسه كان أكبر من أن يرفع رأسه عن المخدّة ليستطلع تلك الحركة، فأغفى على شخير زوجه «كسبو» غير المزعج. ويستطيع «حمدي»، على أية حال، أن يجاوزَ حتى التفكير في غيابٍ لا يثير قلقاً كغياب ابنه عن موعد صباحيٍّ، لكنّه الفضولُ، لا غير.

«كردستان لا تحتاج إلى جواز سفر». هذا ما يقوله «حمدي» لنفسه أمام قماشه المتراكم. وقد هيَّأ الرجلُ، في أعماقه، ما يدفع بابنه «مَمْ» إلى الهواء الممزَّق في كردستان، بعد اغتيال ثورة الملاّ البرزاني، كأنّما يكفي «حمدي» أن يضعَ في يدي «مَمْ»

مسلَّةً، وخيطاً متيناً من قنَّبٍ، أو من شعر ذيل الحصانِ بعدما فُتِلَ بالشمع الصّرف، ويقولَ له: «هيّا. رتِّقِ الهواءَ يا بني»، فينكبُّ الشاب رَتْقاً على الهواء الممزَّق كستارةٍ في أفق أبيه «حمدي».

ولِمَ لا؟. ألا تبدأ الأمور، في مكان مّا من الأرض، على هذا النحو؟ كلُّهم بدأوا أدوارهم بكلمـة أو بطلقة، فماذا ينقص «مَمْ»؟ «إنه متعلِّم، فهيم»، يردّد «حمدي»، ويضيف: «كردستان لا تحتاج إلى جواز سفر»، حتى لكأنَّ كردستان أقرب إليه من جامعة حلب التي تلزمها أوراق ثبوتية لا حصّة لحمدي فيها لدى دائرة النفوس، وهي أوراق باتت أكثر وطأة، يوماً بعد يوم، مذ أنهى إبناه دراستهما الثانوية بأوراق آنيّةٍ قُبِلَتْ على عواهنها. أمّا التفكير في إرسالهما إلى الخارج، كما فعل بعض جيرانه في الحيِّ، فما من سبيل إلى ذلـك إلاّ عبـر أدغال، أو جبال، حيث النّجاةُ وحدها هي جواز السفر. أما «مَمْ» المعنيُّ بخطط أبيه، فكان ساهماً عنها، يأخذها على ثِقَلٍ يشبه الخِفَّة، وينصت إلى أقوال أبيه كإنصاته إلى حكاية. أما حين يدور جدل بين أبيه وأخيه، أو بين أمّه وأخواته وبين الأب من جهة أخرى، عنه، فإنما يقف على الحياد، مبهوراً من أن يكون هو سبب كلّ هذا الاهتمام: «يا أبي، أتريدني ـ حقاً ـ أن أذهب إلى كردستان؟»، فيجفل الأب مجيباً: «عَمَّ كنا نتحدث، إذاً، كل هذا الـ. . .»، فيقاطعه «مَمْ» مُطَمْئِناً: «أردتُ أن أتأكد فقط»، ويبتسم، فيعبس «دينو» من اللامبالاة التي تلفّ أخيه في كل موقف يتعلق به، ثم يدخل في جدال خفيف مع الأب الواثق.

«وما الذي سيفعله مَمْ في كردستان، يا أبي؟» يسأل «دينو» أباه، فيردّ «حمدي»:

ـ ما الذي سيفعله؟ سيفعل ما يراه مناسباً.

«ألا يستطيع أن يفعل شيئاً مناسباً هنا؟»، يسأل «دينو» أباه من جديد، فيجيبه ذو الشاربين الكثّين:

ـ بالطبع، لذلك يستطيع، أيضاً، أن يفعل شيئاً مناسباً هناك.

«لكن الأمور تختلف يا أبي بين هنا وبين هناك»، يقول «دينو»، فيهز الأب رأسه موافقاً:

ـ نعم. أنا أعرف. وأنت تعرف. ومَمْ يعرف. وأمّك تعرف. . .

فيقاطعه «دينو»: «وأخواتي يعرفن أيضاً. لكنني يا أبي أعني..»، فيقاطعه «حمدي» بدوره، منادياً «مَمْ»:

ـ مَمْ. تعال، وقُلْ لأخيك ما الذي ستفعله في كردستان.

فيتقدم «مَمْ» خطوةً، أو يتحدث من مكانه إذا كان جالساً: «هناك أشياء كثيرة سأفعلها»، فيكتفي الأب بهذا المقطع من جواب ابنه: «أرأيت يا دينو؟ أسمعت؟».

كان «دينو»، الذي يتقدم بالمذياع تحت إبطه صوب البيت، يسأل نفسه عن هدوء أخيه غير المعهود، وبخاصة حين تتعلق الأحاديث بسفره إلى كردستان. وهو يعرف أن «مَمْ» العصبي، الذي يحتدم عادةً دون مبرّر، ليس على ما يرام، أو يستعذب اللعبةَ على هذا النحو ليغيظ أحداً مَا ربّما هو أمُّه، أو «دينو» نفسه. لكن المسألة كبرت، قليلاً قليلاً، واستأثرت بجو البيت كلّه، حتى أن الصغيرة «هيلين»، ذات السنوات الخمس، كانت تقف أمام «مَمْ»، كلّما همَّ بالخروج من البيت، سائلةً: «ماذا ستُحْضِر لي من كردستان؟»، فيمسك «مَمْ» بشعرها القصير، ويعبث به: «سأحضر لك جديلة طويلة جدّاً يا أختي»، فتفترُّ شفتا «هيلين» عن أسنان أمامية ناقصة. غير أن الصغيرة، نفسها، تجاري «دينو» حين يكون في حوار مع أبيه عن «مَمْ»، فتلقي بجسدها المستدير على كتف «حمدي»، واللعابُ يرطِّب فمَها: «سأرسل معه دميتي إلى كردستان»، فيردّها الأب عنه ردّاً خفيفاً بذراعه. وهو يكمل حديثه مع «دينو»، لكن الصغيرة تلقي بنفسها عليهِ من جديد، فيميل في جلسته، بينما تثرثر هي: «أرْسِلْ معه دميتي يا بابا»، فيسايرها الأب دون التفات إليها: «سأرسل دميتك معه. اجلسي»، فتستزيده «هيلين» عندما تجد منه تجاوباً: «وأنا أيضاً يا بابا»، فيردّها الأب عنه، ثانيةً، وهو يهمس: «وأنتِ أيضاً». فتسترسل الطفلة: «سأخبزُ له»، فيتمتم الأب: «اخبزي له». فتهزُّه «هيلين»: «تعالَ أنت أيضاً معنا يا بابا»، فينهرها الأب: «ابتعدي عن كتفي، لقد تكسَّرت من صدماتكِ». عندئذٍ ترتد الطفلة عنه غاضبة فتتعثر لتسقط على مؤخرتها، لِيُلَعْلِعَ صوتها باكياً، فيتلفّت الأب من حوله بصبر نافد: «أليس هنالك من يردّ هذا الغول عنا؟». فتنادي الأم الجالسة في ركنٍ مَا، بصوت مُدلِّلٍ: «تعالي يا روحي. أبوك غول»، فتجرّ الطفلة نفسها جرّاً، دون أن تقوم، ولمّا تصل إلى أمها ترتمي في حجرها وهي تنشج.

خرجت «هيفين» من داخل البيت، بعدما أنهت تدخين لِفافتها، وهي تسأل الحلقة الصغيرة المكوّنة من أمها وأخواتها الجالسات قرب العتبة: «ألم يصل المذياع بعد؟»، فصرخت الصغيرةُ «هيلين» بها: «إنه ليس لك»، فهدَّأتها الأمُّ: «إنه لك، وليس لأحد آخر غيرك، يا كنزي»، فهدأتِ الثرثارةُ.

شجرتا الكينا الضخمتان كانتا تلقيان بظلٍّ كثيف على سرير الأب الخشبيّ، المنتصب في الساحة، على مبعدة من سرير العائلة الضخم، الواسع كسطح بيت، والذي يُرْتَقى بسُلَّم ذي أربع درجات عريضة، فيما كانت عصافير كثيرة تسرق الحَبَّ المتناثر حول أكياس قمح تربو على الخمسين، رُكِنَتْ لصق سور الساحة الغربي، الذي عَلَتْهُ دجاجة أقبلتْ من جهة الجيران، إذ لا دجاج في بيت «حمدي»، فالأمِ اكتفتْ بـ «دجاجاتها» هذه، أيْ بناتِها ـ كما تسمِّيهنَّ. أمّا حقل زهور «كسبو»، المسيَّج بعيدانِ قصبٍ وبعض الحجارة المركومة بعضها فوقَ بعض، فكان يضجُّ بطنين النحل، أكثر فأكثر، كلَّما عَلَتْ شمس الصباح من فوق الأسطحة المحيطة بساحة الدار. والحقل ذاك، الذي ليس حقلاً على وجه التحديد، عشرة أمتار طولاً بعرض مترين، في الجهة الشمالية من الساحة، وفيه خليط مما تيسّرَ من بذورٍ ومن شتلٍ ترعرعَ متنافراً، فانبثقت أزهارٌ نصف بريّة، ومُوَلَّدةٌ، ومنزليّة، عالية وقصيرة، يتفتّح بعضها مع المغيب وينام نهاراً، ويسند بعضُها ذو السيقان المنتصبةِ بعضَها الآخرَ الرّخوَ المائلَ. فيما أشكالُ تيجانها تتفاوت بين ما هو قُمْعِيٌّ وما هو حَدَقيٌّ، بألوان زاهيةٍ او مُكْمَدَّةٍ، صِرْفَةٍ أو مَشُوبةٍ. و«كسبو» تمنع أيّاً كان من الاقتراب من حقلها المُشْتَبك كالدَّغل، لأنّه لنحلها وحده، الذي يحوم في خيلاء، وبَطَرٍ، من فوق الأكمام المُحْتَقِنَةِ لأزاهير الصَّيف الشهوانية، فلا يرجع إلى قُفْرانه إلاّ محمولاً بكراتٍ صفراء من الجَنَى، ملتصقة بزغب قريب من ملتقى أجنحته بالأجسام.

كانت لدى «كسبو» ثلاثة قُفرانٍ اشترتها قبل ستّة شتاءات، حين كان النحل القليل الذي فيها يقضي فصله البارد في الداخل، متغذياً من بقايا عسل تُرِكَتْ له. فبنتْ في الزاوية التي يؤلّفها ملتقى السور الغربي بالجنوبي، كوخاً من الطين ذا بابٍ واطىء، وكوّة كبيرة تظهر منها رؤوس قُفْران النحل. وفي الربيع الذي تلا شتاءها ذاك حرثَ لها ابن

اختها «جُوْمَرْدَة»، بمعزقٍ حديديٍّ، قطعةً صغيرة لا تتعدى المترين المربعين من الأرض، لصق الكوخ، لتصير حقلَ زهرٍ فيما بعد. وما أن انتصف الصيف حتى صار لها خمس قُفْرانٍ، وفي نهايته ارتفع العدد إلى سبعة.

كانت المرأة تحشو قُفْران نحلها، كلَّ شتاء، بمؤونة كبيرة من التمر، ثم تغلق منافذها الصغيرة بالطين ـ بالرغم من أن النحل نفسه يغلق منافذ خروجه ودخوله بالشمع ـ زيادةً في الحرص على دفء تلك الأسطوانات الطينية. وفي كل يوم تضع أذنها على أحد تلك القُفران تستجلي الهسيس الهادىء في داخلها، فتتأكد من أن الحياة تتمطى، في كسل، بين قشورِ تَمْرِها الحلو.

كالعناقيد، كلَّ صيف، كانت القبائل المطرودة من النحل ـ بعد أن تهزم ملكاتٌ ملكاتٍ أخرى في القَفيرِ الواحد ـ تتدلّى من أغصان شجرتي الكينا، فتأتي «كسبو» بقُفران جديدة، موجِّهة فوُّهـاتها إلى عناقيد النحل المتكوِّم بعضه فوق بعض طبقاتٍ كثيرةً، وتصير تقـطفه قطفاً بيديها الملفوفتين بقماش سميك، حفنةً حفنةً، وتضعه في بيوته الأسطوانية الجديدة. وكثيراً ما كانت الأسراب المهزومة، التي تحوِّم طويلاً في ساحة البيت على شكل زوابع، لا تحطّ على أغصان شجرتي الكينا مثلاً، مما ينبىء أنها قد تبتعد إلى أماكن لا يمكن اللحاق بها، فتعمد «كسبو» وبناتها، معاً، إلى القرع على الطناجر، فتنحدر تلك الأسراب إلى أقرب موضع من الصوت، لتلتمّ على أيِ شيء، أغُصناً كان أم خشبةً منصوبة، أم عارضةً بارزة من مكانٍ مّا، متهيِّئةً لزوج «حمدي» التي تلتمع عيناها ببروق ناعمةٍ من الرِّضا.

عمدت «كسبو» إلى توسيع كوخها المخصص للنحل بعد ثلاث سنين، إذ بلغت القُفران الأسطوانية، التي تصنعها هي بنفسها من التراب الأحمر الممزوج بالشَّعْر وبالقش، ثلاثةً وعشرين، يعلو بعضها بعضاً على شكلٍ هَرَميٍّ. وكان يُجْهِدها أن تجني العسلَ بنفسها من كلِّ هذه القُفران، ويضيق صدرها بالدّخان الذي تطرد به النحل خارجاً لتستفرد بأقراص العسل. فهي تضطر إلى جعل روثِ البهائم ـ المجبول على شكل أسطواناتٍ سميكةٍ ـ رطباً، حتى ينبعث دخانُ حريقهِ أكثر كثافةً، فيتسنى لها فَتْحُ القُفران على مهلٍ، دون خوف من اللَّسع، والطنين الغاضب. وقد أدرك ابن أختها «جُوْمَرْدَة»

ضِيْقَ خالته أمام ما صارَ لها من نحلٍ، فعرض عليها أن ينقل القفران إلى ضَيْعتهم «هَرَمْ رَشْ»، ليتعهَّدها بنفسه، مقابل حصّة من العسل، فوافقتْ.

بعد ثلاثة شتاءات من شراء «كسبو» ثلاثة قفران، جاءت عربة خشبية، ببغلين، ذا صباح بارد، فحملت ثلاثة وعشرين قفيراً ملفوفاً بأكياس خيش، إلى قرية «هَرَم رَشْ» التي لا تبعد كثيراً عن مدينة القامشلي، ليصير النّحل في عهدة الشاب المتزوّج حديثاً، ذي الجلباب المطوّق بحزام عريض، والحطّة التي تبقى مرتخية حول عنقه من فوق كتفيه الضيِّقتين، والذي لا يتحدث إلاّ مُغمضاً عينه اليمنى دون إغلاقها، كأنما يقيها من بريقٍ يترقّبُ سطوعَهُ.

في الشتاء الرابع كانت حصّة «كسبو» لا يستهان بها، لكنها لم تكن بمقدارٍ مأمول. وبالرغم من ذلك أخفتْ أيّ تذمُّرٍ، فالشاب هو ابن اختها على أية حال. أما الشتاء الخامس ـ الذي فتحتْ فيه صفيحتي العسل اللتين وصلتاها، وتذوَّقته فألفتْ طعمَ الدِّبس الرخيص، والسّكر، غالباً على طعم الشّهد ـ فقد حمل إلى شراكة الخالة وابن اختها انفجاراً مُحَتَّماً، فاستعادتْ «كسبو» قُفراتها الثلاثة والعشرين فقط، بعدما أقسم الشاب أعظم القَسَم أن النحل، الذي كانت ملكاتُهُ تطرد ملكاتِهِ، يهرب حتى يجاوز الحدود التركية، فلا يستطيعُ اللّحاقَ به. وفي يومها ذاك، الذي كانت تنتظر فيه، مع بناتها، وصول المذياع الجديد ـ أيْ في الصّيف الذي أعقبَ الشتاءَ السادسَ على امتلاكها نَحْلَها المُدَلَّلَ ـ لم تفارق عينها كثيراً الكوخَ القابعَ في الزاوية، حيث الكوَّة الكبيرة كرحمٍ من طين، وقد أطلّ منها، في وداعة، ثلاثة وعشرون جنيناً أسطوانياً، لكل واحدٍ عينٌ واحدةٌ مزوَّقةٌ بالشمع على دائرِها، والنحل يدخل ويخرج عجولاً تحت بصر «كسبو»، كأنّما يحاول إرضاءها، فترضى.

حين أكملت «كسبو» حلقةَ بصرها ما بين كوخ النحل وحقل زهورها، في افتتانٍ، لكزتْ أقرب بناتها إليها، وهي تشير إلى الدجاجة التي علَتِ السّورَ: «أطردي هذه الفاجرة»، فهُرعتْ «رحيمة» ذات الساقين الطويلتين تتسلق أكياسَ القمح المُنَضَّدَة بعضها فوق بعض، كالسُّلَّم، صارخةً: «كش ش ش»، فارتفعت الدجاجة شبراً عن السور من ذعرها، ثم أقعتْ مختنقةَ الصوت، ثم قفزت طائرةً في ثِقَلٍ، فتناهى صوت

ارتطامها بالأرض، في الجهة الأخرى من السور، إلى سمع «كسبو».

«منذ اليوم ستساعدينني يا «ولاتْ» في جني العسل»، قالت «كسبو» لابنتها ذات الستة عشر صيفاً، وتأمّلتها وسط أخواتها اللواتي لم يبد عليهن أنهنّ حَسَدْنَها، فابتسمت الفتاة من سحر المغامرة ـ وهي الأكثر خفراً وهدوءاً بين أخواتها ـ بغطاء رأسها المُنْسَلِتِ إلى الخلف عن شعر خرنوبيٍّ متماوجٍ في رقّة. وقد أضافت «كسبو» إلى كلماتها تلك كلمات أخرى مشجّعة: «سترين. جني العسل مثل التطريز، وأجمل ما فيه أن لا تكسري القرص»، وزيادةً في الإغراء أضافت: «سأشتري لك قفازاً من الجلد. لن يَمَسُّك النحل». فتدخلت «هِيْلِين» الثرثارة بمقاطعتها المعهودة: «أنا أريد قفّازاً، أيضاً، يا أمي»، فاحتضنتها «كسبو» وهي تعتصرها دون أن تؤلمها: «نعم يا روحي. وسأشتري كمّامة لفمك الصغير»، فأفلتت الصغيرة نفسها، واحتوت رأس أمّها مداعِبَةً، فانحسر غطاء رأسها جارفاً العصابةَ الموصِلِّيَّةَ الحمراء عن شعرها المجدول جديلتين كبيرتين، على جهتي مفرقٍ مستقيم وسط جمجمتها الصغيرة.

كانت رائحة العسل تتمدّد مع اتساع الرقعة التي تقتنصها الشمس من ساحة الدار، ملتصقةً أكثر فأكثر بالهواء الساخن لِما قبل ظهيرة ذلك اليوم. وكانت رائحةً نفّاذةً، ودبقةً في الآن ذاته، ذات أرجلٍ خفيّة تتسلّق بها عوارضَ السقوف الخشبية، والأسِرَّةَ، وأوراقَ شجرتي الكينا، وحجارةَ البئر القريبة من البوابة، والدَّلْوَ المطاطيَّ الضخم، وأسواقَ الأزاهير، قافزةً كالجنادب إلى داخل الغُرف لتندسَّ بين طيات اللُّحفِ وأغلفةِ الوسائد المزركشة برسوم لها هيئاتُ فهودٍ، ونَخَامٍ، وطواويسَ، وسيوفٍ متلاحمة، وورودٍ لكلِّ ورقةٍ فيه لونٌ. فكان في مستطاع «كسبو» أن تحلّق في تلك الرائحة، لتشرف من الجهات كلّها على شؤون الدار وخَلَجاته. لكن، لم تعرف ـ هي بدورها ـ الحكمةَ الكبيرة في قرار «حمدي» إرسالَ ابنه «مَمْ» إلى كردستان، التي تبدو غامضة لـ «كسبو»: إلى كردستان التي هي اللامكان، وكلّ مكان، بحسب ما يشير «حمدي» إليها في خريطة تعود إلى العام ١٩٤٦، كما رسمها أتباع «القاضي محمد»، رئيس جمهورية «مهاباد» الكردية، ذات العواصف الألف.

«ما الذي سيفعله مَمْ في كردستان يا حمدي؟»، تسأل المرأة زوجها وقد تأمّلت

محيّاه، فيردّ «حمدي»:

ـ اسمعي يا أمّ العيال، أنتم تكثرون الأسئلة هذه الأيام. لكنني أقول لكم جميعاً، بصراحة، إن المسألة لا تعجبني.

تعود «كسبو» إلى طرح سؤالها المُغلّق بنبرةٍ فيها توسُّل: «حمدي.. ليس في حارتنا، وفي الحارات الأبعد، من أرسل ابنه إلى كردستان..»، فيقاطعها زوجها:

ـ أنتِ لا تعرفين. أنتِ لا تعرفين.

«وما الذي لا أعرفه يا حمدي؟»، تسأل المرأة بَعْلها من جديد، فيتكىء «حمدي» بمرفقه على وسادة، رافعاً وجهه إلى زاوية مَا من البيت متأمِّلاً:

ـ سترَيْن يا امرأة.

وتنتظر «كسبو» أن يشرح زوجها ما الذي ستراه، لكنه يستسلم لسَرَحانه، فتُشعل لفافةَ تبغٍ تنفخ دخانها وهي مطرقة:

ـ يا حمدي.. من سيهتم به هناك؟

فيردّ «حمدي» بافتراضٍ بسيط: «سيهتم بنفسه يا كسبو. كل الذين في كردستان يهتمون بأنفسهم. وابنك سيكون له شأن. أرى ذلك على حَدَبة أنفه». ويتوقف ليستذكر أبياتاً من شِعْر كرديٍّ حفظها قبل أيام، بحروفها اللاتينية، التي أجْهَدَ «قادِرْ حَمُّو» ـ الذي يحمل أبداً صورة سِمكو آغا في جيب سترته ـ نفسَهُ في تدريسها لحمدي ولآخرين من زوّاره الليليين، سِرّاً. فاللغة الكردية ممنوعة، و«رَمُّو كُرِيْفْ» ملقى في سجن «الحَسَكَة» لأنه اقتنى كتباً بالكردية في الصَّرف وفي التفسير، فوشى به جاره السرياني المُنْتَظِم في صفوف الحزب الذي يحكم البلد. وهم ينقلون السجناء السياسيين الأكراد، عموماً، المعتقلين بتهمة التكتُّم على النوايا المريبة، من منطقة القامشلي إلى محافَظَة الحسكة، بعيداً عن الحدود مع تركيا، التي تشكل مكاناً مشتبهاً فيه، مريباً، بالرغم من محاولات نقل البدو العرب إليه، وإثراء نفوذ قسم كبير من السريان كضمانٍ لمراقبةٍ أكثر فعالية، على الكرد وغيرهم معاً، لحماية الحرية ـ المشاعةِ كالكَلإ ـ من الدُّهماء والمزعجين.

كانت «كسبو» ـ المحاطة ببناتها المنتظرات، بدورهنّ، مذياعَ أبيهنّ قرب عتبة الباب ـ التي طردت ذبابةً لحوحةً عن وجه الصغيرة «هيلين»، تحاول أن تطرد، بالطريقة

ذاتها، فضولَها الخافتَ: «أين مَمْ؟». وهي لم تردِّد السؤالَ كثيراً على نفسها، أمام إلحاح صورة زوجها «حمدي» على فكرها، وهو يبالغ في إبداء حَذَرِه حين يأتي بأشياء ملفوفة فيضمُّها إلى حوائج أخرى في أكياسٍ يحفظها في غرفة الضيوف: «قد يحتاجها مَمْ يا كسبو»، يقول لامرأته التي ترى تلك الأكياس تزداد انتفاخاً، فتهزّ رأسها غير مقتنعة: ومن الذي سيحملها يا حمدي؟»، فيغمزها زوجها: «لا تهتمي يا امرأة. سنتدبَّر ذلك». لكن «كسبو» تظل غير مقتنعة، ويُريبها انكبابُ «حمدي» على جَلْب قطع كثيرة من الأقمشة: «لمن هذه يا رجل؟ أهُمْ عُراة في كردستان؟»، فينظر إليها الرجل نظرةَ إشفاق: «ليس ضرورياً أن يكون المرء عارياً ليحتاج إلى المزيد من القماش، يا امرأة».

دون قصد من «كسبو» كانت أصابعها تتلمَّس مريولَها المقصَّب، ومن ثم ينحدر بصرها إلى حيث أصابعها فتتأمَّل العروقَ المتوازيةَ، النافرةَ في قماش المريول، من حول ورقاتِ وردٍ مقصَّبة بخيوط فضّية. وإذ ترفع بصرها، ثانيةً، إلى ساحة الدار تلمحُ القماشَ يزحف كأفعى من باب غرفة الضيوف، حيث يخزِّن «حمدي» لابنه متاعاً كثيراً، وينزلق على حصى الساحة متجهاً صوب شجرتي الكينا فيتسلَّقها، مغلّفاً جذعيهما، ثم يتمدّد القماش ـ ذو الأزاهير، والخطوط، والمثلثات، والمسنَّنات، والتخاريم، والمربّعات المتوالية، والدوائر، والنمنمة، والألوان الأحادية الصّرفة، غير المزوّقة ـ فيكسو الأشياء في ساحة الدار، حتى الأسِرَّة الضخمةَ، والسُّلَّمَ، والسورَ، وجدرانَ الغرف الخارجية، ومحيطَ البئر، وكوخَ النحل. ولمّا بدأ يقترب من حقل «كسبو»، ذي الأصناف العَصيَّة على التحديد، هتفت المرأة وسط بناتها: «لا، لا»، فتطلّعن حيث تنظر أُمّهن، سائلات: «ما الذي هناك؟»، فكأنما أيقظن أمهنَّ، التي لم تعد ترى أي قماش في الأمكنة التي كانت تراه فيها، فابتسمت أولاً، ثم استدركتْ حالها فاحتضنتْ «هيلين» الصغيرةَ، مسترسلةً في أمرٍ كالدّعابة: «لا. لا»، كأنما كان صوتُها، قبل برهة، تتمّةَ صوتها وهي تداعب ابنتها، فعادت بناتها لينشغلن بما هُنَّ فيه من مجادلات مبتورةٍ، وأحاديث، بأصوات متداخلة، إلّا «هيفين»، التي انسلَّت إلى الداخل بلفافةِ تبغٍ مخبّأةٍ في راحة يدها.

لم يكدْ «حمدي» ينتهي من قياس لفافاتِ قماش عدّةٍ، بمتره الحديدي ذي

الرنين، حتى دخل عليه دركيّان باديا الرّصانة، فسلّما عليه، وعلى ثلاثة أشخاص آخرين كانوا جالسين على كراسٍ متباعدة، من حول منضدة «حمدي»، فدعاهما إلى الجلوس وهو يتطلع من حوله عسى يجد ما يجلسان عليه، فقام ـ آنئذ ـ اثنان من زائريه عن كرسيّيهما متكرّمَيْن بهما على الدّركيَّيْن، وجلسا ـ هما ـ على مسطبةٍ خشبيةٍ عالية قليلاً، تحت الأرفُف حيث تُمدَّدُ عليها لفائفُ القماش مفرودةً تحت بصر الشارين. وإذ اتّخذ كل واحد مكانه، واضعاً ساقاً على ساق، مع عبارات سؤالٍ عن حالِ هذا وذاك، وأمور المعيشة، حيث يعرف بعضهم بعضاً، بالطبع، دخل صبيُّ المقهى، الرّاصدُ الحيُّ لكلّ داخل وخارج إلى السوق الظّليل بسقفه العالي، وعَرَض خدماته. فيما كان يلمُّ كؤوسَ شاي فارغةً قدَّمها ـ من قبل ـ لزائري «حمدي»، فأوصاه الرّجال بكأسين آخرين، فخرج على عجل يسبقه طَرَفُ حزامه البلاستيكي المتأرجحُ، الزائد بثلاثة أشبار عن محيط خصره الضامر.

كان واضحاً أن الدّركيّين يريدان تبليغ «حمدي» بأمر مّا، لكنهما يحجمان عن ذلك أمام الرجال الثلاثة، الآخرين. وقد أدرك «حمدي»، بدوره، ذلكَ من النظرات التي يُنقّلُها الدّركيان بينه وبين الجالسيْنَ، ومن طريقة ارتشافهما لنشاي الساخن دون التطلّع إلى كاسيهما. ولمّا بدا أن الزائرين الثلاثة لم يفطنوا إلى مغزى الصمت الذي لا تقطعه إلاّ النّحنحاتُ، وتبادلُ لفافاتِ التبغ، بادر إلى التخفيف عن الدركيّين: «هؤلاء مثل إخوتي»، مشيراً إلى الثلاثة الجالسين، وأضاف: «لا أسرار بيننا»، فأدرك الدّركيان أنهما في حلٍّ من صمتهما.

«يا سيّد حمدي. . .» قال الرجلان، الغارقان قليلاً في ثيابهما الكاكي الرسمية، الكلمتين بفمٍ واحد، ثم استدركا أنهما يتكلمان بصوت متساوق، فأفسح أحدهما للآخر، بسكوتٍ تلقائيٍّ، ليكمل تبليغ ما جاءا من أجله إلى «حمدي»، فانطلق الأكثر نحافةً، وهو يدير قبعته على أصابع إحدى يديه، بينما أمسك بالثانية كأس الشاي:

ـ الحمولة التي كانت في طريقها إليك، الليلة الماضية، هي في المخفر الآن.

مسَّدَ «حمدي» شاربه، في هدوء، وهو يتطلع إلى عيني الدركي الواسعتين، وابتسم سائلاً: «أيعرفون لمن هي البضاعة؟»، فابتسم الدركيان، بدورهما، ثم هزّا

رأسيهما بطريقة ساخرة، فيما انبرى الأكثر نحافة ليجيب:

ـ لم ينطق الثلاثة بحرف.

«الثلاثة؟»، سألها «حمدي» وقد تراجعت ابتسامته، فردّ النحيف متصنّعاً الرصانة:

ـ البغلان، والحمار، يا سيد حمدي.

فانفجر «حمدي»، وزوّاره الثلاثة، مقهقهين، ثم توقّفوا كما بدأوا، ليعود «حمدي» إلى بعض الأسئلة التي شغلته: «لم يعتقلوا أحداً.. أعني..»، فطمأنه الدركي النحيف: «لا أحد»، واسترسل يشرح الأمر كأنّما يبرّىء ذمّته: «هذه أول مرّة تتم مداهمة الطريق العام الممتد من مستديرة الحديقة العامة إلى هضبة المطار»، ووضع كأس الشاي التي كانت في يده على منضدة «حمدي»، بعدما قام عن كرسيّه نصف قَوْمةٍ لتصلها ذراعُه. ثم أكمل: «الأمر ليس مصادفة. عيون الدّوريات على الأحراش قرب الحدود، وعلى المسالك الشمالية، والشمالية الغربية، أمّا الطريق العام..!!»، وتوقّف رافعاً يديه كمن يقرأ الفاتحة، ثم استرسل ثانيةً: «الطريق العام التي تصل المدينة بالمطار، والمطار بالدّولة، والدولة بالله..!!»، والتفت إلى زميله كأنّما يستنجد به لإيجاد تعليل لهذه المداهمة التي لم تخطر ببال أحد في المخفر، بحسب اعتقاده، فوجده مثله بنظراته المندهشة قليلاً، وهو يستقرىء عيني «حمدي».

لم يكن «حمدي» في حاجة إلى سؤالهما كيف عرفا أن حمولة القماش هي له، فهما على دراية، مثله، بأن البضاعة لا تأتيه إلّا عن هذا الطريق، الواقع تحت الأبصار، زيادةً في التمويه الذي تخلقه الطمأنينةُ عادةً. وقد اتفق «حمدي» على ذلك، بجراءة، مع مموّليه بالقماش، برغم استنكارهم للقَدْر الهائل من المغامرة في دفع بغال إلى المشي على الإسفلت ليلاً. ومِنْ أين؟ مِنَ الطريق المشاع لكلِّ عربةٍ، وراجلٍ. كما أن «حمدي» أصرّ على نقل القماش على بغال، لا في عربة، بالرغم من شرحهم له أن البغال تفيد للوصول عبر المسالك الترابية، من جهة قرية «الهلالية»، أو الأحراش لصق حدود تركيا، إلى الأحياء المتاخمة للمدينة، وبما أن بضاعته ستصل عبر طريق إسفلتي، فالسيارة أكثر تمويهاً. لكن دون طائل. وهكذا تهادت البغال طويلاً ـ دون أن يرافقها

حمـار، كمـا حصل في آخر مرة ـ متجهةً، من القرى المتاخمة للحدود شمالاً، إلى الجنوب، في شكل قوسيٍّ، لتعود عبر حقول القمح إلى الطريق العام الذي يصل المدينة بالمطار الواقع فيما وراء الهضبة الجنوبية العالية. ومن ثم تخترق طُرُقاً داخلية، تحيط بها نوافـذ خافتـة الإضـاءة، لتقف، أخيراً، أمـام بوابة بيت «حمدي»، ليعكف الدليلان ـ اللذان هربـا ليلةَ جاءا بحمـارٍ أيضـاً، للتخفيف عن البغلين ـ على إنـزال اللفائف والصُّرر، التي تنتقل، أوّلاً بأوّل، إلى الداخل. ثم يعمد الدليلان إلى خلع سترتيهما ليفكّـا عن وسطيهما أغطية رأس موصلّيَّةً للنساء، غالية الثمن. جرى لَفُّها على شكل أحزمةٍ رفيعة ليحمل كلُّ واحد أكبر قدر ممكن من ذلك النسيج الحريري الملمس، الذي يمكن جمع مترين مربعين منه في علبة كبريت.

نهض زوّار «حمدي» الثلاثة، وعلى وجوههم اعتذار مّا، فمازحهم وهو يرتشف بقـايا من شاي بارد في قاع الكأس: «كنتُ سأتبرّع بهذه الحمولة للمخفر، على كل حال»، ونـظر إلى الـدّركيّين هامسـاً: «فـداكمـا»، ثم بادرهمـا: «ألا تستـزيدان من الشاي؟»، فقاما عن كرسيّيهما تعبيراً عن اكتفائهما من الشاي ومن البقاء غير المُبرَّر، بعدما أخبراه بالذي ينبغي أن يخبراه، ما دامت ثياب امرأتيهما، وأطفالهما أيضاً، هي من جهد بغال «حمدي». وقد انصرف الخمسة من المخزن ـ الدركيان، والزوار الثلاثة ـ في هدوء، غير مُكْثرِيْنَ من أسفهم، إذ ثمت طرق ترابية أخرى كثيرة في الشمال، وثمت برارٍ لا تنتهي، ومسالك أمينة عبر أسلاك الحدود وأدلّاء قد يحملون، ذات يوم، مُدُناً على البغالِ، من جهة إلى أخرى. أمّا القليل الذي خسره «حمدي» فهو ما يخسره الرّابحون عادةً، ولـذا عاد الـرجل ذو الشاربين الكثّين إلى الإنكباب، من جديد، على لفائف القماش يقيسها بمتره ذي الرّنين.

انعطف «دينو»، بالمذياع الذي يحمله تحت إبطه، خارجاً من الممشى المشجَّر وسط الشـارع، ليمشي على الـرصيف المحـاذي لسـور الحديقة العامة ذي الحجارة المستـطيلة. ولم يكـد يتقدّم خطوات حتى سمع صوتاً يناديه، بترخيمٍ لأحرفِ اسمه ممتزجٍ بعويل محرِّك سيّارة، فالتفت «دينو» ليرى «جورج قرياقوس» الأعور مطلّاً برأسه وبيده اليمنى من نافذة سيارة أجرة، ملوّحاً له دونما سبب إلاّ للفت نظره. و «جورج» شاب

يكبر «دينو» بسنتين، وضع إحدى عينيه على فوّهة بندقية صيد من عيار ٩ ملم، بينما ضغط أخوه الصغير على الزناد خطأً، فتناثر سائل أسود، ودم، في اتجاهات كثيرة. وقد تمَّ إنقاذُه، وتخْييطُ الجلد من حول محجر عينه، التي باتت مجوَّفة، يقسّمها من الوسط شقٌّ أحمر هو ما تبقّى من جفنيه. وبعد أشهر زرع طبيب حاذق عيناً زجاجية في ذلك الشق الأحمر. بدت أكبر بكثير من العين السليمة، جاحظةً لا يطرفُ جفناها، لكنها كانت أفضل من التجويف الشيطاني لِوَقْبِ العين، في ذلك الوجه المعروق المدبّب.

كانت سياراتُ الأجرة، القليلة جداً، حديثةَ العهد في دخولها الخدمةَ بين وسط المدينة والشارعين الكبيرين اللذين يصلان ذلكَ الوسطَ بالحارات الشرقية والغربية. وخدماتها كانت مقتصرة، من قبل، على الانتقال من المحطة التي تتجمع فيها، قرب الجسر، إلى محطة «الميرا»، خارج المدينة، حيث الأهرامات المديدة من أكياس القمح والشعير في انتظار شحنها بالقطار إلى المدن الكبيرة. وبالطبع لم يكن يستقلّ تلك السيارات إلّا تجّار الحبوب، والوسطاء، لكنها، بعدما نزلت إلى الخدمة في الشوارع، لتنقل ركاباً عديدين بنقود قليلة، صار «جورج قرياقوس» من الزبائن النشيطين للكسل، وهو حين لوّح لـ «دينو» بحرارة مبالغ فيها لم يكن يُخفِّي بدافعٍ من صداقةٍ أو مُصَاحبةٍ، بل ليؤكد لنفسه أنّه هناك، خلف نافذة السيارة التي يستطيع أن يُخَفِّضَ زجاجها، أو يرفعه، على مقعدٍ جلديٍّ واهنٍ يُزقْزِقُ كلّما احتكَّ به قماش بنطاله، وأن يغمض عينه السليمة نصف إغماضةٍ من تدفّق الهواء الساخن بقوّة إلى السيارة، بينما تبقى الأخرى، الزجاجيةُ، مسترسلةً في تحديقها القاسي، كأنها تتلصّص ـ من فجوةٍ مّا في الريح ـ على الله.

لم يكن «دينو» قد استقلَّ سيارة أجرة من قبل، تحمل عدداً مُتجاورِيْنَ من أناس يدخّنون. ويطحن البُذَناءُ فيها النُّحفاء، أو هكذا تهيَّأَ له. بل لم تكن تعنيه تلك السيارات في مدينة تعوّد قاطنوها أن يقطعوها راجلين، إلّا حين كانت الحناطيرُ، قبل انقراضها بجيادها المدلّلة، تذرُ الإسفلتَ رائحةً غاديةً بالطقطقة الأليفة لعجلاتها، وبسهامٍ من الروث تدلّ على اتجاه ذهابها وإيابها.

الموظفون الإداريون، وبعض الدرك، كانوا يقتنون درّاجات هوائية. وقليلون

آخـرون، من التجار تحديداً، كانوا يملكون سيارات «جيب»، أو «بيك آب» صالحة لمنـافـع أخـرى غير تنقـلاتهم الشخصية. أما الباقون من السكان فلم يكن لهم غير العضل. لكن «دينو» كان تعلَّم، دون مهارةٍ، أن يقود «بيك آب» خاله «شَمْسُو»، كلّما أوقفها الرجلُ خلف دارهم. وكانت تلك القيادة كافيةً، على أية حال، لأن يقرّر «شيرو بابان»، رجلُ الحصّادات الضخمة غير المحظوظ، تشغيله في موسم الحصاد كسائق، وقد مضى نصف الموسم دون أن يلتحق بعمله، بسبب الخلل القاتل في آلة «شيرو» التي لم تحصـد كيسـاً واحـداً يمكن أن ينقله «دينـو» في الـ «بيك آب»، من الحقول إلى المستودعات المكشوفة.

قبل أن يجاوز «دينو» سور الحديقة العامة رأى صِبْيَةً يتسلّقونه هاربين. ومن ورائهم يتشظى صوت الحارس الأجش. والحديقة تشكّل، بعامّةٍ، مكاناً آمناً للتدخين بعيداً عن العيون الفضـوليّة. لكن «دينـو»، وبعض أصحـابـه، كانـوا يتخـذونهـا، قبـل مواعيد الامتحانات، مسرحاً لاستذكار دروسهم، بأصوات عالية، وهم يذرعون الممرّات الظليلة آلاف المرّات. وأطول فترة قضاها في الحديقة كانت في بداية الصيف نفسه الذي حمل فيه مذياع أبيه إلى البيت، إذ اقتضت الاستعدادات لخوض الإمتحان الثانوي أربعين يوماً من القراءة، بحطّةٍ بيضاء على الرأس تقيه من السماء المتوهّجة.

على أية حال، كانت تلك آخرَ سنة يدرُسُ فيها «دينو»، الذي لا يملك أوراقاً ثبوتية كافية تؤهله للالتحاق بجامعةٍ مّا. وهي سنة كادت أن تكون ملتهبة قليلاً. فقد انقلب شركاء الحزب الوحيد في السلطة والحرية بعضهم على بعض، في العاصمة. فطغى الارتباك على المعلمين الحزبيين، والطلبة البُداة الأصل، الذين يعملون مخبرين لدى إدارة المدرسة التي يتهيّأ فيها «دينو» لتخرُّجٍ يفتحُ له مستقبلَهُ المغلقَ. ففي بداية شيوع الخبر تداعى الحزبيون إلى إبداء احتجاجات: «يسقط الإنقلابيون». وتجمعوا حلقاتٍ مفصولة يتحدّثون فيها بأصوات صاخبة: «عاش الرفيق.. يسقط الرفيق». ثم توجّه فريق منهم إلى مخفر الدّرك، الذي رفع المسؤولون فيه أكتافهم تدليلاً على أنهم ليسوا في صورة الحدث، وفحواه. ولم يكن المخفر ـ على أية حال ـ مرجعاً في أمر احتجاجات يقـدّمها حزبيون حاكمون ضد حزبيين منهم. فالدّرك، مثلهم مثل غيرهم، لا تعنيهم

المسألة ما دامت الأشياء باقية ـ قَطْعاً ـ على حالها. وما أن انقضت بضع ساعات حتى تدخلت المخابرات ـ كمرجع صالح وحيدٍ، ومُقْنِعٍ ـ للبتّ في الهرج «غير المفهوم»، فجاء فَرْدٌ واحد، ضئيل الحجم، يزرّر قميصه عند العنق دون ربطةٍ، بمسدسه الظاهر تحت سترته القصيرة من فوق ردفيه المكوّرتين، وشاربيه المرتخيين على زاويتي فمه، فتطلّع إلى جمهرةٍ من الواقفين قرب بوّابة المدرسة، ثم نقل بصره إلى آخرين تحلّقوا قرب الرصيف المواجه للبوّابة، متمتماً باستهجان، وتوجّه بخطوات واثقة وسريعة إلى الممر المؤدي إلى غُرَف الإدارة. وما أنْ غاب لحظات حتى عاد يصحبُهُ المدير، الذي كلّف طالباً بدعوة الجميع إلى باحة المدرسة، فحضر الجميع إلى الباحة التي يتقابل في وسطها عمودان إسمنتيان، مجهّزان بخشبتين مربّعتين، وحلقتين من حديد يتدلّى منها شَبَكٌ قُمْعيٌّ، واسعٌ من أعلى وضيق من أسفل لتمرّ منه الكُرات، في لعبة يسمّونها «كرة السلّة».

وقف المدير مواجهاً الجَمْعَ الذي لم ينتهِ لغطُه، ورفع إحدى يديه متنحنحاً: «إسمعوني.. رجاءً»، فقاطعه صوت مجهول المصدر: «يسقط الغدر»، فانتفض رجل المخابرات بطريقة عصبيّة، ووقف على أطراف أصابعه، باحثاً بعينيه المتراجعتين إلى عمق محجريهما بفعل خوفٍ مزمن، وصرخ: «مَنْ قليلُ الأدب هذا؟ مَنْ.. مَنْ؟»، ثم عاد مستنداً على عقبي قدميه، متطلعاً إلى وجه المدير الذي يعلوه بشبرين، وهزّ رأسه في ثقةِ مَنْ أدّى دوره على ما يرام، هامساً: «تابعْ.. تابعْ». فتابعَ المدير وهو ينظر إلى صفوف الأسلاك الشائكة من فوق سور المدرسة، وليس إلى الوجوه: «لقد أرسل الرفاق إليكم رسولَهم هذا»، وانحنى برقبته على الرجل الضئيل، الذي اكتشف لتوّه ـ رُبّما ـ أن على القمصان أن تُزرَّر من العنق في فظاظةٍ تجعل الأوردةَ أكثر فحولةً في منظرها المنتفخ. وقد هزّ رأسه في مواجهة الجمع الخليط من الطلبة والمعلمين، مؤكّداً على كلام المدير الذي استرسلَ: «إنهم يبلّغونكم أن هرجكم غير مقبول. لقد كان هنالك خللٌ في إدارة النّظام، وفي الدولة، وسيتم تصحيحه. والأمر يُعْتَبر منتهياً». وانحنى برقبته، من جديد، على الرجل الضئيل الذي مدَّ يده، بحركة آلية، ليصافحه، فصافحهُ المدير.

برهةً صمتٍ تلتِ المصافحةَ تلك، فيما وقف الرجل الضئيل، ثانيةً، على أطراف أصابعه، كأنما يستقرىء الوجوه القريبة والبعيدة، ثم استدار على عقبيه منصرفاً دون مقدِّمات، فلحق به المدير بخطوات عجولة: «يا رفيق..»، ولمّا التفتَ الرجل الضائع في قميصه، أخذ المدير يده اليمنى بين يديه، وانحنى عليه موشوشاً، فاهتزّ الضئيل بضحك خشن.

لا يهمّ ما قاله المديرُ من كلامٍ فأضْحَكَ الضئيلَ الذي نطقَ كلماتٍ قليلة بلهجة أهل البادية السورية، لأن الأيام التي تَلَتْ الصعودَ المبتسمَ للفوج الحزبيِّ الجديد ـ وسط طقطقة عظام كسرتْها خسارةُ السُّلطة قبل أن تكسرها الأعقاب ـ كانت مليئة بالضحك في المدرسة. فالمدير صار يلقي النّكات عن «زمرة السُّلطة الماضية» قبل دخول الطلاب، صباحاً، إلى صفوفهم. والمعلمون، الذين كانوا يحضرون وصُحُف الحزب تحت آباط ستراتهم المزرّرة، عادوا يحملون الصحف التي تحمل الأسماء ذاتها، إنما بعناوين تفضح «شعارَ الأمس»، و«الإنفراد»، و«الاستهانة بالشّعار». وصاروا أكثر اقتراباً بعضهم من بعض، مبتسمين أبداً، ويضحكون من كل حركة أو همسة. حتى لا يحمل أيٌّ منهم ضغينةً على الآخر، فيغدر به إذا ما سبقه إلى نيل رضا «شعبة الحزب الجديدة». وحدهم الطلّاب المخبرون تباروا، أمام الادارة، في الوشاية بعضُهم ببعض، فاستراح منهم الطلبة غير الحزبيين إلى أجل قصير. ثم التأمتِ الأمور، بعد ذلك، في سرعة، فعادت الوجوه ذاتها، دون نقصان، إلى ساحة المدرسة وهوائها، أكثر حذراً هذه المرّة، ترتاب في نفسها وفي الآخرين.

كان «دينو» يتقدم بمذياع أبيه لصق سور الحديقة العامة دون أن يشغل نفسه بمستقبلٍ دراسيٍّ آخر، وكلُّ مستقبلٍ دراسيٍّ سيحمل إليه ـ قطعاً ـ المصائرَ المرئيةَ ذاتها، التي تتوزّع بحسابٍ عادلٍ على هيئاتِ طلبةٍ مخبرين، وهواءٍ محايد، ومدراء كآمري السجون، ومعلمين يتنافسون في البقاء، بعد الدوام اليوميّ، للتداول في شؤون الحزب عن نفاق. وقبل أن يُجاوزَ «دينو» السورَ، في نهايته المتّصلة بالبوّابة القوسية الضخمة غرباً، وضع المذياع على حافته الواطئة العريضة، ومسح بكمِّ قميصه عَرَقاً تلبَّد على جبينه، ثم فتح زرّين، فوق الصّدر، وصار ينفخ ـ من داخل القميص ـ على جلده

العاري يبرِّدُهُ قليلاً. وعلى نحوٍ تلقائي قرَّب أنفه من إبطه الأيسر وشَمَّهُ، كأنما تنامت إلى منخريه رائحةٌ مَا، وضحك ضحكةً حبسها بين زلعومه وسقف فمه، إذ داهمته، فجاءةً، فكرةُ أن تكون الرائحةُ رائحة سردين، وتمتم: «مَمْ..»، في محاولةٍ بينه وبين نفسه ليثني أخاه عن إلقاء نكتة طالما ردّدها. و«دينو» لا يستحبّ من أخيه أن تتعلّق تلك النكتة بـ«شيّرو بابان» المنكود، الذي يزعم «مَمْ» أنه أقام وليمة لهم من ثلاثمائة وأربعين علبة سردين. والحقيقة أن الرجل لم يكن يملك وقتاً ليُوْلِـمَ لأحد أمام الخذلان الذي جرّته إليه حصّادات من أصناف مختلفة: «كاتَرْبيلَرْ» الصفراء لم تنفع، وأخرى طُلِيَتْ بصباغٍ أحمر قرمزيٍّ لم تنفع، وأخيراً لم تنفع حصادة «جونْ دِيْرْ» الخضراء ـ تنين الحقول، التي يكفي لسائقها أن يأخذ إغفاءة في القيلولة لتحصد، من تلقاء نفسها، تسعةً وتسعين كيساً من القمح، ومائة وكيسين من الشعير، مع حساب الفارق في ثقل السنابل بين النوعين.

ثلاثمائة وأربعون علبة سردين!!؟ لماذا اختار «مم» أن يتفكّه من «شيرو بابان» على هذا النحو؟ ذلك ما يُسائلُ «دينو» نفسه فيه. لكن «مَمْ» لا يؤخذُ ـ بحسب رأي «دينو» ـ إلاّ كنقّار خشب، أو هدهد لا يستقر في عشٍّ. وهو يسميه، أحياناً، «الهدهدَ ذا المنقارين»، ينقر الأرض مرّة، وإذا رفع رأسه ينقر الهواء. غير أن «مَمْ» يحبِّذُ لنفسه وصفَ: «منقاران أفضل من لا شيء»، ويحرِّض، بكلام يكاد يخلو من السخرية، أخاه دينو: «لن تجد أكبر من قدميها يا غبي. أنت لا تعرف ماذا يعني أن تكون للفتاة قدمان كبيرتان». و«دينو» يعرف أن «مَمْ» ليس في حاجة إلى توطئة ليُقْحِمَ ابنةَ جارهم «ذات الحذاء العسكري» ـ كما يسميها ـ في أية محاورة بينهما، برغم ترديد «دينو» الجازم أنها لا تستهويه بعينيها الصغيرتين العسليتين، وشعرها الخرنوبي الأجعد، وصوتها الذي يخرج نَفْخاً من بين أسنانها القصيرة، مدفوعاً بلسانها فيرتطم بشفتيها المزمومتين.

«وجهها مستطيل، وكئيب»، يقول «دينو» لـ«مَمْ»، فيهز الأخير رأسه مستنكراً: «قد تجد مثل حذائها يا دينو، لكنك لن تجد قَدَمَ فتاة تناسب ذلك الحذاء». ولم يكن على «دينو»، بالطبع، إلاّ أن يستوضح أخاه عن السحر الذي يجده في قدمين عريضتين لفتاة لا تناسبهما مقاساتُ الأحذية النسائية، فتنتعل أحذيةً رجالية ذات عنق، ومفلطحة من أمام. لكن «مَمْ» يتمادى في تحريضه المعجونِ بالإثارة: «اكتشفْ أنت ذلك يا غبي».

كلُّ شيء واضح في الفتاة «ذات الحذاء العسكري»، و«دينو» ليس في حاجة إلى تنقيب، أو كشف. إنها ترتدي البناطيل، وذلك نادر في الحيّ، حتى بين جيرانهم السريان والأشوريين. يتحدث والدها باللغة الكردية دون أن يكون كردياً، أما لهجته العربية فهي أقرب إلى أهل مصر. توفيت أمها من زمن بعيد، فلم يتزوج الأب بعدها. لها إخوة شبّان، موظفون في دوائر عقارية، أو مشرفون على عمّال رَصْفِ الشوارع، وهي الأنثى الوحيدة بينهم. تتردّد على أخت التوأمين «هيفين»، لتتبادل معها لفافات التبغ خِفْيَةً، برغم أن والدها يبدو متسامحاً مع ابنته المقبلة على سنتها الثانية في صفوف الثانوية العلميّة، التي ستفتح لها ـ كما تقول هي ـ الطريقَ إلى دراسة «علم البلّورات» في الاتحاد السوفييتي. والكلمةُ ذاتُ الطنينِ هذهِ، أيّ «علم البلّورات»، تحوِّم كذبابة بين مسامع «هيفين» وأخويها، بينما لا تستطيع «ذات الحذاء العسكري» أن تقدِّم تعريفاً نصف مُقْنِعٍ لفكرة عِلْمِها الشَّيِّق، الذي سيحملها كطيفٍ عبر موشورٍ مدرسيٍّ ملقى على طاولات المعلّمين، لأن الفتاة نفسها مأخوذة بصدى كلماتٍ قرأتها في إحدى المجلّات القادمة من أرض بطرس الأكبر باللغة العربية، ولها شعار أشبه برسمٍ للذَّرَّة بنواتِها، وبالكهربيّات الدائرة من حول النواة. وقد استقصت في كتب علمية مبسَّطة مراتبَ هذا العلم فوجدتِ القليلَ الغامضَ من تعريفٍ به، فَسَحَرها ذلك أكثر. ولمّا عرضتْ على والدها ـ بحسب ما قالته لـ «هيفين» ـ أن تختصّ بالبلُّورات، في الاتحاد السوفييتي الذي تستهوي الأب أسماء قادته البلشفيين، ردّ: «ولِمَ لا؟ قد تصنعين لنا كؤوساً زجاجية لا تنفجر إذا سكبنا فيها الشاي الساخن».

مهما يكن، فقد قررت «ذات الحذاء العسكري» أن تتوجَّه، بعد إتمام المرحلة الثانوية، إلى البلاد التي لا تظهر الشمس في بعض أقاليمها ستة أشهر، فانكبّتْ ـ منذ سَنَتِها تلك ـ على حياكة سُتراتٍ صوفيَّة بيديها، وكذلك شالاتٍ طويلة تستطيع أن تلفَّها حول عنقها المقوَّس ثلاث مرات، إضافة إلى قفّازات، وجوارب تصل حتى منتصف الفخذ. ولم تنسَ ـ بالطبع ـ أن تكون السيادةُ للّون الأحمر بين كُراتها الصّوفيّة، وأن تكون الأزرار عريضة حمراء، ودبابيس شعرها أيضاً. وقد اقتنت أكياساً من الحنّة الحمراء بدورها، مُزْمعةً أن تستخدمها حين تستقر تحت سماء الأممية. ثم كدَّست مقتنياتها هذه

في حقيبـة خاصَّـة، مع كُرتين من النَّفتالين الأبيض، مُقْسِمةً أن لا تُمَسّ. ومع ذلك استثْنَتْ إحدى القُبّعات، ولم تكن من صناعتها، بل هدية من جارٍ أرمني بعدما ضجر من ارتدائها، طالباً منها أن تتذكّره إذا عبرتْ سماء أرمينيا. والقبعة التي من جُزَّةِ ماعزٍ وليد كانت تظهر، مراراً، فوق رأس «ذات الحذاء العسكري»، كلّما مرت غيمة فوق سطح دارهم. فإذا حاورتْها «هيفين» ـ مثلاً ـ في أن الوقت لم يحن لارتداء قبّعةٍ، تعلَّلت الفتاةُ بأنهـا تتمرّن على ذلك، لأن ارتداء قبّعة ـ دون مِرَانٍ ـ يجلب الصداع، وهي لا تريد صداعاً في بلاد البلاشفةِ يبلبل صَفَاء البلّورات وعِلْمِها.

كلّ شيء واضح في الفتاة «ذات الحذاء العسكري»، من أعماقها حتى عينيها الكسولتين، و«دينو» يستطيع أن يصمَّ أذنيه عن محاولات أخيه «مَمْ»، غير البارعة، في إضفاء سحرٍ مَا على الجارةِ، وذلك ـ تحديداً ـ ما يغيظ «مَمْ»، الذي يبتكر، فجاءةً، مداعباتٍ لا تبعث على المَرَح، حين يجد أن ما يظنُّه براعةً في نفسه ليس إلّا رعونةً لا تُخفىٰ على أخيه: «يلائمها أن تقود دراجة نارية. ألا ترى ذلك يا دينو؟» فلا يردُّ «دينو». ولأنّ «مَمْ» لا يريد لمحاورته نهايةً على هذا الشّكل، ينادي على الفتاة، إذا كانت جالسةً مع أختِه على حافة سرير من أُسرّة الساحة، أو واقفةً على الرصيف الموازي لبوابة بيت أهلهـا: «هيـ يـه. ألا تحبين الـدراجات النارية؟»، فترفع الفتاةُ كتفيها من سؤال غير متوقَّع، ثم تُغَمْغِم: «لا أعرف. ربّما. أنا. . .»، فيقاطعها «مَمْ» قائلاً: «أنا أشرح لأخي أنـك قد تتزوجين سائق دراجة نارية ذات يوم»، فتضحك الفتاة من الدّعابة، وتجيب بخجـل خفيف: «ولِمَ لا؟». لكنها لا تنجو، عند هذا الحدّ من تحرُّشه بها، إذ يعود فيسألها: «لماذا لا يشتري لك والدك دراجة نارية؟»، فترفع الفتاة، حينذاك، نظراتها إلى وجه «دينو»، كأنما تستنجد به من هذه الأسئلة غير المفهومة، ثم تغمغم من جديد: «هل تزمعُ على فَتْح دكّانٍ لتصليح الدّراجات النارية؟».

كاد «دينو» يضحك، من جديد، وهو ينفخ، في توقّفه عند سور الحديقة العامة، على أمـاكن من صدره، وبطنه، بعدما فتح أزرار قميصه المبتلّ بالعرق. نعم. حريٌّ ـ «مَمْ» أن يفتـح دكّـانـاً لتصليح الدراجات، لكن الوقت لن يُمْهله من جرّاء الخطط العجولة لأبيه: تلك هي الفكرة التي تتململ في رأس «دينو». وإلى أن يحين سفر توأمه،

على نحوٍ لم يشرحه «حمدي» لأحدٍ بعدُ، سيكون هنالك متّسع لدعابات أخرى كثيرة يُقْحِم «مَمْ» فيها الفتاةَ «ذات ذات الحذاء العسكري»: «ستأتيني بالنجدةِ» يقول لـ «دينو»، كلّما رآها داخلةً إلى دارهم. فيردّ «دينو» على أخيه: «أنت في حاجة دائمة إلى نجدة». والحال هي أن «مَمْ» يتفكّه ـ من آنٍ إلى آخر ـ من حكاية سفره الوشيك ذاتها، فيجعل لـ «ذات الحذاء العسكري» نصيباً في ترميم قَدْره الخَلِق من كثرة التداول بين «حمدي» وجُلسائه. «ستأتيني بالنجدة، من الساحة الحمراء، إلى كردستان» يقول «مَمْ»، ولو سمعه والده لما أخذ الأمر على محمل الفكاهة. فهو يعتقد أن السوفييت مدينون للكرد بإقامة جمهورية «مهاباد» ثانية، بعدما خذل ستالين «مهاباد» الأولى.

«كنا نمدّ الجيش الأحمر بالجياد» سيقول «حمدي» لنفسه، أو للجُلساء العارفين مثله بوقائع العمر الذّهبي لكردستان العام ١٩٤٦. نعم. كان «عبد اللّاوف»، وهو الروسي الوحيد في بلدة «مهاباد» ـ الواقعة في الغرب الأقصى من إيران، بحسب حدودها السياسية، وهي منطقة تعادل منتصف أرض كردستان على التقريب ـ الذي يشرف على تدبير الجياد من القبائل الكردية لحاميات الجيش الأحمر في «تبريز»، وكانت من مهمّاته ـ أيضاً ـ تسهيل الاتصال بين هذه القبائل وبين الجيش السوفييتي الذي انتشر، مع الجيش البريطاني، في أرض إيران، لحماية بعض أرتاله المتقهقرة نحو القفقاس، وأذربيجان، ما بين العامين ١٩٤١ـ ١٩٤٢، وكذلك للمحافظة على خط التموين الذي يدفع بالآليات الأمريكية من الخليج في اتجاه الشمال. وقد تقاسم الجيشان النفوذ على الأرض، فامتدت سطوة البريطانيين لتشمل إقليم «سُنْنُدَجْ»، من بعد مدينة «كَرْمَنْشَاهْ» الواقعة في أقصى كردستان الجنوبي، حيث الطرق الرئيسة المؤدية إلى العراق. فيما دخلت «مهاباد» في دائرة سلطان السوفييت. وفي هذه المنطقة، تحديداً، استعاد الكرد هيبتهم، بما أغدق عليهم الجيش السوفييتي من حرية، حتى لا يستميلهم عملاء المحور. فعاد زعماء القبائل، الذين نفاهم «رضا شاه»، إلى أقاليمهم، فيما كان الجيش الايراني يتفتت متقهقراً إلى جنوب البلاد، ويترك غنائم هائلة من الأسلحة بين أيدي «الذئاب الجبلية» ـ بحسب ما درجوا على تسمية الكرد.

«أيترتب دَيْنٌ كبير لنا في ذمّة الجيش الأحمر، يا أبي، إذا كنا قد مَدَدْناه بسربٍ من

الجياد؟»، يسأل «دينو» نفسه سؤالاً لا يصل إلى مسامع أبيه. غير أن الحكاية لم تكن حكاية جياد قد تُحْدث جدالاً خافتاً بين «حمدي آزاد» وابنه «دينو»، إذْ كان على جمهورية مّا أن تقوم لتقيس قبائلُ كردستان تواريخَ الوقائع بالأمتار الزمنية التي سبقت قيام تلك الجمهورية، أو التي تلَتْ قيامها، وليكون لـ «حمدي» مع جُلسائه الليليّين أحاديثُ خافتةٌ ينسج بها يقينَه. والأكيدُ الذي يُدوَّنُ هو أن المكانَ، والوقتَ، كانا مناسبين، ليعلن «القاضي محمد»، في الثاني والعشرين من كانون الثاني، سنة ١٩٤٦، في خطبة لم تستغرق أكثر من خمس عشرة دقيقة، عن قيام جمهورية كردية توّاً، «تليق بشعب يستطيع ـ كأي شعب آخر ـ أن يقرّر مصيره بنفسه». ثم خلع عنه قفطانه الطويل، ليظهر في بزة عسكرية من الطراز السوفييتي فُصِّلَتْ له في «تبريز». ويقال إن «القاضي محمد» هَمَّ باعتمار قبعة عسكرية أيضاً، لكنَّ النُّصّاح ثنوه عن ذلك، ورأوا في اعتماره العمامةَ رِفْعَةً تليق بمقامه كرجل دِيْن.

كان ذلك في نهار مشمس ودافىء في منتصف الشتاء، على ارتفاع أربعة آلاف وخمسمائة متر عن سطح البحر، وعلى خط العرض ٣٧ شمالاً، كأنما ارتأتِ الثلوجُ التي تساقطت في اليوم التالي، كثيفةً، أن تؤيِّد القاضي الرّصين فتؤجِّل هطولها ذلك اليوم، بالرغم من أن زرازيرِ كثيرة بدتْ عجولة في التقاط رِزْقها منذ الصباح الباكر، متهيّئةً لنهار عاصف، لكنها أخطأت التقدير. ففي بلدة «مهاباد»، التي تشرف أبنيتها الحجرية على نهر يدعى «صابلاغ»، اجتمع خلق كثير منذ الضحى، متوجهين بالنّمارق الملوّنة إلى ساحة «جَارجرا» (المصابيح الأربعة)، ثم توجّه وفد منهم إلى منزل «القاضي محمد» القرميدي، ليعودَ مصطحباً الرجلَ، الذي صعد منصّة نُصبت في ركنٍ من الساحة للمناسبة، حيث ألقى خطبته القصيرة، التي تبعتها أصوات ثلاثمائة بندقية، كلُّ واحدة بخمس طلقاتٍ، معلنةً فتحَ ثغرةٍ في التاريخ يستطيع الأكراد أن يلقوا منها بِصُرَرهم، وبحليِّهم، وبجُزَزِ أكباشهم، وبطبول أعراسهم، إلى جهةٍ أمينة.

كانت خطبة القاضي محمد، ببلاغتها الكردية، وسط حشد يعرف الروسية، والتركية الأذربيجانية، وفي حضور اللجنة المركزية لحزب كردستان الديمقراطي، مشمولة برضا موسكو. لذلك شدّد الرجل على أواصر الأخوّة الكردية ـ الأذربيجانية في

تلك المنطقة، حيث النزاعات المختبئة تحت غطاء الوجود السوفييتي تكاد تطل برأسها.
والواقع أن جمهورية أذربيجانية، ذات حكم ذاتي، كانت تنافس جمهورية «مهاباد» على الأرض، وتتداخل قرى الجانبين ومسالكهم بعضها في بعض. أمّا الفارق الفكري فكان أساسياً بين الجمهوريتين، ففي حين تسلّم الشيوعيون حُكْم أذربيجان إيران، بمساندة المهاجرين من أذربيجان السوفيتية، بطموحات اشتراكية كثيرة، لم يكن أكراد جمهورية «مهاباد» غير قبليين دينيين، وقد ساءهم أن ينشر الأذربيجانيون الحُمْر ـ وهم بقايا حزب «توده» الذي تحوّل إلى «حزب أذربيجان الديمقراطي» ـ المخبرين والشرطة السرية في كلّ مكان، ليضمنوا «عدم عرقلة الرجعيين للمدّ الجماهيري». وبالطبع لم تمض أيام على قيام الجمهورية الكردية، برغم تطمينات «القاضي محمد» أن الأمور على ما يرام، حتى خرج النزاع بين الشعبين إلى العلن، من جديد، وحدّق كلٌّ في الآخر بريبة، فعمد السوفييت إلى ترتيب معاهدة صداقة بينهما، على مضضٍ من الجانبين. وقد حمل القدر، على أية حال، للجمهوريتين الخسارةَ ذاتها. فما كاد السوفييت ينصرفون إلى شؤونهم، خارج حدود إيران، حتى دخل الإيرانيون جمهورية أذربيجان الحمراء، على أنقاض الإنذار الذي وجهه السفير السوفييتي في طهران إلى الحكومة الايرانية. ومن ثم انهارت «مهاباد» أيضاً، ذات الإسم الآريّ، كما انهارت منطقة «درْيازْ» من قبل ـ وهي توأم منطقة «مهاباد» على نهر «صابلاغ» ـ تحت منجنيقات الصفويّين، الذين شنّوا هجماتهم على الأكراد السّنّيين باسم الشيعة.

ما الذي كان في مستطاع «القاضي محمد» أن يفعل بجمهوريته، بعدما رأى ذلك التخلّي غير المعلن لحكومة ستالين عن جمهورية أذربيجان الحمراء؟ لقد جمع الرجلُ أصحابَه، وعقد «مجلس حرب» ليس في يديه من وسائل الحرب غيرُ انتظار الجيش الايراني.

هُجِرَتْ «مهاباد» إلاّ من المحاربين البارْزانيين، الذين انسحبوا، في ما بعد إلى بلدة «بوكانْ» شمالاً، فيما كان «القاضي محمد» يفاوض «الجنرال همايوني» على دخول جيشه النظامي البلدةَ، قاصداً ـ بحُنْكَتِهِ ـ أن يُبعدَ عنها القبائل ذات الثارات، حتى تنجوَ من السلب والنهب. وذلك ما تمَّ، في البلدة التي يصلها طريقان من الشرق، واقعين

على جانبين متقابلين من نهر «صابلاغ»، أحدهما متّصل بـ «تبريز» و «مياندَوابْ» شرق بحيرة «رضائية»، والثاني يفضي إليها من جهة بحيرة «رضائية» وسهل «سَلْدُوزْ» غرباً.

على أية حال، لم يكن دخول الجيش الايراني إلى «مهاباد» هو الدخول الأول عسكرياً، فقد دخلها «اسماعيل آغا سِمكو»، بدوره، في العام ١٩٢١، ليذبح حاميتها الإيرانية، المكوّنة من ستمائة دركيٍّ، عن بكرة أبيها، ولم يوفّر تلك البعثةَ التبشيرية اللوثرية، ، التي قادها مبشّر أمريكي يدعى «فوسّوْمْ»، بأحلام زيّنت له أنه سيجد مرتعاً خصباً وسط ذلك المدّ الكردي، الذي احتضن، في «مهاباد» ذاتها، أُسراً مسيحية معظمها من الأرمن، إضافة إلى خمسين أسرة يهودية يشتغل رجالها عطّارين، وبائعي خمور. وقد ألّف «فوسّوم» نَفْسُهُ، كتاباً في النّحو الكردي باللغة الانكليزية، وهو نادر الآن. ولمّا غادرت البقية الناجية من بعثة ذلك الرجل الحالم ـ كما يبدو في الصور التي أخذها له مصور «مهاباد» الأرمني الوحيد «بوغوص» ـ آثرت الفتاة النروجية «دَالْ» أن تبقى، بعد زواجها من رجل يعود نَسَبه إلى عائلة «حبيبي» الكردية العريقة، وأكملت رسالتها على نحوٍ آخر، لتكون هي وحدَها الأثرَ الباقي من البعثة التي ذابت.

كان يعنُّ لـ «دينو»، مراراً، أن يسائل توأمه «مَمْ» متفكّهاً: «أتمنى ألاّ تفعل في كردستان ما فعله شبيهُك»، مشيراً على نحوٍ خفي إلى «سِمكو آغا»، الذي يصرّ «قادِرْ خَمُو» أنه يشبه «مَمْ»، بحسب الصورة التي يحملها في جيب سترته. وكان «مَمْ» يردّ على أخيه ذي العينين الخضراوين: «لن ينجو أحد إذا وقعتُ على بعثةٍ بينها ذات الحذاء العسكري». وإذ يستفسر منه «دينو» قائلاً: «ما الذي يدفعك إلى الظنّ أنها ستأتي إلى كردستان مع بعثة تبشيرية؟»، يردّ توأمه: «ليس مع بعثة تبشيرية يا دينو، بل مع وفد سوفييتي للإشراف على قيام جمهورية كردية جديدة»، فيتوعّده «دينو» ساخراً: «لا جمهورية جديدة يا عزيزي دون عِلْم بلّورات».

لم تكن «ذات الحذاء العسكري» كرديّةً، ولكن «مَمْ» و «دينو» أدْرَجاها في قائمة الأكراد، لتكون ـ بعد ذهابها المزعوم إلى الاتحاد السوفييتي، في المستقبل ـ قريبةً من شبح «هَجَارْ زَنَدي»، وهي الفتاة الكردية الأولى ـ ربّما ـ التي سبقتها إلى تلك البلاد في بعثة من «جمهورية مهاباد» التي انتهت بإعدام «القاضي محمد» وأركان حكومته، في

الثلاثين من آذار ١٩٤٧. وإذا كانت «هَجَارْ زَنْدي» قد آثرت البقاء في مدينة «باكو» ـ حيثُ تواءمتْ أمزجةُ الطلبة الأكراد، المبعوثين ليصيروا ضباطاً خبراء، حين عودتهم، في جمهورية القاضي محمد، مع أمزجة الأذربيجانيين السوفييت تحديداً ـ فإن «ذات الحذاء العسكري» لن تمكث أكثر من أربعة أيام وساعتين، كما يقول «مَمْ». وتانِكَ الساعتان، يضيف «مَمْ»، هما الوقتُ الذي تحتاجه الفتاة لربط سيور حذائها الطويل حتى ربْلةِ ساقها، بما فيه من خُرُوْمٍ أَلْفٍ متقابلةٍ. أمّا تحديدُ بقائها في تلك البلاد بأربعة أيام فلا يجد له «مَمْ» تعليلاً: «تكفيها أربعة أيام، بحسب اعتقادي، تماماً كما تكفي البعضَ أربعون سنة. والحكايةُ حكايةُ ذكاء»، ويشير بإصبعه إلى رأسه: «هنا. الذكاء هنا، في الجانب الأيمن من رأسها». فيقاطعه «دينو» ممازحاً، بدوره: «هذه مدة كافية، على أية حال، لحفظ الحروف الروسية»، فيردّ «مَمْ»: «ولماذا الحروف؟ لماذا اللغة؟ عِلْم البلّورات هو عِلْم النّظر يا عزيزي». وإذ يهزّ «دينو» رأسه متأسفاً في افتعالٍ: «وماذا سيقول أبوها إذا رآها عائدة بعد أربعة أيام؟» يردّ «مَمْ»: «لن يقول شيئاً يا عزيزي دينو، لأنها لن تعود». ولمّا يتصنّع «دينو» الاستغرابَ على قسماته، هامساً: «إذا تركتْ بلادَ البلاشفة ستعود إلى بلاد حجّي عُمَر»، مشيراً إلى البقّال، يردُّ «مَمْ» من جديد: «ليس ضرورياً أن تعود إلى هنا»، ويزجّج حاجبيه في مَرَحٍ صبيانيّ. فيتأمّله «دينو» متفكّهاً، ويقول: «لا أظنّ أنها ستسبقك إلى كردستان. . »، فيقاطعه «مَمْ»: «أنت بطيء البديهة يا عزيزي. لم تُخمِّن. . ». فيتوسَّله «دينو» في موقف ساخر: «أرجوك اشرحْ لي. . »، فيغمزه «مَمْ»: «ستفهم بنفسك، يا دينو، حين تفهم سحر قدميها العريضتين».

قد تختفي الفتاة داخل بلّوراتها: ذلك هو التأويل الوحيد لِمَا يستغْلِقُ من كلامِ «مَمْ» المبتور. لكن «دينو» لن يتفكّر في شيء من هذا القبيل، فما مِنْ امرىء اختفى داخل بلّورات، لأن تلك الشّفافية الصُّلبة، المتجانسة، عنيدةٌ في قبول اللجوء من أجسامٍ أخرى كجسم «ذات الحذاء العسكري»، حتى لو قرّرتْ هي ـ ببعض التوسُّل إلى روحها القادرة على تحويل الأشياء، كما في الخطط الخمسية للدول ـ أن تتزلّج، رويداً، رويداً، إلى موشورٍ زجاجيٍّ، لتخرج من الجهة الأخرى على هيئة حزمةٍ ضوئية انفصلَ كلُّ لون فيها عن الآخر. وإذا افترض «دينو»، على نحو مّا، أن الفتاة استقرّتْ

داخل جُسَيْمٍ بلّوريٍّ خالصٍ، لا يشوبه فِلِزٌ أو خَمِيرٌ، ففي أيِّ بُعْدٍ من ذلك الجُسَيم سينفصل الحذاءُ عن قدمها؟ وإلى أيِّ مدى سيعمِّم لونُها الشاحبُ حيلتَهُ على الألوانِ المطمئنةِ الأخرى؟ وفي أيِّ منظورٍ طوليٍّ، أو عَرْضيٍّ، ستتهيّأُ ذراتُ الجُسَيم البلّوريِّ لمواكبة يقينها الأكثر طيناً من نَحْلِ «كَسْبُو»؟.

«دينو» لن يفترض شيئاً من هذا القبيل، على الأرجح، لكن «ذات الحذاء العسكري» ستتقدَّم ـ واثقةً ـ من الثغرة المُهْمَلَةِ في فكاهاتِ التوأمين، لتلقي بنفسها في الشعلة الباردة لأعماقِ بلّوراتها، وهي تضحك من الاحتراق السريع الذي يحيلها إلى شِفَافَةٍ صلبةٍ تتناثر من حولها الشعاعاتُ المنتظِمةُ، والمارقةُ، والمُجَدِّفةُ، والهرطوقيّةُ، والأسِفَةُ على التهوُّر الذي يَسِمُ الأشكالَ الكثيفةَ. بل ستغدو «ذات الحذاء العسكري» موعظةً لونيّةً يُلْقيها خطيبٌ خارجٌ تَوّاً من فَدَاحةِ الأبدِ.

حين أحس «دينو» ـ الذي كان قد وضع المذياع على حافة سور الحديقة العامة ـ أن جسمه ابتردَ قليلاً من أثرِ النَّفْخِ بفمه على صدره وإبطيه ليجفّف عَرَقَه، عاد فحمل المذياع المستقرّ في الصندوق المقوّى، واتّجه بخطوات أسرع، هذه المرّة، صوب البيت الذي بات على مرمى تقاطُعاتِ طُرُقٍ ستٍّ. وفيما كانت حُبَيْباتٌ جديدةٌ من العَرَق تتداخل في خطوط جبينه الخفيفة، كانت أمُّه «كَسْبُو» تنسلُّ مع بناتها إلى داخل البيت، بعدما انحسر الظلُّ الملقى على ساحة الدار، وكاد يتقلّص فيمسُّ عتبةَ الباب حيث كُنَّ جالساتٍ. وقد توجّهنَ، فور دخولهنّ المنزل الذي بدا متشبّثاً بما تبقى من برودةِ الفجر فيه، إلى المطبخ المليء بأكياس المؤونة المصفوفة وقوفاً على عوارض خشبية تقيها من رطوبة الأرض. وإضافة إلى تلك الأكياس، ذات الفوّهات المفتوحة، كان ثمت خزانتان خشبيتان أيضاً، لها أبواب من شبك لا من زجاج، التصقت بها ذبابات كسولة، كأنّما تتلصّص من الثقوب على الكؤوس الكثيرة المنضّدة، والصحون الصينية ذات التنانين النافرة. أمّا أعماق تلك الذبابات فكانت تموج لوعةً من الرائحة الخفيفة، واللُّحوحة، الصاعدة من أوعية العسل المختومةُ فوّهاتُها بالطين.

تربّعتِ المرأةُ وبناتها الستُّ على الأرض المكسوَّة بحُصُر مستطيلة رقيقة، باسطاتٍ وسط حلقتهنّ صَحْفَةً واسعة من معدن رقيق، وضَعْنَ عليها كومة كبيرة من برغل جرى

نَقْعُه في الماء طويلاً حتى صار كالعجين، ثم عَمَدْنَ إلى بصلٍ كثير فَرَمْنَهُ فَرْماً ناعماً، فيما انكبّت إحداهنّ على آلة تدار باليد، فتضعُ فيه لحماً من فوّهته العُلْويّة ليخرج من فوّهة أخرى، ذات ثقوب، مطحوناً على شكل خيوط لا تلبث أن تتكسر حين تلامس الصحن الذي يتلقّفها. وحين تكوّم من اللحم المطحون ما يكفي، جَبَلَتْهُ «كسبو» مع البصل، بإضافةِ توابل، وملح، وبقدونس، وهي تنهرُ ابنتَها «هيلين»، بين وقت وآخر، لأن الصغيرة تستعذب أكلَ عجينة البرغل نيئةً.

وُضِعَ اللحم المجبول بالبصل في مقلاة أشرفتْ «عيشانَهْ» على قَلْيِهِ من غير أن ينضج، وسط كلمات، وإشارات من «كسبو»: «حرّكيها»، وتحرّكُ ذراعَها في الهواء على شكل دائري، ثم تديرُ أصابعَها كأنما تديرُ بوصلةَ مذياعٍ: «خفّفي النارَ. الا تشمّين احتراق ردفك؟». و«كسبو» لا تقوم، في هذه الأثناء، من مجلسها على الحصير الرقيق، فيما ابنتها التي تقلي اللحم والبصل واقفةٌ قرب منضدة مستطيلة ذات عَرْضٍ ضيق، رقد فوقها موقد غاز بثلاث عيون، وبدت القارورة الصدئة عارية من تحت تلك المنضدة، وقد التفَّ أنبوبُها المطاطي، الذي يصلها بالموقد، على نفسه عدّة مرات. وحين رفعت «كسبو» يدها، أخيراً، نزلتِ المقلاةُ لتستقرّ على الصُّحفة المعدنية، قرب عجينة البرغل، فاشرأبَّ عنقُ «هيلين» الصغيرة، واندفع نصف جذعها صوب الصُّحفة باديةَ الفضول، فَرَدَّتْها أمُّها بضربة خفيفة من مرفقها على صدر الطفلة: «أتريدين أن تسقطي في المقلاة؟ ها؟ إنها حامية.. حامية»، وأمسكت بإحدى أصابع ابنتها، ثم لمستْ بها حافة المعدن المسودّ من الدخان، فسلّتِ الصغيرة يدها بقوة من يد امّها وهي تولول، بينما تمتمتْ «كسبو» متشفّيةً، دون حقد: «في وسعكِ، الآن، أن تجلسي في المقلاة إذا أردتِ، يا روحي».

قليلاً قليلاً كانت كتلة العجين الخشن تتضاءل تحت حركات الأيدي التي تقتطف منها كراتٍ متساويةَ الأحجام. ثم تنثقبُ تلك الكراتُ بالأصابعُ المبلولة بالماء لئلاّ تلتصق بها، وتُدار بعدئذ فتغدو مجوّفةً فتُمْلأ باللحم المجبول بالبصل، وتُخْتَمُ فوّهاتُها بتقريبِ حوافِها حتى تتلاصقَ. إذ ذاك تُضْغَطُ كلُّ كرةٍ في تجويفِ راحتيْ يدين متقابلتين من أيدي بنات «كسبو»، فتصير اسطوانيّةً منتفخةً انتفاخاً هيّناً من الوسط. عند هذا الحدّ

تكون «الكُبَّة» جاهزة للطّهو، فتوضع كل أسطوانة صغيرة لصق الأخرى على الصَّحفة، في صفوف دائرية، أو مستقيمة، بحسب الأمزجة.

كان غداء العائلة يُحَضَّرُ في هدوء، وسط هالات بخارهِ الذي يفتح لنفسه ممرّاتٍ بين حواف الطنجرة الضخمة وغطائها، بعيداً عن العراك الذي نشب، فجاءةً، بين بنات «كسبو» اللواتي انسحبن من المطبخ إلى غرفة أخرى. ومن ثم توقف العراك، فجاءةً أيضاً، كما بدأ، لتتسابق البناتُ خارجاتٍ إلى ساحة الدار، بعدما هتفت إحداهن: «المذياع.. المذياع»، وكانت قريبةً من النافذة الخلفية للمنزل، المطلة على الشارع، فرأتْ «دينو» قادماً.

لم يتسنَّ لبنات «كسبو» أن يفتحن البوابة لأخيهنّ، برغم تدافعهنّ، لأن الشاب بلغها قبلهنّ، من الجهة الأخرى، ودلف بالمذياع إلى ساحة الدار. لكنّهن كدن يُسْقِطْنَهُ أرضاً إذ ارتطمن به وهنّ يلمسن الصندوق الورقي الصلب، فنفخ «دينو» ملء فمه: «يااااه»، فهدأن قليلاً، وفتحن له ممرّاً بينهن، فتوجه الشاب إلى أقرب سرير خشبي، ووضع المذياع عليه مريِّحاً ذراعه المتيبِّسة. والأسرة الخشبية الضخمة المنصوبة في الساحة، لا تبقى في أمكنتها هناك إلاّ أشهر الصيف، ومن ثم تعمد العائلة إلى فكّها قِطَعاً لتستقرَّ داخل مستودع متّصل بغرفة المضافة، حيث تبقى متكئةً على الحيطان بانتظار صيفٍ آخر.

خرجت «كسبو» بدورها لكنها لم تُجاوز عتبةَ الباب. ألقت نظراتٍ من مكانها على الصندوق المستطيل، المستقرّ على حافة السرير الخشبي، مبتسمةً، وهي ترى بناتها واجماتٍ قليلاً بفعل الوعيد الظاهر في عيني أخيهنّ الخضراوين. ظلّلتْ عينيها بيدٍ وأشارت بالأخرى إلى المذياع، مخاطبةً ابنها: «أتَسْلُقُه؟»، فردّ «دينو» ساخراً: «إنه صنف جديد يا أمي، يعمل بحرارة الشمس»، فكادت تصدّقه لولا ضحكُ بناتها.

كثيرون مرّوا على مخزن «حمدي آزاد» ذلك اليوم. وكان الرجل، حين انتصف النهار، يقوم بحركات معتادة مثل إغلاقِ أدراج المنضدة ـ التي يحفظ فيها مقصّاتٍ، ودفاترَ، وعيّنات قماش، ومغلّفات رسائل، وأوراقاً مسطّرة ـ بقوة، ووَضْعِ المتر الحديديِّ على رفٍّ خلفه، وتعديلِ حطّته المعقودة حول رأسه كعمامةٍ حتى ولو لم تكن قد مالتْ،

والنَّقْرِ قليلاً على سطح علبةِ تبغه المعدنية كأنما ليطمئنّ إلى أنه لم ينسَ شيئاً. إذ ذاك يعرف من لم ينصرف بعدُ أن «حمدي» مقبلٌ على إغلاق المخزن، فينصرف.

تلمَّس «حمدي» جيبَ قميصه الواسع قبل أن يدير المفتاح في القفل النحاسي مغادراً السرداب الذي يصل باب مخزنه بعَرَصاتِ السوق المسقوف، وهو ـ في حركته تلك ـ كان يتأكد من وجود الرسالة المطوية داخل مغلّفها قرب أضلاعه اليسرى، التي يعلوها جيب القميص الكاكي. وقد استغرقته الكتابة، بحروفها اللاتينية المتجاورة بانتظام، أوقاتاً متقطّعة بين مجيء زائر ورواح زائر. ولم تكن الأسطر كثيرة، على أية حال، لكنها تفي بالذي يريده «حمدي» من شخص مّا في ايران، بعدما تعلّم القليلَ من الكتابة بالكردية. ومغلف الرسالة موشّى، بالطبع، بطوابع لها ثمن محسوب، بعدما سأل «حمدي» عمّا تكلّفه إرسال رسالة إلى ايران، واشترى مذ ذاك طوابع كثيرة حفظها في أحد أدراج منضدته، ليقتطع منها عدداً محدوداً، ومتساوياً، كلَّ مرّة. لكن لم يعرف أيُّ ساعي بريدٍ ايراني ـ قَطْعاً ـ الحكمةَ في أن يوجه امرىء مّا، من بلد بعيد، وبشكل مُنتظم، هذا العدد من الرسائل إلى عنوان غير موجود في سجلّات البريد، وإلى شخص له لقب وزير مكتوب على نحوٍ يستطيع الساعي فهم المُراد منه، لكن ما من وزير في دولة ذلك الساعي يحمل الإسم المكتوب على مغلّفات رسائل «حمدي»، في التاريخ القريب أو البعيد من تاريخ كتابتها. بل لن يعرف أيّ ساعي بريدٍ إيراني، قط، وزيراً بالإسم الذي يراسله «حمدي»، منذ أوّل كسرى إلى آخر شاهٍ. أمّا «حمدي» فلم يكن يعنيه، يقيناً، أن يهتدي السُّعاة إلى عنوان كان صحيحاً، ربّما، قبل حوالى ربع قرن، في بلدة لم تكن لها أسماء شوارع، بل تُكَنّى أزقّتها ودروبُها بأسماء العائلات الأكثر قِدَماً في سُكناها.

سيكتب «حمدي». سيكتب حتى آخر حبر في مكتبات مدينة القامشلي، ما دام في مستطاعه، الآن، أن يخاطب شخصاً مّا بحروف على الورق تخرج من تحت شاربيه، المصفرّين من التدخين، أثناء كتابتها، كأنما يُوْدِعها جزءاً من صوته أيضاً. سيكتب «حمدي»، أياماً بعد أيام، إلى وزير التعليم في حكومة «القاضي محمد» المغدورة. لقد كان في مقدوره أن يوجّه رسائله إلى أيِّ شخص، غير أنه اختار وزيراً

مراسلاته، وللوزراء هيبة على أية حال، كما أن لدى «حمدي» الكثير ممّا يقوله، أو يصفه. نعم. هكذا سيكتب «حمدي»؛ سيكتب حتى تتشقق ريشة قلمه الـ «ترُوبْن» الذهبية، المخصّصة ـ بخطها العريض ـ لتجسيم الحروف أكثر. وسيركّز على أمر البعثات التعليمية، التي كان ذلك الوزير قيِّماً على تدبيرها بين جمهورية «مهاباد» وبلاد السوفييت: «مَمْ، خادمُك، متعلِّمٌ يا معالي الوزير»، سيكتب «حمدي». سيكتب. سيكتب، وسيُري زوجةَ «كسبو»، في خيلاءٍ، خطوطَهُ المتوازيةَ، فيما ستكتم المرأة، بإصرار، إعجابَها. سيكتب «حمدي» ورقةً مُسطَّرةً تِلْوَ ورقةٍ مُسَطَّرةٍ، وفي مروره بمبنى البريد ذاهباً إلى مخزنه. أو آيباً من مخزنه إلى البيت، سيعرِّج على المبنى ذي الجدران الخشنة، وسيتجه إلى الصندوق الحديدي المثبّت إلى الجدار، من الخارج، على جهة ما من الباب، ليدفع برسالته دفعاً رقيقاً من الشقّ المعتم الذي يعلوه غطاءٌ كالقبعة، سينفخ ـ بعد ذلك ـ في الشَقّ ليتأكد أن الرسالة انحدرت إلى أعماق ذلك الغول الصغير، الذي يحيط برحمته المعدنية أسرارَ المستسلمين إلى الحبر. وسيودِّع ذلك الصندوقَ بنظرة أملٍ حنونةٍ، ليسمع ـ طوال ما تبقّى من الطريق إلى البيت ـ حفيفَ رسالته وهي تتمايل في انحدارها من المَهْبَط الشاسع في قلبه صوبَ قمم شجر الشّربين العالي على ضفتي نهر «صابلاغ». ومن غير أن ترتطم الرسالة بقمم الشجر، سيتواطأ الهواءُ مع «حمدي»، فيدفعُها مقدار مترين أبعدَ، حيث الصّفُّ الأولُ من بيوت بلدة «مهاباد». ولا يهمُّ ـ بعد ذلك ـ أين تَستقرّ الرسالة، لأنها ستنتقل من يد إلى يد، بين الذين يقرأون والذين لا يعرفون القراءة، ليحملها ـ أخيراً ـ ساعي خيرٍ، فيقرع بابَ بيت الوزير، لتفتح فتاة. أو فتى، أو امرأة، أو طفلة. سيبتسم ساعي الخير، وسيبتسم الشخص الذي يفتح الباب. ستمتدُّ يدُ ساعي الخير بالرسالة، وستمتدُّ يدُ الذي يفتح الباب. نصف الرسالة سيكون بين أصابع ساعي الخير، ونصفها الآخر بين أصابع الذي يفتح الباب. سيرخي الأولُ أنامله عن المغلَّف الرقيق، وسيشدّ الآخر عليه. سيعود ساعي الخيرِ أدراجَه، فيما سترتفع من خلفه طقطقةُ مزلاج الباب الذي يُوْصَد.

بالخطوات ذاتها، المحسوبةِ، على الأرض المُبَلَّطة أمام مبنى البريد، تقدَّمَ «حمدي»، للمرة غير المعدودة، صوبَ الصندوق المعدني ليدفع إلى أعماقه برسالته

الجديدة، ذلك اليوم الذي اشترى فيه المذياع، ومن ثم أكمل خطاه في الظهيرة المتشقّقة كَذُرَةٍ على صفيح مُحمّى، سالكاً الطريق ذاتها التي شهدتْ أنفاسَ ابنه «دينو» وهو ينقل المذياع من إبطٍ إلى إبط. ولمّا دلف إلى ساحة بيته من البوّابة الحديدية، وانعطف يساراً إلى حيث غرفة العائلة، ألفى زوجَهُ وبناته وابنه «دينو» متحلّقين، جلوساً على الأرض، من حول صَحْفة الطعام، وقد ارتفع فوقها هرمٌ صغير من أقراص الكبّة الأُسطوانية الساخنة، فيما توزّعتْ قرب الهرم أوعيةٌ صغيرة ملأى باللبن.

خلع «حمدي» خُفّيه الجلديين ذَوَي الخروم الكثيرة التي تتيح للقدمين أن تتنفّسا، وجلس من فوره في المكان الذي وسّعت له ابنتاه «وَلاَتْ» و «رحيمة»، وهو يتنهّد بصوت عالٍ تدليلاً على استساغته لرائحة الطعام. حمل بيديه الاثنتين طاسة فضية فيها لبن رائب، وتجرّع منها ملء فمه، ولمّا أعادها إلى حيث كانتْ كشفَ عن رأسه ذي الشَّعر الحليق، ماسحاً جبينه بحطّته التي كان يعتمرها، ومن ثم لوّح بها كالمروحة أمام صدره ووجهه قبل أن يلقي بها خلف ظهره، كيفما اتّفق، وهمهم في اللحظة التي رفع فيه قُرْصَ كُبّةٍ إلى فمه: «أين مَمْ؟».

كان صمت الآخرين دليلاً على أنهم، بدورهم، لا يعرفون أين «مَمْ». غير أنهم لم يتوقّفوا عن مضغ طعامهم كما فعل «حمدي»، الذي غَزّا حاجبيه بعضُ التجهُّم. وقد ارتدّ إلى الوراء قليلاً، ناظراً إلى صَحفة الطعام في تأمُّلٍ دام برهةً، ثم انحنى عليها من جديد وهو يهزّ رأسه استنكاراً.

حين انتهت العائلة من طعامها استلقى كل فَرْدٍ منها في مكانه، بفعل خَدَر الامتلاء وحرارة الظهيرة معاً. وحدها «كسبو» انكبّت على الصَّحفة تجمع عنها أوعية اللبن الفارغة، وطاسات الماء المزخرفة، وفتافيتَ الكُبّة. ولم تمضِ دقائق حتى عادت الأمور إلى نصابها إثْرَ معركةِ الجوع، فيما توسّد المُسْتَلقون على حصير الغرفة وسائدَ صغيرة، وقد اتّخذَ كل واحد لنفسه زاويةً يطمئن إليها بجسده وبأحلام يقظته. أما «كسبو» فآثرت أن تمدَّ لنفسها سجادة قطنية على أرض المطبخ الباردة، لتغفو بدورها، قرب الصَّحفة التي عليها أن تنتظر نهوضَ المرأة من قيلولتها لتعودَ نظيفةً.

هدوءٌ راكدٌ غطى غرفة العائلة المُسْدَلة الستائر على شبابيكها لعزل هواء الداخل

عن وهج الخارج. أما الساحة، في ما وراء باب تلك الغرفة غير المُوْصد، فكان لها شأنٌ آخر تحت مراوح القيظ الثقيلة، حتى أن شجرتي الكينا الضخمتين تهدَّلتا، وتزاحمت العصافير على الأركان الظليلة بين أوراقها متوعِّدَةً. وفي الجهة الشمالية من الساحة، كان لحقل «كسبو» وَضْعٌ قَلِق، فما تكاد زهرة أن تنام حتّى تفيق مُجْفَلَةً. فالنّحل ـ بما في طبعه من بِدَعٍ، وقيافةٍ للعبث ـ يُؤْثِرُ أن يدحرجَ الزهرَ النعسانَ إلى الهاوية المفتوحة كقرص عسل. فكلّما زيَّن القيظُ شهوتَهُ، وأسالَ سراباً من «مُخَاط الشيطان»، تأجَّجَ النحلُ، وباتَ على مزاجٍ يرى معه الزّهرَ صفاقةً نباتية، فيلقي مواعظَ من طنينٍ، مُبَشِّراً بقيامة كلِّ ما فيها غمامٌ، وكواكب صغيرةٌ من شمع تدور على إهليلجها قُفرانٌ شفيفة. ولا يسع زهور حقل «كسبو» إلاّ أن تسمع، بحكمةٍ قَدَريّةٍ، ما يُفصِّلهُ النحلُ من خطبتِهِ وما لا يفصِّله، مضحّيةً كلَّ ظهيرة ـ على مضضٍ ـ بقيلولتها التي ستبقى مفقودة إلى الأبد، ما دامت الأزاهـر تترعرع في الفصول ذاتها التي تكتمل للنحل فصاحتُهُ المصنَّفَةُ للكونِ تصانيفَ ستةً، مثل شكل الخلية في قرص الشمع. لكن، لو قُدِّر لـ «كسبو» أن تلتقط، في فراغ مَا من الفراغات الرطبة في قيلولتها، شكوى الحقل، لأفاقت مُشْفِقَةً، وخرجتْ متجهة إلى كوخ النحل وهي تضيِّق ما بين أجفانها اتّقاء وهج الساحة، ولوقفتْ بعد ذلك في مواجهة القُفران مطوِّقةً خصرَها بيديها: «ألا تستحين يا نحلات؟».

يقيناً، لن يتنصَّل النحل من أنه يعبث براحةِ أزاهير «كسبو»، لكنه سيحاول تبرير ذلك، مدفوعاً بشهوته إلى الجدال كلّما ازداد القيظ: «أنت ترين ـ يا سيدة كسبو ـ أن أزاهيرك لم تعـد صريحـةً». وسـتـردُّ «كسبـو»: «بل أرى أنهنّ صريحات. حقلي كلُّه صريح». وسيتأفّف النحل قليلاً من جوابها، قائلاً: «لَسْنَ صريحاتٍ، هذا الصيف، يا سيدة كسبو». وستقاطع المرأة نَحْلَها: «وما الذي ينبغي على أزاهري أن يصرِّحْنَ به، أيها النحل؟». وسيردُّ النحل: «اسأليهنّ». لكن «كسبو» ستحتدُّ قليلاً: «إنني أسألك أنتَ، أيها النحل». إذ ذاك سيحوِّم النحل في طيرانٍ دائريٍّ، بعضُه خلف بعض، يشحذُ فكرتَهُ ويصقلُها:

النحل: «ما الذي تظنّين أننا نجمع من حقلك؟».

«كسبو»: «الهواء».

النحل: «لا. نجمع ما هو فكرتُنا».

«كسبو»: «الهواء فكرتُكم، إذاً؟!».

النحل: «نعم يا سيدة كسبو، ونحن لا نجمع الهواء، بل...».

«كسبو»: «أظنُّك تجمع القُنَّبيط...».

النحل: «ليس هنالك من قُنَّبيط في حقلك، يا سيدة كسبو».

«كسبو»: «وما الذي تجمع، أيها النحل، غير العسل؟».

النحل: «يا سيدة كسبو، نحن لا نمزح».

«كسبو»: «لم أعرف أن نحلي مهرِّجٌ إلى هذا الحدّ».

النحل: «حقلك هو المهرِّج، يا سيدة كسبو».

«كسبو»: «فلنضعْ حدّاً لهذا. ما الذي تجمعه، إذاً، أيها النحل؟».

النحل: «أجمعُ صورتَك المتناثرة».

«كسبو»: «صورتي أنا؟».

النحل: «نعم».

«كسبو»: «وممَّن تجمع صورتي المتناثرة؟».

النحل: «من خيالِ أزاهيرك».

«كسبو»: «لا داعي لجمعها، فلتبق صورتي في خيال أزاهيري».

النحل: «لن تتعرَّفي إلى نفسك بعد الآن، يا سيدة كسبو».

وستلتفت «كسبو» إلى أزاهيرها، باديةَ البَرَم من وقفتها أمام قُفران النحل، صارخةً من مكانها ذاك: «ما الذي تعتقدين أن نحلي يريد قوله أيتها الأزاهير؟»، وسترتفع صرخةُ الحقل، من الجهة الشمالية لساحة الدار: «انتبهي. إن نحلك يهرب يا سيدة كسبو».

كانت «كسبو» غارقة في قيلولتها الساخنة حين جاءها صوتُ حقلها من أعماق حُلُم مشوَّش، فيه الكثير من الطنين، فاستوتْ قاعدةً، ثم مطَّت عنقها صوب باب المطبخ الموارَبِ تُصغي، فعرفت أن ملكة جديدة هربت بأتباعها من النحل، فهرعت حافية إلى الساحة لترى عنقوداً ضخماً من حشَراتها الدؤوبة يتدلى من غصن مقصوص في إحدى شجرتي الكينا.

لم تضيع «كسبو» ثانيةً واحدة، إذ جاءتْ بقفيرٍ طينيٍّ مُعَدٍّ سلفاً لمهمته، ثم لفّت يَدها اليمنى بغطاء رأسها وأنزلتِ النحلَ، حفنةً حفنةً، إلى القفير من فوّهته الخلفية. ولمّا جمعتِ العنقودَ الحَشَريَّ كلّه في منزله الجديد، وضعت على الفوّهة غطاءً دائرياً من طين أيضاً، وأسندتِ القفير ـ واقفاً ـ إلى جذع الشجرة، لتهرول فتأتي بإبريق ماءٍ فتجبلَ طيناً من تراب الساحة وتلحم به الغطاء إلى جسم القفير. ثم تركته هناك ريثما يجفّ، لتضعه، بعدئذ، فوق الصّفّ العُلويّ من هَرَم قُفرانها.

حين كانت «كسبو» تغسل يديها ممّا علق بهما من طين، كان ابنها «دينو» يخرج من باب الغرفة لاهثاً، وهو يدور بعينيه المحمرّتين، بفعل القيلولة، على الزاوية التي يشكّلها تقاطعُ منزلٍ جنوبيٍّ بظهرهِ مع غُرَف بيتهم الواقعة إلى الشرق من الساحة. ولمّا لم يقع «دينو» على ضالّته، حمحم: «أين الجرة يا أمي؟»، فتوقّفت المرأة عن سَكْبِ الماء على يديها، مجيبةً: «نقلتُها إلى المطبخ»، ثم تمعّنت في هيئته، تستجلي فيها سبب سؤاله عن الجرّة التي لا تتركها «كسبو» في ساحة الدار، قط، حين ينتشر القيظ. والجرّة الضخمة، الثابتة وسط حلقة حديدية لها ركائز عالية كالأرجل، تنتقل بمائها إلى الساحة في المغيب، ليبترد ماؤها طوال ليل الصيف النّديّ، وتعود إلى داخل الغرف في الشروق، لتوضع في ركن قريب من الباب عادةً، ومن ثم تُحاطُ بكيس سميك من الخيش المبلول حتى تأزف ساعة خروجها إلى الساحة، من جديد. والذي استرعى «كسبو»، في اللحظة تلك، أن ابنها «دينو» يبحث عن الجرة في الساحة، في وقت حريٌّ به أن يعرف بوجودها داخل المطبخ، أو غرفة العائلة. وكأنّما استدرك الشاب، بدوره، من نظرات أمّه، أنه أخطأ الاتجاه، فعاد أدراجه داخلاً إلى الغرفة ليتوجه منها إلى الباب المفضي إلى المطبخ، ولمّا بلغ الجرّةَ المبلولة أدلى بطاسة ذات مقبض طويل إلى أحشائها، ثم سحب الطاسة الطافحة ليتجرّع منها، فيما الماء ينسكب على ذقنه، ويسيل منها إلى رقبته، فصدره. وحين أفرغ ما في الطاسة في جوفه عاد فملأها من جديد، لاهثاً، بعدما حبس أنفاسه طويلاً وهو يشرب الماء. وإذ ارتوى، دلق بعضَ الماءِ من الطاسة في راحة يده اليسرى المكوّرة ورشق به وجهه مغمض العينين، ثم فتح فمه وشَهَق.

الجميع يفيقون من القيلولة عِطاشاً، في العادة، لكن ظمأ «دينو» لم يكن بسبب الحرارة والوجبة الدسمة فحسب، لأنه دار على نفسه ـ بعدما علّق الطاسة من حَلَقة في مقبضها إلى خطّاف صغير متصل بمقبض الجرّة ـ باحثاً عمّن يشرح له أنه كان يركض في حلم رآه قبل دقائق. غير أنه طأطأ رأسه، وهدّل كتفيه، كأنه يتراجع، إذ لا شيء يبعث على الفضول قط في قوله إنه كان يركض في حلمه، فالجميع يركضون في أحلامهم ركضاً يشبه الطيران الخفيف، أو الزحف الثقيل على الرُّكب من شدّة الهلع.

شدَّ «دينو» طرف قميصه من تحت حزام البنطال، وانحنى يمسح به وجهه. وقد توقّف في انحناءته تلك ليتحسّس ركبتيه بأصابعه فآلمتاه، فشمّر عنهما ليرى تسلُّخاً هيّناً في جلدهما، وبعض الخدوش نزولاً حتى ظاهر قدميه، فاستقام فجاءةً، والتفت بعنقه صوب باب المطبخ المفتوح على الساحة المرتجفة من القيظ، دون قَصْدِ التطلُّع إلى الساحة، هامساً: «لن تسبقني يا مَمْ». لكنه لم يكن متأكداً ـ بالطبع ـ من تهديده، لأنه كان يخوض السباقَ الغامض في مكانٍ مّا من أعماقه بأطرافٍ أربعة، وليس بساقين آدميتين. وكان هو وتوأمه يشقان بصدريهما القريبين من الأرض ممرّات بين عشب ثقيل، وشجيرات قصيرة، وجداول مياه، لاهثين يستنشقان وبَرَاً أبيض يتطاير من أكمام نباتٍ شوكيٍّ، ممتزجاً بأنفاس السَّعَالَى وهي تُرْضِع الصَّيف من أثدائها.

استدار «دينو» ليخرج من المطبخ فكاد يصطدم بأبيه الداخل باحثاً عن الجرّة، فتوقّف دون سبب، فيما تجرّع «حمدي» طاسة من الماء، وسكب ما تبقى في قاعها على كيس الخيش الملتفّ على الجرّة لتبقى رطبة، ثم التفت إلى «دينو» سائلاً: «أين مَمْ؟».

لم يجب «دينو»، بل فكّ أزرار قميصه، وسحب أطرافه من تحت حزام البنطال ليخلعه عنه، فتطايرتْ من ثنيةٍ فيه ريشةٌ صغيرة رمادية، تمايلت طويلاً في الهواء على مرأى منه كأنّما تهوي إلى مكان سحيق، حتى أنه سَرَح عن أبيه الذي كرّر السؤال «أين مَمْ؟» في خروجه من المطبخ متأفّفاً. وقد انحنى «دينو» على الريشة، حين استقرّت على الأرض، فحملها بسبّابته وإبهامه ليحدّق فيها ملياً، ومن ثم أرخى إصبعيه فتهاوت الريشة ثانيةً تتمايل كأنّما فمٌ خفيٌّ ينفخ عليها نفخاً خفيفاً، أو تداعبها يدٌ شفيفة. عند ذاك عاد «دينو» يستكمل خَلْعَ قميصه، وما كاد يلقي به فوق أحد أكياس المؤونة حتى ارتفع صوت

أبيه من جديد، آتياً من مكان قريب من البوّابة، وهو يُحمّل احدى بناته، على الأرجح، رسالةً فيها شكوى من غياب «مَمْ»، لكن الكلمات لم تكن واضحة، لأن الرجل جاوز البوّابة ماضياً إلى مخزنه في سوق المدينة، كعادته عصرَ كلِّ يوم. ولأوّل مرة، ربّما، منذ اجتماع العائلة على الغداء، ساءل «دينو» نفْسَهُ عن غياب أخيه. وقد اتّجه في قميصه القطني الداخلي الأبيض، الذي من غير كُمَّين، إلى أمّه المنصتة، في رضا، إلى مملكة نحلها، فداس بقدمه الحافية بقيّةَ طين من الجبلة التي ختمت بها «كسبو» غطاءَ القفير الجديد، فشتم شخصاً دون تعيين: «يا فَرْجَ العَنْز»، وأكمل تقدُّمه ـ من وراء إحدى شجرتي الكينا ـ صوب أمّه: «منذ متى خرج مَمْ، يا أمي؟» سألها.

انسحب الرضا الباذخ عن ملامح «كسبو»، وعن وقفتها المستقيمة المُسْتَعْرِضة، فحدَّقت في ابنها وقد ارتخت شفتها السفلى: «لا أتذكر»، وأطرقت متفكّرة: «لا أعلم. اسأل أخواتك. كنتُ نائمة في الصباح، ولم أره يخرج. ربّما رأته إحداهن». ثم عادت تُنـظر في عيني إبنها الخضراوين: «أظنني سمعته ينـزل السلّم في الليل. عدتُ فغفوت»، واستدركتْ: «في الليلة قبل الماضية، أيضاً، سمعتُهُ ينزل السلّم، وأفقْتُ عليه يصعدُهُ في الفجر. عنده إبريق ماء فوق السطح»، ولم تُضِفْ أن «مَمْ» قد ينزل ليتبوَّل ربّما، فهما يعرفان أن «مَمْ» لا يكلّف نفسه مشقّة نزولٍ وصعودٍ تبدّدُ النعاسَ، يكفيه أن يوسِّـع فتحـةَ منـامته، متوجهاً من فوق السطح إلى الشارع، ليرتفع صوتٌ كصوتِ انحدار الماء من المزراب على الإسفلت الصلب، فيما وراء البيت.

حين ساءل «دينو» أخواتِهِ خَرَقْنَ أذنيه بحكايات تتدحرج كحبّاتِ الوَدَعِ في قاعٍ صاجٍ، فطغت الأصـواتُ على الكلمـات، وتـداخلت الـرواية الواحدة، والتحمتْ، وتقـطّعتْ، وتعارضتْ، كأنما لَسْنَ آدمياتٍ بألسنةٍ، بل دجاج ينبش الأرض في ظلال شجرتي الكينا، ليرقد على بطنه فوق التراب الرّطب، أو الأقل سخونة. فانسحب الشاب من وسطهن لائماً نفْسَه على وقوعه فريسة بين ضفادع الطين تلك، اللائي كُنَّ متجمّعاتٍ قرب المذياع الموضوع فوق صندوقه، وقد غطته قطعةٌ من الدانتيل المُخرَّم المسدل فوق جهاته كلّها إلاّ واجهتَهُ. وهنَّ كُنَّ ينقّلْنَ المؤشّرَ على محطّات البثّ دون تثبيته، فكلّ واحدة تريد لنفسها خطّاً من خطوط الطول أو العَرض، بحسب الصخب الأكثر علوّاً في

طبول الإيقاع أو أنين المزاهر. وما من أحد يضبط انفلاتهن إلاّ «حمدي» حين يشعل لِفافةَ تبغ ويصغي بعينين سارحتين فتصغي بناته أيضاً. ويذكُر «دينو» أنه أغفى بعد الغداء على أبيه يتمتمُ، وهو مستلقٍ قرب مذياعه الجديد: «مذيعو هذه الآلة لم يتغذّوا بعد. حناجرهم جافّة»، ثم خفَّف الصوتَ دون أن يطفئه.

مرت ساعاتُ ما بعد تلك القيلولة العائلية، حتى المغيب، بطيئةً على البعض، وعاديّةً على البعض الآخر. ولمّا انحسرتِ الظلال كلُّها ـ ظلالُ العصافير، وشجرتي الكينا، والأسرّةِ الخشبية الضخمة، وجدران البيوت، والسور، وأزاهير «كسبو»، والنمل الأسود الخارج من أوكاره مع انحسار القيظ، والدجاجة الوحيدة التي ربضت، من جديد، على السور الغربي، هاربةً من مالكيها في الجهة الأخرى ـ تمدَّد القلقُ بظلّه المنشاريِّ كأوراق الحرشوف على ساحة بيت «حمدي»، تحت ضوء المصباح الكهربائي الضعيف، النافر من الجدار الخارجي لغرفة العائلة، وقد بدا الدهان من حوله متموّجاً، بسبب انتفاخات القشرة الكلسية من مكان إلى آخر في ذلك الجدار.

كانت العائلة قد فرغت من تناول بطيخ أحمر وبعض الجبنة، وتناثرت في الساحة بين جالس على أطراف الأسرَّة الخشبية، أو قطعة اللبّاد الطويلة، الممدّدة فوق حصى الساحة، حين دخل «حمدي»، ملقياً نظراتٍ على الجميع كأنّما يَعُدُّهم، قبل أن يختار لنفسه مكاناً على الأرض قرب قَصْعةٍ كانت تنتظره بما عليها من عنب وجبنة وخبز، فسارعت ابنته «هيلين» إلى الجلوس لصقه، فاقتطع «حمدي» حبة من عنقودٍ وضعها في فم الصغيرة، وهو يهمس في غيظ تشوبه لوعةٌ ملجومة: «أظنّه قد مات»، فمدَّت «كسبو» عنقها من مكان غير بعيد متسائلة: «مَنْ ماتَ؟»، فردَّ الرجل وهو يمضغ قطعة خبز: «الميت وحده يغيب عن البيت»، فأدركت «كسبو» أنه يعني ابنَه «مَمْ»، فجاهدت أن تنطق بكلماتٍ تواسيه بها، وتواسي نفسها: «إنه شابّ يا حمدي. لا خوف عليه». لكن كلماتها فجّرت احتدام زوجها الذي دفع القَصْعةَ بإحدى يديه فتناثر العنبُ من فوقها، وأُجْفِلتِ الصغيرةُ من نبرة صوته فالتصقتْ به: «أطوالَ اليوم يا كسبو؟ لو أَخْبَرَنا أنه ذاهبٌ إلى جهنّم لعرفنا أنه ذهب إلى جهنم»، قال «حمدي». ثم جرَّ القَصْعةَ صوبه مُطْرِقاً، فاقتطع حبّةً أخرى من العنب وضعها في فم «هيلين».

لم يأكل «حمدي» إلاّ لقيمات ازْدَرَدَها، لينكبَّ بعدها ـ بشراهة ـ على لفافات التبغ، صامتاً، في الساحة الراكدة بهوائها المسائي. لكن ذلك الصمت لم يدُم طويلاً، لأنّ جُلساء «حمدي» انحدروا ـ واحداً بعد الآخر ـ من البوابة الحديدية إلى غمامة حكاياته وحكاياتهم، التي تجلس بدورها على حصى الساحة. وكان أوّل الواصلين «قادرْ حمُوْ»، حامل صورة «سِمْكو آغا» التي تتململ في جيب سترته الصيفية، ومن ثم وصل شيرو بابان»، برائحته الشبيهة برائحة شَحْمٍ معدنيٍّ يُباعُ في صفائح زرقاء، وتبعه «مَوْلَى جانْ»، و«خُضْر شَيْخُوْ»، و«مَجيدو ميْرْفَانْ»، و«باقي رَشْ»، و«كَفْتَارْ حَسَن»، والصوفي رَجَب» ذو اللحية الحمراء. وقد اقتعدوا الحُصُرَ وسجاجيدَ اللبّاد المبسوطةَ متقابلةً قرب غرفة الضيوف، فيما دخلتْ نساءٌ أيضاً، من زوجات زائري «حمدي»، ومن جاراتٍ خرياتٍ وَجَدْنَ مُتَّسعاً من الوقتِ ليتسلّلن من ساحات بيوتهنّ إلى ساحة بيت «كسبو»، يجلسن معها، بعيداً عن الرجال، يتداولْنَ أحداثَ نهارِهِنَّ الرقيقِ كرغيف الصّاج.

كانت الأحاديث تدور هَمْساً من جانب إلى آخر في ساحة الدار، دون أن يلقي «حمدي» عليها بثقل قلقه على ابنه «مَمْ»، ودون أن تستسلم «كسبو» لذُعر أحشائها فيتَرَجْرَج الكلامُ ويُغَرْغرَ تحت لسانها. وقد شاركهما، على نحو متوازنٍ، أولادُهما، فصعدت البناتُ إلى الفُرُش المُمَدَّدة فوق الأسرَّة الخشبية، بعيداً عن الجميع، يُفَصِّلْنَ الحياةَ على مقاسات السنتهنَّ الرَّخْصَةِ، وانضمَّ «دينو» إلى جَمْعِ الرجال. أمّا السحالي الصغيرة، التي خرجت تلتقط الفَراشَ من حول المصباحين الكهربائيين، على طرفي الساحة، فآثرت الوقوفَ جامدةً في مواقعها، فلا يتحركُ منها إلاّ السنتها الطويلة، المُباغِتَةُ كبروق من صمغ، تقتنصُ الهوامَّ الكسولَ. ومن فوقَ الساحة، في الظلام الأعلى من تلك الخفافيش المُهرِّجة بطيرانها المُهرِّج، كانت النجوم الصغيرة تُفْسح أمكنةً لشقيقاتها الكبيرة، التي استيقظت من نومها النهاريِّ وهي تنفضُ ما علق بشَعْرها من ضياء فتتناثرُ الذُّرُوْرُ الفضّيةُ على هيئة مجرّات. وفي اللحظة التي قالت «كسبو» لجليساتها، بصوتها الخفيض، إنّ الملائكة هي المخوّلة بترتيب المجموعات النجميّة، وتنظيم سيرها القوسيّ من المساء إلى الفجر ـ والنجم الذي يستنفدُ التسبيحَ لله، بحسب عدد شعاعاته، يغيبُ أوّلاً ـ عَبَرَ شهابٌ عجولٌ مسافةَ ذراع في قبّة الليل، فبَسْمَلَتْ «كسبو»:

«لقد أصيب إبليس»، وأصغت مبتسمة، كأنّما ستسمع انهيار الهرم الخفيّ للشياطين التي يصعدُ واحدُها ظهر الآخر، على شكل سُلّم عظيم، ليأتي إبليس فيتسلّقهم إلى مسافة أشبار من العرش حتى يسترق السَّمْعَ على الله، لكن نجماً سيتطوّع ـ كما في كل ليلة ـ ليقذف بشبيههِ، المخلوقِ مثله من نارٍ، إلى سديم بعيدٍ يشقى فيه المُعذَّبُ حُبّاً بابتكار وجودهِ كمارقٍ.

«شهاب واحد يكفي»، قالت المرأةُ لجليساتها، وأضافت: «لكن الله كان يقذف إبليس بشهابين إذا أنزلَ الوحيَ على نبيِّه، ليبتعد ذلكَ الغيورُ من جمال الملاك جبريل إلى أسفل سافلين». ولم يكن عليها أن تصف جَمالَ الملاك الذي اؤتُمِنَ على الكلمات، فهو ينزلُ على رسول الله في صورة الصَّحابيِّ «دِحْيَة الكَلْبيِّ»، وكان أجمل أهل الدنيا ـ كما تقول الرواية التي تعرفها «كسبو» وجليساتُها ـ غنياً، قاد كتائبَ في معركة «اليرموك»، وله باعٌ في فتوح الشام. فإن عَمَدَ الواصفون إلى وصف جماله لم يجدوا ما يقرنون به من تشابيههم، فهو مثلُ مَنْ؟ «دِحْيَةُ» الصَّحابي جميلٌ إلى حدٍّ يُريحُ النبيَّ أن يرى جبريل على صورةِ حُسْنِهِ، فأيةُ مقاربةٍ للنساء أن يجدنها كي ينقادَ لهنَّ الوصفُ؟ وجليساتُ «كسبو» سينسين، بعد قليل، أمور الشُّهب التي تنسج، بتكرارٍ محسوبٍ في الخيوط وفي اللون، قَدَر إبليس المعذَّبِ حُبّاً بسلالمه المنصوبة على جدار الأعالي، لأنهنّ سيسترسلن في حديث رقراقٍ عن الماء. أما «حمدي آزاد»، المتكيء على وسادة بمرفقهِ، فقد افتتح حديثَهُ، مع المتكئين بمرافقهم على الوسائد المتناثرة فوق سُرادِق اللبّاد، عن مذياعه بالطبع، أول الأمر: «تعجبني شعور المذيعين» يقولُ، فيسأله سائل: «أترى المذيعين؟»، فيرد «حمدي»: «لا حاجة بي إلى أن أراهم لأعرف أنهم يدهنون شعورهم بمراهم الزيت»، وإذ يستثيرَ فضولَ الجالسين عن مقدرته على معرفة أمر كهذا، يبادرُهم شارحاً: «لا تشويش. لا خشخشة. لماذا؟ لأن الهواء يتزلَّج على شَعْر الواحد منهم، في نعومة، بسبب الزيت، فلا يتعثَّر. وإذا تعثر الهواء اختلط بعضه في بعض بالموجات التي يحملها، فيتشوَّش المذياع»، ولئلّا يدافع عن فكرته غير المحبوكة هذه، يغمغم مبتسماً في فراغ الساحة الشاحب: «دينو يدّعي ذلك»، ويهزّ رأسه استنكاراً: «بريانْتِيْنْ. سخام. من يدهن شَعْره بالزيوت؟ على أيةِ وسادة ينام، وأيَّ غبارٍ يتّقي؟

ها؟»، ويلتفت باحثاً عمَّن يؤيد كلامه، ثم يسرحُ بكلماته: «ماذا لو حمل الزيتون ماءً بدل الزيت؟».

لم يُعرِ الجالسون حديثَ «حمدي» الأخيرَ عن الزيوت، ودهانات الشَّعر، إصغاءً، لأنهم كانوا يؤيّدون كلام «شيرو بابان»، في الأثناء تلك، على صفقاتِ صفائح دبسِ عنب، وأكياس تمور، فانطوى «حمدي» قليلاً، شارداً وسط لِفافات تبغه: «أين مَمْ؟» يتساءل في صمت، وينفث مع الدخان من فمه قلقَهُ المكتوم، وقد فَجَأَهُ «قادِرْ خَمُّو» مستوضحاً بصوتٍ أجشّ، ويده على خدّه المنتفخ بسبب ضرس نَخِرٍ من أضراسه: «أين مَمْ، يا حمدي؟»، فأفاق الرجل كأنّما كان ينتظر من يشعل له فتيل الكلام: «في جهنّم»، فبوغتَ «قادرْ» من جواب «حمدي»، واحتداده المفاجىء، وتمتم: «مَمْ شاب طيب»، فقاطعه «حمدي»: «حتى من جهنّم يستطيع شاب طيّب أن يبلّغ أهله أنه في جهنم». فتدخّل جُلساءُ آخرون: «خيراً يا حمدي؟»، قالوا متسائلين، فردّ «حمدي»: «لم يعد منذ الصباح»، فَهَمْهم بعضهم مواسياً: «منذ الصباح؟ هذا وقت لا يدعو إلى القلق. هنالك من يغيب أياماً يا حمدي، ليظهر في بيروت، أو ديارْ بَكِرْ. الشبّان معذورون».

تفكّر «حمدي» في الموعد الذي حدّده لغياب «مَمْ»: «منذ الصباح». لا. إنه غير متأكد من أن يكون ابنه خرج في صباح ذلك اليوم، فهو يفيق مبكراً، ولم يرَ «مَمْ» خارجاً من البيت. لا بد أن يكون ذلك قد حصل فجراً. نعم. لكنه غير متأكد أيضاً، ولربّما يقيس «حمدي» الأمر بالليلة قبل الماضية، حين لمح ابنه يصعد السلّم فجراً، كأنما كان آتياً من البوّابة. ويكاد يشكّ في فكرةِ أنَّ ابنه قَدِم من جهة البوّابة، فذلك يعني أن «مَمْ» كان خارج البيت. «وماذا يفعل خارج البيت في ساعة من ساعات الفجر الندية التي يحلو فيها النوم؟»، يتساءل «حمدي»، ويستدرك معتذراً لنفسه ربّما عن تفسيرٍ كهذا: «كنتُ نصف نائم، فكيف أحدّد أنه جاء من جهة البوّابة؟». ويتوقف عند هذا الحدّ من محاولة حَصْرِ الوقت الذي خرج فيه «مَمْ» من البيت.

«كسبو» كانت أَقْدَرَ، في الجهة الأخرى من الساحة الشاحبة، على التحديد: خرج «مَمْ» من البيت في الوقت ذاته الذي خرج فيه في الليلة قبل الماضية. لكنه عاد

فجرَ تلك الليلة. «هيلين» الصغيرة أفاقت على صعود أخيها السلَّم فأيقظت أُمَّها قائلة في دلالٍ نعسان: «أنا خائفة»، فرفعت أمّها رأسها فاتحةً عيناً واحدة من عينيها، وعادت فدفنته في الوسادة: «إنه مَمْ يا روحي». هذا ما تؤكده «كسبو» لأعماقها الصامتة. غير أنها متأكدة، على نحوٍ مّا، أن ابنها لم يعد في فجر يومهم هذا، بعد نزوله ليلاً عن السطح، واصطفاق البوّابة الحديدية من ورائه اصطفاقاً خفيفاً لا يخفى على سمعها الحادّ. وهي لم تُبْدِ ـ على أية حال ـ ذُعْراً أو قلقاً طوال يومها، على عكس «حمدي». وفي الساعات الليلية التي تجاذبت فيها مع جليساتها أسرارَ المياه، باستفاضةٍ مُرْتَجلَةٍ، كانت أكثر صفاءً: «كلُّ شيءٍ معروضٌ على مياه النهر مثلما نعرض المخدّات على سُرّادق» قالت «كسبو»، وأضافت: «الأعمار، والحيواتُ، والنِّعمُ، والأقدار، والمواليدُ، والموتى، والسماء، والأرض، والريح، كلُّها مرصوفة رَصْفاً، متجاورةً، على مياه النهر»، وإذ تتقدّم إحدى النساء الجالسات بتوضيحٍ مُعْتَرِضٍ مثل: «على مياه نهر جَغْجَغْ»، تردُّ «كسبو» متهكّمةً: «أين هذا النَّهر، الذي يتبوّل فيه السابحون، من نهر الله الذي لا يلمسُ أرضاً، ولا يحدّده مجرى؟ نهر جَغْجَغْ مصنوع على مقاس طاحونة القامشلي، يا كبيرات العقل».

«حمدي»، أيضاً، شغلته المياه دون تمهيد يُذْكرُ، فيما كانت أحاديث جُلاّسه تتفاوت بين أسعار حصادات القمح المُسْتَحْدَثَةِ الغربية ـ التي تجمع القش، ذاتياً، في رُزَمٍ، على العكس من الحصّادات التي تُذَرِّيْه كثلجٍ ذهبيٍّ ـ وبين آخر أخبار رحيلِ «الهجّانة»، وهم حَرَس بادية جيء بهم إلى الشمال السوري الكردي، فألقوا الهلع في القلوب بعادات تنمُّ عن طبعِ سَلْبٍ ونَهْبٍ، وكان ينقصهم أن يعمدوا إلى سبي المدن الصغيرة والقرى، لولا أن أَلْهَمَ اللهُ الحكومةَ أن تعيدهم إلى أقاليم الرّمال البعيدة، ليختفوا بعد ذلك بسبب صراعات الأجهزة المتحكّمة في مقادير الجَبْذِ والنَّبْذِ.

صورةُ مزرابٍ مرّت ببال «حمدي» أول الأمر، وهو يتطلع من مكانه إلى سقف غرفة العائلة، الذي بدا مائلاً، كأنما ستتدفّق المياه من فوقه، فجاءةً، في اتجاه الساحة. وعلى نحوٍ آليٍّ التفتَ صوب البئر ذات السور الواطىء، والعارضتين الحديديتين اللتين تتعامدُ من فوقهما ماسورةٌ في وسطها عتلةٌ تصرُّ صريراً كلّما سحب أحدهم الدلو

المطّاطي الضخم، الذي لاح لـ «حمدي»، في التفاتته، معلّقاً في الهواء كرأسٍ مقطوع. وبئر ساحة بيت «حمدي»، الواقعة إلى الجهة الشمالية الشرقية، عميقة، اقتضى حَفْرُها وقتاً طويلاً للوصول إلى مسارب ماءٍ جوفيٍّ، بالرغم من أن بيت «حمدي» بُني في وقتٍ كانت ساقية صغيرة تمر قرب أساساته، آتيةً من مكان لم يكلّف الرجل نفسَهُ معرفةَ مصدره. وقد جفّت تلك الساقية ذات الضّفتين المكسوتين بالنعناع البريّ، بعد سنين قليلة من استقرار «حمدي» في ذلك الموضع، لكنّ ذكراها بقيت طويلاً في أعماقه وأعماق زوجه «كسبو»، إذ كانت تشمل المكانَ برواءٍ عَذبٍ، وبالكثير من الأُنس أيضاً، في ليالي الصيف بخاصّةٍ، قبل بناء السور العالي، الذي كان ردّاً غير محسوبٍ من «حمدي» على البيوت التي انبثقت كالفُطر - يوماً بعد يوم - في تلك الناحية، وكانت سبباً - ربّما - في رَدْم الساقية ذات الخرير الرخيم وهي تجري على الحصى وعلى أعماق الزوجين، وتتفتح لطفولة «مَمْ» و «دينو» الزاحفة وسط النعناع، وعناكب الماء الشرسة، وديدان الطين الحمراء، والسلطعونات الصغيرة، والدعاميص، ونقيق الضفادع. وكان يحلو للرجل أن يتوضأ بمائها في المساء تحديداً، بعدما وضع لَبِنَةً مستطيلة من الإسمنت على إحدى ضفتيها حتى لا تطأ قدماهُ الوحل، فيما يعمد التوأمان الصغيران إلى تقليد أبيهما بالكثير من الصخب، فلا تنجو ثيابهما كلُّها من البَلَل. وقد ضاق مجرى تلك الساقية يوماً بعد يوم، لتتّسع رقعةُ الطمي الجاف والحصى المُغْبَرّ على جانب الخيط الرفيع من الماء، الذي ازداد نحولاً حتى صار يلهث طويلاً ليعبرَ العيدانَ الصغيرةَ التي تعترضه. ومن ثم غار ذلك الخيطُ، تاركاً رطوبةً محتضِرةً على الرمل الناعم، وحفناتٍ من قواقع نهبها «مَمْ» و «دينو» حتى سالتْ من جيوب قمبازيهما على الفراش، حيث ينامان.

«أتريد ماءً؟» سألَ «دينو» والده الذي سعل سعالاً متّصلاً، بسبب لِفافة تبغ قدَّمها إليه «كَفْتارْ حسن» الجالس إلى ميمنته، فهزّ «حمدي» رأسه موافقاً، فزحف الشاب على ركبتيه صوب سطلٍ موضوع وسط الصفّين المتقابلين من زائري أبيه اللّيليين، وملأ مِغْرَفةً معدنية، ذات مقبض، من مائه الذي تتوسّطه قطعةُ جليدٍ سميكةٌ، طائفةٌ، ورجع زحفاً أيضاً ليقدّمها لأبيه. وقد عَرَضَ «حمدي» المِغْرَفة الملأى على الرجال الآخرين، مجاملةً

واحتراماً، فتمنّوا له العافية في شُرْبِهِ، فاحتسى الرجلُ ما في المِغْرفةِ رَشْفَةً رَشْفَةً، وأعادها إلى «دينو»، الذي دَلّق ما تبقّى في قاعها على الحصى، وردّها إلى السُّطل المعدني البارد. ومن ثم نهض بمبادرة من نفسه ليُحضِّرَ إبريقَ شاي للرّجال المتململين قليلاً من سهوِ «حمدي» عن ذِكْرِ الشاي، إذْ لن تتفتّق لأحدٍ منهم قريحةُ استحضار الليل كما ينبغي، بخفّتِهِ وجسارته كَلَيلٍ، دون رَشْفٍ قويٍّ من ذلك السائل الساخن، الذي يُرَطِّبُ دخانَ تبغهم فيتثاقل في صعوده مع الأحاديث النّهمة. وقد عبر «دينو» حلقةَ النساء، في الجهة الأخرى من الساحة، حيث استندت أمُّه بظهرها إلى ساق أحد الأسِرَّة الخشبية، متوجهاً إلى مطبخ غرفة العائلة، فأعدَّ الابريقَ المَطْليَّ الأزرقَ، الأكثر ضخامة بين أباريقهم، واستحضرَ الكؤوس ذات الأخاديد. وإذْ غليَ الماءُ ألقى الشابُّ في تلاطُم فقاعاته حفنةً من شاي أسود خشن، ثم أحْكَمَ على الإبريق الغطاءَ وتركه لِغَيظِ بخارهِ دقيقةً، ثم حمله في يد، وحمل في يده الأخرى الكؤوس والسُّكَّر على صَحْفةٍ انبثقت أزاهيرُ كثيرة من طلائها الأسود فغطّتِ الحوافَ كلَّها.

كرْكَرَات الرَّشْفِ من الكؤوس الساخنةِ غطّتْ على صرير زيزٍ أحمق ظلَّ ساهراً بسبب ضوء المصباح الساقط على جهةٍ من شجرتي الكينا، فيما قفزتْ سُرعُوْفةٌ ـ وهي حشرة خضراء يسمّونها «حصان النّبي» ـ على الصَّحْفَةِ المعدنيةِ فأحدَثَتْ صخباً ضحك منه «دينو»، قائلاً: «يريدُ حصّتَه من الشاي»، ثم حمله برفقٍ بين أصابعه وألقى به وراء ظهره، فأحْدَث سقوطُ الحشرة على الحصى خشخشةً خفيفة. تبعتْها خشخشةٌ أخرى من جرّاء قفزاتها السريعة صوب جهةٍ لم يأبه أحد بتحديدها. وفي الجهة الأخرى من الساحة الشاحبة، حيثُ النساءُ، غطّت القهقهاتُ على شجار بنات «حمدي» لسببٍ غيرِ معروف، ثم خفتتْ، وكذلك خفتتْ أحاديثُ الرجال، لتعمَّ سكينةٌ تُلْمَسُ لَمْساً باللسان حين انتشر في فضاء الساحة، على علوٍّ قليل من الأرض، سربُ حباحب على شكل مجرّة تتفرّق وتلتحم، دفْقَةً دفْقَةً، كأنما يحلج الظلامُ بعصاه المقوّسةِ صوفَ كبشٍ من نور.

تعبر الحباحبُ ـ هذه الديدانُ المجنّحةُ المضيئة ـ الساحاتِ، عادةً، فرادى، في طيرانٍ بطيء يمكِّنُ الصغارَ من جمعها في راحات أيديهم، ليلاً، فلا تلبث أن تموت

لرقّتها المتمادية. ولم يكن عادياً أن تظهر في سربٍ على ذلك النحو الذي ظهرت فيه، فوق ساحة «حمدي»، بأجسادها الرخوية، التي تضيء مؤخرّاتها إضاءةً متقطعة كضربات قلب نشرها النهارُ من خلفه لتترصّدَ حركةَ الليل. ولمرّةٍ أولى، غير معهودة، لم يدبّ الهياج في الصغيرات من بنات «حمدي»، اللواتي لا يتوانين عن استخدام المكنسة لالتقاطِ واحدة من هذه الكائنات، فلزمْنَ أمكنتهنّ فوق فُرُشِ الأسِرَّة، تاركاتٍ لعيونهنَّ وحدها أن تقتنص المجرَّةَ المضيئةَ التي تميس على ارتفاع أشبارٍ من أنفاسهنّ. أمّا تلك الحباحب، الواثقة في طيرانها المُتَمَهِّل، فلم تتساءل ـ هي نفسُها ـ عن الحكمة في قدومها إلى ساحة بيت «حمدي» على شكل سرب، وبقائها حائمةً لا تُبارِحُها. بل دنتْ، قليلاً قليلاً، حتى صارت في مستوى رؤوس الجالسين والجالسات في الساحة، كأنّما تتهيّأ ـ بمزاجها المرح ـ أن تداعب الوجوه.

حين استأذنت زائراتُ «كسبو» للخروج، واحدةً تلو الأخرى، مع ادّعاء كلٍّ منهنّ انها تأخرت في المكوث، كانت الحباحب ما تزال عائمة على موجٍ رقيقٍ من ظلام الساحة وشحوبها. لكنها تفرّقت قليلاً، حين قام الرجال الزائرون، جَمْعاً واحداً، خارجين من البوابة الحديدية، ولم يبق منها غير حفنة ربّما، أشرفتْ من مسافةِ طيرانها على انسلالِ «دينو» إلى فراشه، وبقاء «حمدي» جالساً على سُرادقِ اللّباد وحيداً مع لفافات تبغه، التي يتشظّى جمرها كلّما قذفَ الرجل بعقب واحدةٍ منها على الحصى. وقد تفرّقت الحفنةُ تلك، أيضاً، فيما بعد، حينما استطاع «حمدي» ـ أخيراً ـ أن ينحدر إلى فراغ نومه على زلّاجةٍ بيضاء من قلقٍ أليف.

أغادرت الحباحبُ فضاءَ الساحة؟ لا أحدٌ يدري. وإن كانت قد ظلّت هناك، ملتصقةً بشقوق الحيطان، والأثلام في لحاء شجرتي الكينا، فإنما شتّتَ ضياءُ الفجر لفاتكِ ما أعطاها الظلامُ من سطوةٍ تتمكّنُ بها من تعريفِ الظلام كعَبثٍ مضيء. وقد أفاق «حمدي» أولاً، من بين النائمين في الساحة، فلم يتذكّر من مجرّةِ الحباحب ما يستوقف ذاكرتَه، لأنه انشغل مع نفْسه بالبحث عن تبرير لبقائه على سُرادق اللّبّادِ، نائماً في جلبابه، وقد تغطّى بسجادة تستخدم للصلاة، بينما استقرّتْ رَجْفةٌ من برودة الفجر في أمعائه فتململَتْ أمعاؤه، بعيداً عن الفراش الوثير الذي كان حَرِيّاً بالرجل أن يهجعَ

إليه. وقبل أن يسترسل «حمدي» في استجلاء الحال التي ألْهتْهُ عن الرقاد في سريره الذي لم يغبْ عنه ليلةً قطّ، كانت العائلة تستيقظ فرداً فرداً، بين متّجهٍ إلى جرّة الماء، وبين مُنقادٍ لِضَغْطِ مثانته إلى المرحاض، لكن الجميع كان متأكداً، دون استقصاء، أن «مَمْ» ليس في فراشه على السطح.

لم يكلّم أحدٌ أحداً إلاّ بألفاظ ضرورية. والإفطار نفسه، من حول الصحفة المعدنية الجاهزة أبداً، غابت عنه الجَلَبةُ المعهودة للصباح المتعثر بفتافيت الخبز، ونثار السُكّر، وقَطْرِ الدّبس أو العسل، وبخار الشاي، والزيت الذي تسبح فيه كراتٌ من اللّبن المجفّف. وقد نهض «حمدي» وزوجه «كسبو» معاً، هو ينظر إليها وهي تنظر إليه. ولمّا عقدَ حول رأسه حطّته المرقّطة مثل عمامة صغيرة، دليلاً على التهيُّؤ للخروج، أمسكت «كسبو» بطرف كمّه، فهزّ رأسه موافقاً على أمر لا يعرف، بالتأكيد، ما هو. ثم اتّجه إلى البوابة خارجاً إلى مخزنه.

تعالتِ الشمسُ قويّةً وثقيلة، فتراجعتِ الظلالُ، رويداً رويداً، إلى وحشةِ جوهرها الضيّق، تماماً مثلما انسحبت «كسبو» وبناتها إلى داخل البيت، وهنّ يتبادلن نظراتٍ عصبية. أما «دينو» فقادته خطواته ـ بعد ساعة من خروج أبيه ـ إلى سوق القماش، ليكون قريباً ـ كرجلٍ ـ من المواجهة التي ستتمُّ، أخيراً، مع واقعة اختفاء «مَمْ» بما تستدعي من اتّصالات وبحث، بعيداً عن التعالي الأخرس الذي تواطأت العائلة به على نفسها طوال يوم ونصف نهار. وقد دخل «دينو» مخزن أبيه ليحثّه على عملٍ مّا فوجده يكلّف سائقاً من معارفه بالتحرّي في مكاتب نقل الركاب الى «حلب»، و«دمشق»، و«عامودا»، و«درباسيّة»، و«ترْبَسْبيْ»، و«الحسكة»، عسى يكون «مَمْ» اتّجه ـ بدافع يُخفى عليه ـ إلى مدينة مّا من هذه المدن، المتنافرة المشارب، في جهات الأرض السورية.

كان على تحرّيات صغيرة من هذا القبيل أن تُسْتَنْفَدَ، برغم معرفة «دينو»، وأبيه، معاً، أن «مَمْ» ـ الذي لم تختف قطعة واحدة من ملابسه، مثلاً ـ لم يكن في حاجة إلى تدبير هروب من العائلة، أو من نفسه. وما الذي سيفعله في مدن كهذه، على أية حال؟ يشتغل دهّاناً أم نادلاً في مقهى؟. إن لدى «حمدي» ما يرفُهُ به عن أهله من رزقٍ وإنفاق، والغصّة الوحيدة كانت أنه لا يستطيع إرسال ابنيه إلى الجامعات، أو الخارج، بسبب قَدَرِ

أخرقَ لم يستكمل له أوراقاً ثبوتية، مصنوعة من نشارة الخشب، والصّمغ، وممهورة بحبر عاديٍّ يستطيع أي طفلٍ أن يدلقه على ذيل جروٍ.

مع اشتداد القيظ الذي سند ظهيرةَ الشمال بيديْن متقرّحتيْن، وَرَدَتِ الاستقصاءات خائبةً إلى مخزن «حمدي»: «مَمْ» لم يدخل مكتباً من مكاتب السّفر العابقة برائحة الزيوت المعدنية، وليس في إحدى زنزانات السجن المدني. أيْ، كتدبير أخير، لم يكن أمام «حمدي» إلاّ تبليغ مخفر المدينة، الذي تضيع شرطتُهُ فلا يبحث عنهم أحدٌ، ليكون قد استكملَ السُّبُلَ، والاحتمالات. وقد توجّه هو، و «دينو»، وسائق المرسيدس «معروف كُوبَـالْ»، وابن اخت الكاتبِ العَدِلِ، الحمصيّ، «وليد النُّشّاب»، إلى حيث المبنى الحجـري، الواقع على ربوة تطلّ، عبر حقل مديد، على الدّغل الرقيق الذي يفصل الحـدود السـورية عن الحـدود التـركية. ولم يطُلْ مكوثهم أكثر من عشرين دقيقة في الـداخـل، إذْ دوّن رقيبٌ أوّل ما أدلى به «حمـدي» وابنه من معلومات، وتخمينات، ووعدهم ـ وهو يضغط على يد ابن أخت الكاتبِ العَدِلِ ـ ببذل جهود غير عادية، وبالفعل بذل المخفر جهداً غير عاديٍّ مساء ذلك اليوم، إذ كلّف شرطياً من شرطته بالتوجّه إلى بيت «حمدي»، ولمّا بلغ الرجلُ البوّابةَ طرقها طرقاً عنيفاً ففتحت له إحدى البنات، فمدَّ عنقَهُ من البوابة إلى داخل الساحة متمتماً: «أريد رجلاً أتحدّث إليه. أوالدكِ هنا؟»، فأومأت الفتاة إيجاباً، ثم غابتْ ليظهر «حمدي»، مصحوباً ببناته كلّهنّ مدفوعاتٍ بفضول لا يُرَدُّ إذْ سمعن أن شرطياً يطرق البـاب. لكن الشرطيّ طلبَ «حمدي» إلى خلوة، فصرفَ الأخيرُ بناته لينفردَ بموظّف الدولة ذي القبعة لحظاتٍ وهما يتهامسـان.

حيرةٌ هائلة قيّدتْ بنات «حمدي»، وهن يلمحنَ خطواتِ أبيهن القلقةَ، الضائعةَ في ظل خطوات الشـرطيّ الـواثقـة، حيث اتّجه الرجلان إلى سيارة «جيب» عسكرية تنعطف بهما صوب الشارع العريض المُفْضي إلى وسط المدينة، فعدْنَ أدراجهنَّ إلى الساحـة إلاّ «رَوْهاتْ»، التي ركضت إلى المُنعطف لتُشبع فضولها عن وجْهَةِ السيارة الصاخبة، ثم أقفلت راجعة بيقين ليس أكثر وضوحاً من غَبَش المساء. وحين دخل «دينو» إلى الساحة، بعد دقائق معدودة من ذلك، قادماً من ورشة تصليح الحصادات التي نصب فيها «شيرو بابان» المنكودُ خيمةً تسعُ ساحتين من ساحات بيت «حمدي» الكبيرة، ألفى

أهله على سكونٍ موحش ٍ في الوقت الذي كان حرياً بهم أن تُقَعْقِع الملاعق في الايدي من حول صَحْفَـةِ العشـاء، وأن تصـدم المنـاكبُ المنـاكبَ في تمـايل الأجسـاد على الصحون، وهي جالسة على الأرض، وما يستتبع ذلك من تلاسنٍ بين البنات، ووعيدٍ ونَخْزٍ، وتَقْرِيْصٍ. وقد بادرته أمّه، فور دخوله: «خُذ جاراً من جيراننا معك، وامضِ إلى المخفر»، وإذْ تساءل «دينو»: «المخفر؟» ردّت «كسبو»: «أخذتِ الشرطة أباك»، فتمتم «دينو»: «وما الذي سيفعلونه بأبي؟ كلُّهم يأكلون من قماشه يا أمي»، واستدار خارجاً من حيث جاء، دون قلقٍ كالذي في نبرةِ صوت أمّه، وعلى ملامح أخواته. ومن ثم اتّجه إلى بيت «جَبُّور مُرْقُص»، السرياني، وهو رجل ذو لسان ذَرِبٍ في المخاطبة، وله معارف في «مديرية المنطقة»، فقام الرجل من فوره قائلاً: «لا تهتمَّ». وتوجّها مَشْياً صوبَ المخفر من الدروب الخلفية، التي تتاخم الرُّقعةَ البورَ من الجهة الشمالية للمدينة، ليختزلا المسافة.

كان ثمت خطأً في التقـدير. فشـرطـة المخفـر أبلغـوا «دينو» وجاره «جبّور» أن «حمـدي» لم يكن مطلوباً للمجيء إليهم، بل للذهاب الى المستشفى، ليتحقّق من الجثة التي هناك. وقد سقطت كلمةُ «الجثة»، التي خرجت باردةً وعفوية من فم أحد الشرطة، خشنةً كحجر رمليٍّ في احشاء «دينو»، فتمتم تحت ثقل ِدوارٍ مفاجىءٍ هبَّ عليه من جِهَتَيْ صدغيه: «جثة مَنْ هي؟»، فأجـابـه الشرطي وهو يفرك إحدى عينيه: «لا نعرف. أبلغونا أن هنالك جثة في المستشفى، ولمّا كنتم تبحثون عن شاب ضائع آثرنا أن تتحقّقوا، فلربما.. من يدري؟».

اجتاز «دينو» وجاره «جبور»، معاً، أروقةً موحشة في جوف المستشفى الصامت إلاّ من سعالٍ متناثرٍ، وَوَقْعِ أعقابِ أحذيةٍ على رخام أرضيتّها ذاتِ الأنين. وكان يقودهما رداءٌ أبيض يخفقُ خَفْقاً من حول ساقَيْ الشاب العجولِ الذي يرتديه مفكوكَ الأزرار، حتى كأنَّ ذلك الشاب لم يكن موجوداً إلاّ بحركة ردائه، الذي يدلُّ على وجود هيكله النحيلِ، وصوته الخافتِ، والتفاتاته بعد كلّ مترين: «مِنْ هُنا.. مِنْ هنا». ولمّا أشرف الثلاثة، أخيراً، على ممرٍّ طويل وشاحب، كان «حمدي» يجلس على مقعد خشبي، في جهته الثانية، قرب باب يعلوه ضوء صغير أحمر، ينير لوحةً داكنةً مكتوبٌ عليها بحروف

بيضاء: «مشرحة».

لم تكن خطوات «دينو» هي التي تقوده صوب أبيه الوحيد على المقعد، بل يموجُ الرخامُ الباردُ تحت قدميه فيتقدَّم كما تتقدَّم ديدانُ شجرة التين. وحين أشرف بوجهه على أبيه الجالس، كان الأب يتطلّع إلى ابنه بوجهٍ فيه توسُّلٌ، وبعينين متسائلتين كعيني طفلٍ وبّخه أحدٌ مّا تَوّاً. وحْده جارهم السرياني ترجم تساؤلاته إلى كلمات: «ماذا يجري؟»، وإذْ بدا «حمـدي» أخرسَ، توجّـه «جبور» بكلماته إلى صاحب الرداء الأبيض الذي قادهم: «أأسـتـطيع أن ألقي نظرة على الـداخـل؟» وأشار إلى الغرفة الموصدةِ، ذات العلامة الضوئية الحمراء، فهزَّ الشاب جمجمتَهُ المفلطحةِ: «ليس الآن. إنهم يُشرِّحون الجثةَ، وسينتهون من ذلك بعد قليل».

ساعـة مرّتْ على المُحاوَرَة الباهتة بين «جبور» وشاب المستشفى الفخور بردائه المـلائكي العابق برائحة البنسلين، قبل أن يفتح أحدهم باب المشرحة خارجاً منها، لينـظر نظراتٍ لا معنى لهـا على «حمـدي» المتهـدّل في المقعد وقد التصق به جاره السرياني، وعلى «دينو» الواقف مفتوح الفم، منفرج الساقين، مستنداً بظهره إلى الحائط كمتـربِّص بطريدةٍ. ولبرهـةٍ كاد ذلك الخارجُ من الغرفة أن يسقط جانبياً حين أمسك «حمدي» بكتفه، وقد استقامَ واقفاً باندفاعٍ فجائيٍّ، هامساً: «ماذا تفعلون بي؟»، فأبدى ذلك الخارج من الغرفة ـ بملامحه التـي تـدلُّ على أنّه من المتمرِّنين على التشريح ـ بعضَ التساؤل: «أنت؟»، وتلفَّت من حوله متمتماً: «من الذي يريد بك سوءاً؟»، فأرخى «حمـدي» يده عن كتف الـطبيب، أو الشخص المحسـوب طبيباً، فيما انبرى «جبّور» السرياني قائلًا بصوتٍ واثق: «هل نستطيع أن نرى مَنْ في الداخل؟»، فردّ الطبيب، أو من حسبوه طبيباً: «بالطبع. أأنتم أهله؟»، فلم يردّ «جبّور» لأنه انسلَّ إلى داخل الحجرة مُحاولاً أن يكون الأوّل الذي يرى الجثة، حتى يخفّف من الصّدمة، على «حمدي» وابنه المرتعشين، والمختنقين، من خلفه.

بالتأكيد لم يكن «حمدي» متحقّقاً بعد من أن الجثة هي لابنه «مَمْ»، لأنه ظلَّ جالساً على المقعد الخشبي مُذْ أوصله الشرطيُّ بالسيارة إلى المستشفى، وقد تذرَّع له الممرِّض ذاته، الذي يقوده رداؤه في الأروقة، بوجوب الانتظار ريثما ينتهي الاطباء من

تشريح الجثة، فامتثل «حمدي» كمُذْنبٍ لإشارة الممرِّض، وهوى جالساً فنبضتْ من تحته خشباتُ المقعد.

كان المُسجَّى على المنضدة الرخامية المستطيلة، ذات القوائم الحديد المنتهية بعَتَلاتٍ مفصليّة، هو «مَمْ» نفسه، الذي وقف إلى جواره رجلان في ردائين أبيضين ملطّخين ببعض الدم، فيما خرج ثالثٌ مستعجلاً وهو ينظر الى ساعته. وقد بدا الشاب المسجّى شاحباً بخُصَل شعره الملتصقة بجبينه، لأن وجهه، وحده، كان ظاهراً. أمّا بقيةُ جسده فمغطّى بشرشف أبيض مبقع بالدم، وباتّساخاتٍ أخرى، فالجثث لا يلزمها قماش نظيف إذا دخلتِ المشرحةَ، على أية حال.

ارتدَّ «جَبُّور» عن الجثة ليواجه «حمدي»، محتضناً إيّاه بقوّة، فيما ارتفع عويل «دينو» مختنقاً أول الأمر، ومن ثم نادباً، فأحاط به صاحبا الردائين الأبيضين يواسيانه بكلمات لا يعنيانها كثيراً، ولا يضبطان النّبرات الانفعالية التي ينبغي أن تصاحبها لتصير ألفاظَ مواساةٍ حقّاً. بعد ذلك تسارعت الوقائع، كأنّما يلفظُ المستشفى - إثْرَ العويل الموحش الذي أطلقهُ «دينو» - ما لا موجبَ لبقائه، فجاء من يجرُّ المنضدةَ بالجثة التي عليها عبر الأروقة، فيطغى صريرُ عجلاتها على نشيج الأب وابنه حتى البوابة، حيث وقفت سيارة إسعاف متهيّئةٌ بأبوابها المفتوحة، لتنقل الجثة، و«حمدي»، و«دينو»، و«جَبُّور» إلى الجهة التي أشار الأخير إليها فهزّ سائق السيارة - ذو لِفافة التبغ الملتصقة بزاوية فمه - رأسَهُ، متمتماً: «سأطير»، وأطلق العنان لبوقه ذي الصوت الشيطاني.

خَلْقٌ كثير اجتمع تلك الليلة في ساحة بيت «حمدي»، وفي خارجها، صامتِيْنَ، كأنّما ينتظر الواحدُ من الآخر تبديدَ ذلك المزاج الثقيل. حتى إغماءات «كسبو» المتكرّرة، ولَطْمُ بناتها على خدودهن وصدورهن ذاهلاتٍ، بأعينٍ جافّة، لم تُقنع المتحلّقِيْنَ، والجالسِيْنَ، أن الفجيعة قد استكملتْ طَهْوَها بلهبٍ من أقدار العائلة، في وقاحةٍ لا تليق بالفجيعة عادةً، إذْ عليها التمهيدُ لدخولها الصاخب حتى تأخذ الناسُ زينتَها الممكنةَ من الذهول، وأن تميل القلوب قليلاً لترى من خَلَل الأضلاع تعاقُباتِ المشهدِ السائرِ إلى كَمَالِه.

كان كلُّ شيء مبتوراً تلك الليلة، فالنشيج الذي ينطلق فجاءةً يخمد فجاءةً،

والعـويل الـذي يتشـظى فجاءةً ينغلق فجاءةً، والجالس لا يلبث واقفاً، والواقف ينهدُّ جالساً، إلاّ جثة «مَمْ» ـ الممدّدة على فراش وثير قرب البئر، بعدما قرّر حُكَماءُ الموقف أن تجـري مراسيم غسْلِهِ ودفْنِـهِ في الفجر ـ فهي، وحدها، كانت مكتملةً في الغطاء الأبيض النقيّ وسط شحوب السـاحة. وكانت «كسبو» تنحني عليه لتقبّله، ثم ترتدُّ ـ في جلستها قرب رأس ابنهاـ إلى الخلف مغمى عليها، فَتَسْنُدُها امرأتان تحيطان بها. أمّا بناتها فقد جمعتْهنّ نسـاءٌ أخرياتٌ من جاراتها في إحدى الغرف، ليعزلْنَ مُواءهُنَّ الضعيفَ عن صرامة الحناجر ذات الإيقاع المضبوط للنادبين.

رطباً كان الليل من فوق الجمع الذي انفرطتْ حلقاته، فخرج الكثيرون من البوابة إلى بيوتهم. بضع نساء بقيْنَ، وبضعة رجال. ثم تناقص عدد هؤلاء أيضاً، فبقيت امرأتان الى جوار «كسبو»، وبقي «قادر حمّو» إلى جوار «حمدي» و «دينو». والذين انصرفوا كانوا معـذورين على أية حال، إذ فاجأهم المسـاء بالعويل قبل أن يتفتت طعام العشاء في معداتهم. وقد وعدوا أنفسهم، حين خروجهم من البوابة الحديد، بتخصيصِ الغد من أجل مواساة أهل «حمدي»، في محاولة مشكورة لرفع الثِّقل الخفيف الذي أحسّوا به يضغطُ على ضمائرهم. غير أن «حمدي» المتهدّل في جلسته، بعيداً قليلاً عن جثة ابنه، لم يكن في حاجة إلى الغدِ ومواساةِ أهلِ الغد، الذين سيحتشد منهم قَدْرٌ لن يترك موطئاً في السـاحة للأرواح الفضولية، التي قد تكون عابرة من هناك بأجنحة كأجنحة الذباب. فالرجل لا يريد إلاّ أن يستعيد، دون أن يقاطعه داخلون أو منصرفون، حَلَقَةَ السـاعات السابقة لمجيء الشرطيّ إلى بيته يستدعيه إلى المستشفى، لأن تقليبه لأسباب اختفاء ابنه، وضرب أخماسٍ في أعشارٍ، كانا أقلَّ فداحةً من أن تحمل الجثةُ ـ بنفسها ـ الخبرَ الـذي لا خَبَـرَ بعده. فلقد انقطع قلقُهُ بعد ذلك، وانسدَّ عليه المضيُّ في التخمين، والتأويل، وتصوُّرِ المواقف التي ستكون بينه وبين «مَمْ» حين يعود إلى البيت، وكذلك المحـاورات التي سيرسم هو مقـدّمـاتها ونتائجها، في توبيخٍ مُبَطَّنٍ يناسب عمر ابنه الشاب. إن «حمدي»، في بساطةٍ، يحسُّ بغَدْرٍ مّا مزَّق الساعات، والأيام، والسنين التي سبقت موت «مَمْ»، أمّا الوقتُ الذي سَيَلي تلك النهاية فليس في مستطاع «حمدي» تقديم ضمانات تؤكد أنّه سيكون وقتاً محضاً. إذْ ربّما سيكونُ صَفْقَةً لا وَقْتاً؛ صَفْقَة تبغٍ

أو قماش؛ صَفْقَة حصّادات أكثر جنوناً من حظّ «شيرو بابان»، وأقلّ انحلالاً من صورة «سِمكو آغا» الراقدة في جيب «قادر حَمّو»؛ صَفْقَةُ نَحْلٍ يدخل ويخرج، غاضباً، من قلبٍ مطعون.

ولمـاذا لايكـون الـوقتُ صفقةً، على أية حال؟ إن «حمدي» لن يخلط الوقتَ والصفقةَ، فلقد تخلّفَ الوقتُ، باقياً في المشرحة الكثيبة، بعد خروج جثة «مَمْ»، أمّا الصَّفْقَةُ، كيقينٍ مُجَرَّدٍ، فقد انطلقت لتحيا في امتلاءٍ، مصفّرةً لـ «حمدي»، من مكانٍ عالٍ في أعماقه، مثل طِفْلَةٍ فَظَّةٍ، ذات أسنان نافرة خارج فمها.

رطْباً كان الليل من فوق المرأتين المحيطتين بـ «كسبو»، اللتين هيَّأتا لها إغفاءات متقـطِّعة على أكتافهما، ومن فوق «قادِرْ حَمُّو» الذي استسلم لإغفاءات متقطّعة قرب «حمدي» الصامت، مثل ابنه «دينو»، الجالس قباله تماماً على سُرَادِقِ اللُّبَّاد، محدِّقاً فيه بعينين اختلطت خضرتهما بالمياه التي ابتلعت «مَمْ». وكان «حمدي» ينظر، في جلسته، الى جبين ابنـه مثلاً، أو إحدى كتفيه، متفادياً العينينِ الغامضتين، والمتواطئتين على الفراغ المتَسوِّل في روح «حمدي»، كأنما يذْلقُ «دينو» تساؤلاتٍ مترادِفَةً، ولجوجةً، على حجْرِ الأب، عن السحر الذي أغوى «مَمْ» ليستسلم للمياه. وأين؟ في نهر «جَغْجَغْ» الضَّحل، الذي يقدرُ شاب مثل «مَمْ» أن يطفو على مائه، من منابعه الى مصبّه، وهو يُشْعل لِفافةَ تبغٍ من عقْبِ أخرى فلا تبتلُّ. أمّا آثار فخِّ الثعالب على ساقه، فهي التي تحيّر «دينو»، و «حمدي»، و «قادِرْ حمُّو»، و «جبُّور»، الذي كان أوّل من سمع شرحاً من الطبيبين اللذين ألقيا نظرات كثيرة على رئتي «مَمْ» المليئتين بالماء، في المستشفى، بعدما فتحا قفصه الصدْري كما يفتحان بطن سمكة: «هذا الشاب غرق وهو ينزف من ساقه».

وما الذي يمكن أن يعثر عليه «دينو» في وجه أبيه، أو أن يعثر عليه «حمدي» في عيني ابنه؟ أشخاص مجهولون نقلوا جثة «مَمْ» من المنعطف الرّاكد لنهر «جغجغ»، في جزئه الذي يمرّ بالقرب من الخرائب الفرنسية، وهي مساطبُ من إسمنت قديم، وبِرَكٌ مسوَّرةٌ خلَّفهـا الجيشُ الفـرنسيُّ الهـارب من البلهارسيا، والدوسنطاريا، والتراخوما، والشكّ في الخيانة المُحْتَمَلة لزوجات أفراده المهجورات، فيما توزّعت الانتصارات،

آنئذٍ، على الطوائف السورية بالتّساوي ـ كما تذكر كتبُ التاريخ الحديثة جدّاً في سورية ـ حفاظاً على الوحدة المعصومة بين مِلَل المنطقة، ونُسيَ الأكرادُ سَهْواً.

لم يسأل أحدٌ، في المستشفى، أولئكَ الذين جاءوا بجثّة «مَمْ» سؤالاً واحداً، فانصرفوا. ولمّا أُحيطَ المَخْفر عِلْماً بوجود ميت لا أهل من حوله، قرّر الأمرُ إرسال شرطيٍّ إلى بيت «حمدي»، ومن ثم انصرف ذلك الشرطيُّ بدوره، بعدما أوصل «حمدي» إلى المستشفى، قائلاً: «إذا كان الذي يشرّحونهُ ابنَك، فسامرُ غداً لتدوين أسباب الوفاة».

وأسبابُ الوفاة، تلكَ، التي سيقولها «حمدي» للشرطيِّ في غدِهِ، لا تُقنعُ «حمدي»: «لقد غرق». بالطبع سيكتفي الشرطيُّ بتدوين ذلك، وسط كلمات عزاء قليلة. لكن روح الأب ستتجوّل ـ كلّما نام جسدهُ ـ بين غُرَف العائلة، وفي الساحة، مُمَزَّقَةً بما عليها من آثار أسنانٍ حديدية تُزوِّدُ بها فخاخُ الثعالب. و «دينو»، الذي كان يحدِّق في أبيه، تلك الليلة، همس أخيراً: «ما حكاية آثار الفخّ على ساقي مَمْ يا أبي؟»، وطأطأ لا ينتظر جواباً من أبيه الذي يحسُّ الهواءَ ينحدرُ ساخِراً إلى رئتيه. ثم عاد فرفع رأسه، متطلّعاً إلى «قادِرْ حَمُّـو» الغـافي جالسـاً، ملتصقَ الذَّقن بالصَّدر، واقترب شبراً، أو شبرين، من أبيه، هامساً: «أبي»، فحدَّق الأب في عيني ابنه غير المرئيتين في شحوب الساحة، فاسترسل «دينو»: «رأيت مَمْ مرتين في أحلامي، قبل أيام، وكنتُ أنسى أنني حلمتُ به، لكنني تذكّرتها اليوم»، ومسح على جبينه بيده، ثم نظر صوب البئر، حيث كانت أخته «هيفين» تتقدّم ـ ناشِجةً ـ من أمّها التي ضاع شبحُها بين ظلال المرأتين، وعاد فحدَّق في أبيه: «كنا معاً في قبرص»، وكاد يبتسم في أسى، فتمتم «حمدي»: «قبرص؟ أظنني سمعتُ باسمهـا» فردّ «دينو»: «قـرأنا عنها في كتب الجغرافيا يا أبي. إنها جزيرة ذات شكل طريف، وهي قريبـة من سواحـل بلادنـا»، فتساءل «حمدي» بصوت خفيض: «أهي جزيرة؟ أتعني أنها محاطة بالمياه من كل جهة؟»، فردّ «دينو»: «نعم»، فتمتم الأب: «شيءٌ مخيف»، فقاطعه «دينو»: «ما المخيف؟»، فهمس «حمدي» وهو ينفثُ دخان لفافته: «أن تكون الأرض محاطة بالمياه من كلّ جهة».

صمت «دينو» لبرهةٍ، يتأمّل أبيه ربّما، أو حروف اسم الجزيرة التي تشبه سمكة «وَرَنْك» ذات الذَّيل. فاستحثّه الأب بصوتٍ مرتعش قليلاً: «ماذا كنتما تفعلان هناك؟»،

فرفع «دينو» يديه على نحوٍ كَمَنْ يستغرب: «لا أعرف لماذا كنا في تلك الجزيرة، تحديداً، لكننا كنا هناك يا أبي. كان يقنعني أن أتزوّج»، وكاد يضحك: «أتصدّق ذلك؟ كانا يقنعني أن أتزوّج»، ثم وقف كأنّما يحتفظ لنفسه، وحدها، ببقيةٍ من حلمه الذي يتردّد فيه اسمُ «ذاتِ الحذاء العسكري». ولمّا بدا الأبُ مهتمّاً، بوجهه الذي استدار صوب جثة «مَمْ» المسجّاة قرب البئر، عاد «دينو» إلى إكمال سَرْدِه: «لا أتذكر، تحديداً، أكانَ هذا الحلم هو الأول الذي رأيته، أم الحلم الذي كنتُ أتبعه فيه على يديَّ وقدميَّ معاً. نعم. كنتُ أركض. خفيفاً، على قدميَّ ويديّ. كنتُ أحاولُ الكلام فلا أستطيع، لكنني كنتُ مَرِحاً، يا أبي». والتفت إلى سطل الماء فغرف منه بالمِغْرفة وارتشفَهُ، مضيفاً وهو يمسح شفتيه بكمّه: «كان مَمْ مع أربعة رجال، يطرقون بوّابات البيوت سائلين عن شخصٍ مّا. وانا...»، قالَ الكلمةَ ومطَّ شفته السفلى مستغرباً: «كنتُ أمشي على قدميَّ وساقيَّ. دائماً أمشي على قدميَّ وساقيَّ في أحلامي مع مَمْ، يا أبي. أما هذه الجزيرة...»، وعاد يهزُّ رأسه: «ألم يجد حُلُمي غيرَها؟».

وما الذي كان على «حمدي» أن يعلّق به على أحلام «دينو»؟ لقد اكتفى بالنظر صوبِ الجثة المُمدَّدة مثل لِفافة قماش بيضاء على رفٍّ من رفوف مخزنه، وأرخى رأسَهُ حتى مسَّ صدرَهُ بذقنه، منخرطاً في نوبة بكاء مختنقٍ رجَّ الهواءَ من حول «قادرْ خَمُو» الغافي، فاستيقظ الرجل. وبعد لحظات مسح «حمدي» خدّيه، وفمه، بحطّته المكوَّمة قرب إحدى فخذيه، متمتماً: «يا رب.. يا رب» في نبرةٍ متوسِّلَةٍ، ورفع وجهه الى ابنه «دينو»، ثم أداره نحو «قادرْ خَمُو»: «أحسستُ بانقباض بعد الغذاء، وأنا أسمع هذا المذيعَ الـ...»، قالها «حمدي» وتوقّف باحثاً عن صِفَة تحقير، لكنه أرْجأ بحثَهُ، مضيفاً كأنّما يحدّثُ نفسه: «لم أنم القيلولةَ. ذكَر المذيعُ الماءَ كثيراً. دوّخني وهو يقول إن النبات الفلاني يحتاج ماءً كثيراً، والفلاني لا يحتاج. الشجرة الفُلانية لا تنمو إلاّ قرب المياه، والشجرة الفلانية تختنق إذا جاورتِ المياه. دوّخني هذا الـ...»، وأشعل لفافةَ تبغ متمتماً بألفاظ عربية جَعَلَها ليِّنةً في لكنته الكردية: «رُكْنُ الطبيعة»، مشيراً إلى أحد البرامج الاذاعية، اليومية، القصيرة، التي تسبق نشرة الأخبار المفضّلة لديه. ثم عاد فكرّر اسم البرنامج ثانيةً: «رُكن الطبيعة»، وسعلَ: «أنا لا أصغي إليه إلاّ لأنه يسبق نشرة

الأخبار. وهذا المذيع، الذي يدوِّخني، تطنُّ من حوله، دائماً، ذُبابة زرقاء. أميِّزُ طنين الذباب الأزرق من غيره. ربّما يدخل الرجل الى الاذاعة حاملاً في جيوبه سماداً من روث البقر»، وحكَّ فروةَ صدره من تحت القميص المفتوح، مضيفاً، دون اكتراثٍ أيصغي الجالسان إليه أمْ لا: «لماذا يريد هذا المذيع الأحمق أن نحوِّل ساحات بيوتنا إلى بساتين؟ أين ننامُ، إذاً؟ أين نتجوّل؟ سيتوه نحل كسبو، بالتأكيد، وقد نتحوّل نحن إلى دعاسيق صغيرة لنستطيع العبور من فُسحة إلى أخرى». وأغمض عينيه يستحضر الكلمات الأكثر وقْعاً في قَحْف جمجمته: «حدائق.. حدائق»، قالها ثم توجّه بيديه، في غضب، صوب «دينو»: «قلْ لي ما الذي يريده منّا هذا الـ...؟»، فردَّ «دينو» بصوتٍ هادىء فيه غرغرةٌ خفيفة: «لا يريد شيئاً يا أبي. مَهمَّتُهُ أن يتحدث عن الحدائق، لا أكثر»، فهزَّ «حمدي» سبّابته معترضاً: «لا. هذه ليست مَهمّة؛ إنها تدخُّل أهوج في شؤون الناس»، وأرخى يده المرفوعة فسقطت في حجره، وهو يتمتم: «أليس لديه عمل آخر؟»، فتمتم «دينو» بدوره: «هذا هو عمله، يا أبي».

امتدَّ صمتٌ طويل بعد الحوار القصير بين الأب وابنه، بينما ندَّت نهنهاتٌ متفرِّقة من حناجر الأشباح الجالسة قرب جثة «مَمْ»، ثم خمدت، كأنّما تترك السَّحَرَ يدخلُ مطمئنّاً إلى ساحة البيت. وفي الساعة اللاّحقة ـ التي كان الفجر يمهّدُ لنفسه فيها بصريرٍ متقطِّعٍ لجناحَيْ زيزٍ نعسان، ملتصقٍ بساق شجرة الكينا القريبة من مجلس الرّجال ـ أغفى «حمدي» إغفاءةً مُثقلة بحمّى روحه، فتدافع المذيعون نازلين السُّلَّمَ من سطح البيت الذي ينام عليه «مَمْ» عادةً؛ تدافعوا بستراتهم الأنيقة التي يطأُ بعضُهم حواشيَّها بالأقدام المتزاحمة، حتى صاروا مجتمعين في ساحة البيت، وهم يحملون أوراقهم إلى حُلُم «حمدي» المكسور، متوسّلين إليه: «خذْ هذه الأوراق، بالله عليك، يا سيّد حمدي». ويخلعون ستراتهم، بعد ذلك، ملقيْنَ بها على حصى الساحة، ثم يتجهون إلى «كسبو» صارخين: «لن نزعج نَحْلَك، يا سيدة كسبو. نقسم بالله على ذلك. كل الذي نريده هو أن ننام». ويعودون راكضين صوب الأسِرَّة الخشبية الضخمة، فيفكُّونها كما يفكُّها «حمدي» عادةً مع قدوم الخريف، ويحملونها ذاهبين صوب بوّابة السور

الحد .بة، وهم يومئون إلى «حمدي»: «لا تهتمّ، سنعيدها بعد قليل». وهم يرجعون، فعلاً، بعد قليل، في حلم حمدي، قاصدينَ الغرفةَ المُلحقةَ بغرفة الضيوف، ليقذفوا من بابهـا المفتـوح مثل ثغرةٍ بلفائف قماشٍ، وصُـرَرٍ تنفتح في الهواء فتتطاير منها أغطيةُ رؤوس النساء الموصِليَّةُ، فيما ينهض فجاءةً، من تحت شجرتي الكينا، حصانٌ مهترىء اللّحم، أغبرُ كما لو كان من ترابٍ، فيتقدّم خطوات قليلة، ثم يهوي فيتكسَّر متناثراً في صخب. وقد حاول «حمدي» أن يصرخ، دون أن يعرف لماذا يصرخ، فقدَّم إليه أحد المذيعين حبّاتٍ من الأكيدُنيا، صفراء ذهبية، فتمنّعَ الرجلُ، متمتماً: «هذه فاكهة لا يحبّها سِمْكو آغا»، فركض المذيع، من فوره، صوب جثة «مَمْ»، وأخفى حبّاتِ الفاكهة تلكَ تحت الغطاء الأبيض الذي برز من إحدى جهاته رأس الميت ملفوفاً بقطعةِ خيشٍ مبتلَّةٍ، تسكبُ عليها «كسبو» الماءَ من طاسةٍ وهي تقهقه: «انهضْ حمدي. انهضْ. لقد تأخرتَ»، فأفاق «حمدي» من إغفاءته ليجد نفسَهُ متكئاً بكتفه على وسادتين عاليتين، ويجـد «دينو» متمدّداً أمامه على سُرَادق اللبّاد، غافياً دون غطاء، وكذلك «قادرْ حَمُّو» المضـطجع وقد التفّ بعضُه على بعضه من برودةِ الفجر. ولمّا ألقى نظرةً مُتْعَبَةً على شماله، حيث الجثة الراقدة قرب البئر، ألْفى «كسبو»، والمرأتين الأخريين، متدثّراتٍ بلحافٍ واحد، لكنّهنَّ يتحرّكنَ من تحته كأنما يستيقظن مثله من إغفاءةٍ عابرةٍ.

كان ثقيلاً، وغامضاً، ذلك الضياءُ الخجول، الزاحف على الساحة تحت بصر «حمدي» الزائغ، كأنما يثرثر الصباحُ بلغةٍ متكلّفةٍ كلُغةِ المذيعين النائمين بين الأسلاك الرقيقة في مذياع الرجل المفجوع. وقد مدَّ يده، كأوّل بادرة مِنْهُ يُحيّي بها الحياةَ، إلى علبة تبغه فأشعل لِفافةً، استنشق دخانَها عميقاً حتى لامسَ الدخانُ كبدَهُ وكِلْيَتَيْه. ومن ثم تطلّع صوب الأسِرَّة الكبيرة ـ الثابتة على قوائم صلبةٍ نَقَرَ من جوانبها المرتكزة على الأرض عشبٌ يابسٌ ـ فاسترعى بصرَهُ نهوضُ «هيلِيْن» الصغيرة، التي استوتْ جالسـةً في فراشها، وهي تتجوّل بعينيها على المكان من حولها، هادئةً ووديعةً كما لم يعهدها من قبل. ومن ثم قامت البنتُ الصغيرة لتخطوَ من فوق سيقان أخواتها النائمات حتى بلغتْ حافة السرير الضخم، فهبطَتْهُ على سُلَّمٍ قصيرٍ ذي درجتين، وتوجّهتْ إلى جرَّة الماء فطوّقتها بيدٍ، واقفةً على أطراف أصابعها، لتمدَّ المِغرفةَ من الفوّهة العالية إلى جوفها،

بيدٍ أخرى. وإذْ شربتْ بعضَ الماء الذي اندلقَ على صدرها، علّقتِ المغرفةَ إلى خُطّافٍ حديديٍّ ناتىءٍ عنـد مقبض الجرَة، وتوجّهتْ بخطوات كسولة إلى حيث يتمدَّد «مَمْ»، فحدَّقَتْ فيه ملياً، من فوق أكتاف النسـاء الثلاث، اللواتي استيقظن تَوّاً من إغفاءة خفيفة مثل إغفاءة «حمدي». واستدارت، بعد ذلك، بالخطوات الكسولة ذاتها، قاصدةً أباها الذي لم يرفع عينيه عنها، ولمّا صارت قباله، في ثوبها الكُتّانيّ الطويل، الأزرق، الذي لا أكمـام له، وهي تكاد تلمس بقدمها قَدَم «دينو» النائم، همست بصوتٍ صباحيٍّ: «أبي . . »، فردَّ «حمدي»: «نعم، حبيبتي»، فأَمَالتِ الطفلةُ رأسها، ناظرةً إلى عيني أبيها الغائرتين: «لماذا مات مَمْ؟»

الفصل الثاني

شكـوك «دِيْنُـوْ» في أن تكون
مصــائــرُ أخــرى قد ألقتْ
بظلالها، من مكانٍ آخر، على
ساحة البيت.

للمرَّة الثانية، هذا اليوم، أجمع ثيابي القليلة في هذه الحقيبة ذات القاع الخشن، التي كنـا نحفظ فيهـا كتبنـا المدرسية، فما من أحدٍ في عائلتنا سافر أبعد من تسعين كيلومتراً، قط. وأنا أجمع ثيابي للمرَّة الثانية لأن أبي بعثرها في الصباح، قبل ذهابه إلى مخزنه، صارخاً: «إلى أين يا دينو؟» فلم أجد جواباً. وإذ كرّر علي السؤال: «إلى أين؟ إذا كان في مستطاعي مساعدتك فسأساعدك، لكن قل لي إلى أين؟»، أجبته: «لم أفكر بأية جهة بعد، إنّما سأحزم حقيبتي، لا أكثر، يا أبي». وها أنا إذْ أحزمها الآن، قبيل الـظهيرة، أعيدُ الـريشةَ الرماديةَ الصغيرة، التي تطايرت من قبل، إلى مكانها في قاع الحقيبة المعتم.

لا أعـرف من أين سقطت تلك الريشةُ بين ثيابي المحزومة في الحقيبة، لكنها عَلَتْ بغتةً أمام عينيْ، حين فتح أبي الحقيبةَ غاضباً، ونثرَ ما فيها على سريري وعلى الأرض معاً. لم تسترْعِني الثيابُ وهي ترفرفُ في تطايرها، أو في سقوطها من حولنا، بل استرعتني الريشةُ تلك، المتمايلةُ في انحدارها من ثنايا الهواءِ القلقِ في الغرفةِ الغاضبة مثل أبي. وقد حاولت التقاطَها قبل وصولها إلى الأرض فانفلتتْ من بين أصابعي، ومن ثم استقرَّت على الحصيرة الصفراء في دلالٍ صامت.

بعد أيام قليلة من دفن أخي «مَمْ»، أحسستُ بوجوب مغادرة بيتنا. لم أفكر بمكان محدّد. لم أفكر في بلد أو مدينة، بل أن أبتعد قليلاً عن الغرفة التي كنا ننام فيها معاً،

وعن ساحة البيت الذي سَبَكَ عظامنا بالهواء المتعاقب عليه سنةً إثر سنة. ولأنني فاجأت نفسي بالرغبة العارمة في رحيلٍ مّا قبل تحديد الجهة، فقد ارتأيت أن تكون حقيبتي جاهزة، في الأقلّ. فحشرت فيها ثيابي القليلة، وبقيت ارتدي، لأيام، ثيابي ذاتها التي عليّ، فانتبه أبي: «لماذا لا تغيّر بنطالك وقميصك؟»، فأجبته: «ثيابي محزومة»، فانتفض سائلاً: «محزومة؟ أين حزمتها؟»، فأجبته: «في الحقيبة». فقام من غرفة العائلة متّجهاً إلى غرفتي، وأنا أتبعه، ثم فتح الحقيبة، ونثر ما فيها، فتطايرت الثياب وسط أسئلته القلقة: «إلى أين؟ قل لي إلى أين؟».

صرتُ أرتدي منامتي حين تغسل أمي بنطالي وقميصي، فإن جَفّا عدتُ إلى ارتدائهما. وأُلقي، بين وقت وآخر، نظراتٍ ودودةً على حقيبتي المركونة لصق الحائط، بين سريري وخزانة الثياب الصغيرة، الفارغة، بعدما تبرّع أهلي بثياب «مَمْ» لأقربائنا، تزكيةً لروحه العالقة بأحد أغصان شجرتَيْ الكينا، كما أعتقد. وحقيبتي تشبه، على نحوٍ غريب، شاهدة قبرٍ تكاد تكون وحيدة في حجمها بين الشواهد في مقبرة قرية «الهلاليّة»، الواقعة على تخوم المدينة غرباً،حيثُ دُفن «مَمْ». فالناس، هنا، ينصبون حجارة عادية قرب رأس الميت وقدميه. أمّا تلك الشاهدة فكانت هندسيّة الشكل، مستطيلة، عليها كتابةٌ مَمْحوّةُ الحروف، ليست إلاّ الفاتحة القرآنية واسم الميت. غير أنني لا أريد، إذا متّ، أن أُدْفن في تلك المقبرة، التي تكثر فيها الشقوق صيفاً، حتى لَتكاد تلمحُ منها الموتى وهم يرمّمون عظامهم بآلاتٍ حديدية كالتي يستعملها مُصَلّحو مواقد المازوت. وأنا أسأل نفسي: لماذا المقبرة، على أية حال؟ لماذا تُقْحِمُ الناسُ موتاها في شراكةٍ لا يعرف أحدٌ شِقَاقَها، وخصوماتِها، تحت القشرة المعتمة للأرض الأكثر تغاضياً عن فضائح الموت؟. أنا لا أريد أن أُدْفن في مقبرة «الهلالية». احترم الموتى الذين لا أعرفهم، لأنهم سيسخرون طويلاً ـ كلّما التقوا في الممّرات الدائرية للحقيقة، التي تجمعهم في فراغها العادل ـ من الوقت المفتون بتقديم نفسه للأحياء مُتجانساً حتى الانحلال. لكنني ـ برغم احترامي هذا ـ أميلُ إلى آن يكون لكل ميت حيِّزهُ المكانيُّ القريب الى نفسه؛ أعني حيِّزهُ الضيّق، كأن يُدْفن في غرفته مثلاً، لا في مقبرة مدينته أو على تخومها. وأنا اريد، بحقٍّ، أن أُدْفن لصق السور القريب من كوخ النحل في ساحة

بيتنا، إذ سيتسنّى لي أن أشهد الدقائقَ الحاسمة في طَرْدِ ملكاتِ النحل لملكاتِ النحل من قُفْـرانِ أمّي، كلّما ازدحم بانثتين منهنّ قَفيرٌ واحد. وأن أرى الرغبةَ المبهمةَ وهي تترقرق في عيون العصافير حين تنقض، من شجرتي الكينا، على النحل الطائش. وبي رغبةٌ في معرفة هذا الدافع المحموم، الذي يشدّ دجاجةَ الجيران الى سور بيتنا، فتصعده كلَّ ساعة، بالرغم من وقوف أخواتي بالمرصاد لها. كما أريد، يقيناً، أن أكون قريباً من شجرتَيْ الكينا الصامتتين في هيبةٍ لا تليق كثيراً بشجرٍ يتقشر لحاؤه ويتدلى كالخِرَق. لكن تلك الرثاثة في المنظر، تحديداً، هي التي تجعل من الشجرتين ـ ليلاً ـ أكثر سلطاناً، في المرآة المعتمة للساحة التي تتخبط فيها السماء كغريقٍ. وأخيراً ـ ربّما ـ سأرصد شبحَ توأمي «مَمْ»، الذي أظنه سيسرق الأقمشة من مَخْبئها حيث كدَّسها أبي للرحلةِ إلى كردستان.

لا أريد أن أنهض من رقادي، ذات يوم، فأرى إلى عظامي اختلطتْ بعظامِ غيري بعدما عبثَ بها خَشَاشُ الأرضِ. لا أريد عراكاً يجلب الصداعَ، ومجادلاتٍ، تتفتّت فيها البراهين، حين يقول قائلٌ من الموتى للآخر: «هذه عَظْمةُ ساقي، أو هذه هي سُلاميّاتي». سأكون مشغولاً بترتيب يقيني كلّه، وبترتيب الظلام المُهْمَل من حولي. لذلك أصبو إلى مرقدٍ في ساحة بيتنا، حيث ستتوطّد الأساساتُ العميقةُ، إرْثاً بعد إرْثٍ، بالخوف الذي يجعل كل جيلٍ قادمٍ مَحْمُوْماً في لجوئه إلى طمأنينةِ موتاه، وإذْ ذاك لن تتسرَّب عظامٌ اخرى، قلقةً، إلى تجويف القبر المَصُوْنِ بالمُلْكيّة التي تُبْرِمُها وِحْدَتي مع الموت.

إنني أتمنى الآن، بعد أيام قليلة من دفن «مَمْ»، لو أن أبي هيأني، بدلاً من توأمي، للذهاب الى كردستان. أنا لم أفكّر في ذلك من قبل. كنتُ أجعل «مَمْ» قَصْداً للمزاحِ بمصيره الذي أرسمه له على ورق الرسائل، واضعاً نفسي في موضع أبي: «انتبهْ من الكهوف يا بُني. العثُّ شرس في الكهوف، وأحْمَالُكَ من قماشٍ»، فيضحك «مَمْ». لا. أنا لم أفكر في الذهاب إلى كردستان بدلاً منه. وإذْ ألْمَحَ «قادرْ حَمُو» إلى شيء من هذا أمام أبي، البارحة، في محاولةٍ لمواساته: «عندك دينو يا سيد حمدي. عندك رجلٌ» ـ فتأمّلني أبي من فوق لحيته الصهباء الطليقة ـ عاجلتُ زائرَنا سائلاً أن يريني صورة

«سمكو آغا» التي في جيبه، فأرانيها، فتَمْتَمْتُ بازدراءٍ كأنّما استفزّه ردّاً على تلميحاته إلى أبي عنّي: «أهذا الرجل يشبه مَمْ؟ إنه لا يشبه أحداً». فأخذ «قادِرْ» كلامي على أريحيّته، ثم قرّب مني الصورة، مشيراً إلى أنف «سمكو» الذي يبدو جزءٌ صغير من عِرْنينه: «أنظرْ يا دينو من هنا إلى أسفل»، وأنزلَ القشّةَ، التي بين أصابعه، من أنف «سمكو» إلى ذقنه، فقاطعْتُهُ: «قدماه تشبهان قدميْ مَمْ». فانحدر «قادِرْ» ببصره إلى أسفل ليتطلّع، عفويّاً، إلى قدميْ «سمكو»، اللتين لم يكن لهما مكان في الصورة، ومن ثم رفع عينيه إليّ، مُدْركاً أنني أتخابث. وقد ثبّتهما عليّ لبرهةٍ تنازعتْهُ فيها كلماتٌ كثيرة ودَّ أن يقولها لي، لكنه اكتفى ـ وهو ينهض ـ بالإشارة إليّ بسبّابته: «أنت لا تفهم».

ظلَّ أبي هادئاً البارحة، وإذْ أفكّر ـ اليوم ـ أنني ظلمتُ «قادِرْ» بفظاظتي غير اللائقة، أفكّر في هدوء أبي أيضاً. فهل تراه كان يعاتب نفسه في أنه لم يهيِّئني، بدوري، للذهاب الى كردستان؟ وما الذي أحتاجُهُ لأكون مهيّئاً للرحلة، على أية حال؟ كان يكفي أن يقول لي: «ستذهب يا دينو، ذات يوم، مثل أخيك، إلى كردستان» حتى أتهيّأ بنفسي، وبأحلام يقظتي، وبخوفي، وبفضولي، لأعبرَ الحدود التركية أولاً، واتّجهَ ـ من ثمَّ ـ مع الأدِلّاء شرقاً فأجدَ ذراعيّ مفتوحتين للهواء الذي يرتُقُ المدى، مَشْهَداً مَشْهَداً، بخيوطٍ كرديّة. لكنَّ أبي لم يفاتح نفسه بفكرةِ أن أسافر، ولم أفاتح نفسي، أيضاً. وها أنا، في الآنِ الذي أسنّد فيه براحتيّ على قفلِ الحقيبة، التي أرى مَلَلَها واضحاً، يتناهى إليّ حديثٌ متقطّع يقترب من باب غرفتي، ومن ثمّ تدخل أختي «هيفين» الشاحبة، ومن خلفها «ذاتُ الحذاء العسكري»، وقد ازداد وجهها الكئيب اكتئاباً.

جلست الفتاتان على مخدّتين فوق الحصيرة، مستندتَين بظهريهما إلى الحائط، بينما تراجعتُ لأجلس على طرف سريري. ولأوّل مرة وجدت أختي تُخرج حفنةَ تبغ من جيبٍ في ثوبها، كأنما سرقته توّاً، وتضعه في حجرها مختلطاً بورقٍ لَفٍّ مدعوكٍ. وقد سَوَّتْ ورقةً منها في رقّةٍ، ومدّتْ عليها خيوطَ التبغ بشكل مدروس، ثم دوّرتِ الورقةَ على التبغِ فخرجتْ من بين أناملها لِفافةٌ إسطوانيةٌ، وعادتْ فبلّلتْ طرفَ الورقة، وقضمتْها قَضْماً خفيفاً ليلتصق بعضُها إلى بعضٍ في إحكام. ولمّا انتهت منها قدّمتها إلى «ذات الحذاء العسكري»، وانكبّتْ فصنعَتْ لنفسها واحدة أخرى، وأشعلت

اللفافتين بعود ثقاب واحد.

أعرف أن أختي تدخّن. ولطالما صنعْتُ لها لِفافاتٍ بنفسي، فدخّنتْها جلسةً. لكنها، للمرة الأولى، تكشف أسرارَها الصغيرة، غير عابئة بأن يباغتها أحدٌ مّا. وقد هَمَمْتُ أن أطلب منها بعضَ التبغ والورق لأهيىءَ لها لفافاتٍ إضافية، لكني لم أشأْ إنهاضَها من جلستها، منتظراً أن تقول الفتاتان شيئاً مّا، فهما لم تدخلا على هذا النحو للجلوس فحسب. وفي حين كانت نظراتي مُوَزَّعة بين وجهيهما، كانت «ذات الحذاء العسكري»، المنتعلة خفّين صيفيين تبرزُ منهما أصابعُ قَدميها، لا ترفع نظراتها الجانبية عني، فجذبتُ مخدّةً اتكىء عليها بمرفقي، وأسندتُ وجهي إلى راحة يديْ فراعتني لحيتي الناتئة في خشونة، فاستويت ثانيةً في جلستي على السرير، واضعاً يديَّ في حِجري. ولم أكدْ أنقل عينيَّ عن الفتاتين إلى ناحية الشباك حتى أعدْتهما إلى يديْ «ذات الحذاء العسكري»، اللّتين عَبَثَتا برزمةٍ من ورق مستطيل فاسترعتني خشخشتُها. وأنا لم أنتبه، من قبل، إلى وجود تلك الرزمة في يديها حين دخلتِ الغرفة، كما لم أنتبه، بالتأكيد، إلى ثوبها الفضفاض الطويل، الضيّق عند الخاصرة. وإذا أمضيتُ برهةً سريعةً في تأمّلها، أتاني صوتُها متّزناً دون نَفْخٍ من بين أسنانها القصيرة: «لمن سأُعطي هذه الرزمة؟».

رفعتْ «ذاتُ الحذاء العسكري» صوبي، في هدوء أخرس، رزمةَ الأوراق التي لمحتُها في يديها، مكرّرةً جُملتها: «لِمن سأعطيها؟». ففتحتُ عينيَّ بالفضول الذي فيهما، سائلاً: «وما هذه الأوراق؟»، فأجابتني: «إنها تخص مَمْ». غير أنني لم أقمْ لأتناولها من يد الفتاة، مكتفياً بسؤال آخر: «وماذا فيها؟»، فأرخَتْ «ذات الحذاء العسكري» بصرَها متمعّنة في الرزمة الخشنة، وتمتمتْ: «لا شيء فيها، لكنه كان يريدني أن أسلّمها إليه في الاتحاد السوفييتي»، فكدتُ أبتسم. وأنا أردِّد: «الاتحاد السوفيتي؟ أأنت متأكدة من ذلك؟»، فهزّت رأسها في ثقةٍ، فقلتُ لها: «مَمْ لم يكن ذاهباً إلى هناك»، فهزّت رأسها، ثانيةً، في ثقةٍ: «كان سينتقل من كردستان الى الاتحاد السوفيتي».

بدا وجُه «ذات الحذاء العسكري» الكئيبُ هادئاً، كأنّما فاتها، بشكل أكيد، أنْ

ليس لدى توأمي أية وثائق شخصية يدخل بها بلادَ البلاشفة. وذلك، تحديداً، ما حَفَزني إلى مساءلَتِها: «وما الذي كان سيفعله مَمْ في الاتحاد السوفييتي؟»، فردَّتْ في هَمْسٍ باردٍ: «كان سيلتقيني».

لا أعرف إنْ كان ثمتَ عبثٌ يُملي على «ذات الحذاء العسكري» أجوبتها، أمْ أنها تعني ما تقول، لكنها ـ قَطْعاً ـ لم تكن متكلِّفةً أو متردّدة، حتى أنني، انزلقتُ ـ برهةً بعد أخرى ـ إلى فضولٍ كنسيج العنكبوت:

«ولماذا كان مَمْ سيلتقيكِ؟» سألتُها، فردَّتْ في خَفَرٍ:

ـ هكذا قرَّرْنا.

«مَنْ قرَّرَ ماذا؟» سألتُها نصفَ متلعثمٍ، فأجابتْ:

ـ أنا ومَمْ قرَّرنا أن نلتقي في الاتحاد السوفييتي، حين ينتهي من مهمَّته في كردستان.

«أية مهمة؟» سألتُ نفسي قبل ان أسأل «ذات الحذاء العسكري». فأنا، بحسب قُرْبي من أبي ومن «مَمْ»، لم أعرف أن لدى توأمي مهمَّة محدّدة يؤديها في كردستان ثم ينسحب. وإذْ أمعنتُ النظر في وجه الفتاة، بما في عينيَّ من حيرة، استرسلتِ الفتاةُ موضحةً: «كان مَمْ سيلتقي هذا الـ. . .»، وضيَّقتْ ما بين أجفانها باحثةً عن الإسم لِثانية، ثم لفظتِ الحروفَ بشكل واضح: «بَهْرَامْ. . . بهرام جُوْرْ».

نقلتُ بصري إلى وجه أختي «هيفين»، فوجدتُها سارحةً، غير معنية بالحوار كلّه. وعُـدْتُ فتطلّعت صوب الشبُّاك العريض الذي لا أرى منه، جنوباً، غير السماء، من موقعي على السرير، متمتماً لنفسي «بهرام. . بهرام»، كأنّما أستنجد بمَنْ يستطيع مجاراةَ هذه الفكـاهة معي. ثم لم أجد، تلقائياً، إلا أن ألوي عنقي الى جهةِ «ذات الحذاء العسكري» وأنا أسألها:

ـ هل تعرفين من هو بهرامْ جُوْرْ؟

«اخبرني مَمْ عنه»، أجابتني، فاسترسلتُ من جديد، مغلّفاً سؤالي ببعض السخرية:

ـ أظنه قال لك إن بهرام يكبره بسنةٍ، أو سنتين، أليس كذلك؟

لكن «ذات الحذاء العسكري» تأمّلتني دون أن تجيب. فأحسستُ أن السخرية الخفيفة في سؤالي لم تكن في محلّها. ومن ثمّ اعتراني بعض الغضب، فخرجتِ الألفاظ من فمي سريعةً: «كيف سيلتقي ببهرام؟ ألم يقل لك مَمْ كيف سيلتقي شخصاً تفصل بينهما قرون؟»، فأرخَتْ الفتاةُ عينيها، اللتين كانتا تحدّقان فيَّ، إلى رزمة الأوراق المكوّمة في حجرها، وتمتمتْ: «لا فرقَ يا دينو. كانت مهمّة مَمْ ستنتهي إذا التقى ببهرام، وستنتهي أسرع إذا لم يلتق به».

حوّلتُ بصري عن «ذات الحذاء العسكري» لبرهةٍ، ثم أعدتُهُ إلى وجهها كأنني سأستنطق فيه وجه أخي، الذي ألهمته قريحته أن يلفّق لها لقاءً مرتقباً بأميرٍ من الحكايات طاردَ غزالاً إلى كهف، ولم يخرج بعد ذلك قط. وقد أثارني أن يختار تلك الشخصية تحديداً، لمّا كان في وسعه تلفيق أية شخصية اخرى ليبرّر مهمّته لـ «ذات الحذاء العسكري»، فسألتُ الفتاةَ: «وما الذي كان يريده مَمْ من بهرام جُوْر؟»، فردّتْ: «لا شيء».

«لا شيء؟» سألتها مستغرباً، فأكّدَتْ جوابها:

ـ لا شيء.

«ولماذا يلتقي مَمْ به، إذاً؟»، قلتُها بنبرةٍ مستنكِرةٍ، فأجابت «ذات الحذاء العسكري» وهي تتأمّل الأوراقَ في حجرها:

ـ لن يلتقي به مَمْ يا دينو. لن يلتقي به مَمْ. بهرامْ اختفى في كهف منذ مئات السنين.

ضحكتُ. لم يكن الموقفُ موقف ضحكٍ، لكنني ضحكتُ: «وماذا قلتِ له حين أخبرك أنه سيلتقي ببهرامْ جُوْر؟»، فأجابتْ: «لم أقل شيئاً. كنا، أنا ومَمْ، سنتقابل في الاتحاد السوفييتي، أمّا ما كان سيفعله في كردستان، قبل ذلك، فهو شأنه وحده».

سألتها، من جديد، كأنني أحاول استفزازها: «ألم تشعري أن مَمْ يستخفُّ بكِ وهو يسرد عليكِ لقاءً مُنْتَظراً بينه وبين بهرام؟»، فمطّتْ شفتها السفلى، هامسةً: «لا. اعجبتني الحكاية»، وصمتتْ لتعود فتؤكّد، وهي تنظر إليَّ مبتسمةً: «أحْبَبْتُها».

لم تتوقّف أختي «هيفين» عن عَقْدِ لِفافات التبغ، واحدة بعد أخرى، طوال

المحاورة بيني وبين «ذات الحذاء العسكري»، وكانت كلّما أنجزتْ لفافة وضعتْها على الحصيرة لصق الأخرى، مثل طلقاتٍ في حزام. ولمّا توقّف الكلام في الغرفة، لمّتْ «هيفين» تلك اللّفافات على شكل حزمة في قبضتها، مُشعِلَةً واحدة لنفسها وأخرى لصديقتها، وبهضتْ فنهضَتْ «ذات الحذاء العسكري» أيضاً، التي تقدّمت منّي فوضعتْ في حجري رزمةَ الأوراق، ثم خرجتا من باب الغرفة إلى الساحة، يتبعهما خيط طويل من الدخان، يعلن القطيعة مع الأيام التي كانتا تخفيان فيه سِرَّهما كمدخّنتَيْن.

أعجبتُ، على نحوٍ مّا، بجراءة الفتاتين، اللتين ستتلقّيانِ نظراتٍ متوعدةً من الكبار، وأسئلةً تستبطنُ التعنيف، لكن مَنْ يدري؟ فلربما لن يأبه أحدٌ بلفافات التبغ في فميهما، أو يلتفتْ إلى أن الفتاتين ـ بطوليهما المُلْفِتَيْنِ ـ أكبر قليلاً من أن تُعَاتَبَا. وفي هدوءٍ تحوّلَ فكري عنهما إلى رزمة الأوراق التي بين يديّ، فأرخيتُ بصري إليها، وأنا أفردُها كَمَنْ يفردُ أوراقَ نقود، لأنها كانت مستطيلة الشكل، مقصوصة بإتقان، فوجدتُ على الأولى، الظاهرة بتمامها، جملةً واحدةً بَدَتْ لي دون معنى: «هؤلاء البروتستانتيون الألمان يكذبون عليكم»، فجذبتُ واحدةً ثانية، وثالثة، وتاسعةً، ثم خلطت الرزمة، ثم بَسَطْتُ أوراقها أمامي، ثم قلّبتها، فإذا الجملةُ ذاتها على كلّ بياضٍ: «هؤلاء البروتستانتيون الألمان يكذبون عليكم»، فحملتُ الرّزمة المنفوشة بين يديّ، واتجهتُ إلى باب الغرفة قاذفاً بها إلى فضاءِ الساحةِ المحموم في الظهيرة، فتطايرتْ حتى بلغَتْ ظلَّ شجرتَيْ الكينا وعدتُ أدراجي إلى داخل الغرفة لاهثاً، لأجلس على طرف السرير، حيث كنتُ جالساً من قبل. لكنني لم ألبث دقيقتين على الفِراش الوثير، إذْ نهضتُ متّجهاً إلى الحقيبة المنطوية على جِلْدِها فجذبتُها جذباً عنيفاً سمعتُ منه أنين الثياب.

مشيت خطوات قليلة إلى وسط الغرفة، ثم أنزلتُ الحقيبة ذات المحتوى الخفيف على الحصيرة، محدِّقاً فيها من عليائي، فلم أجد شبهاً بينها وبين شاهدة القبر التي رأيتها، من قبل، في مقبرة «الهلالية». ولأَقُلْ إنها حقيبة لا أكثر. حقيبة بنيّة اللون، لها مقبض نحاسيٌّ تقشُر عنه طِلاؤه، وثمت خطوط عميقة على جلدها من أثر أقلام رصاص قد أكون أنا سببُها، أو توأمي «مم»، حين كنا طفلين. غير أنني لم اسائل نفسي، قط، في تاريخ وصولها إلى بيتنا. وقد بَلْبَلَني، في وقفتي تلك، طنينُ نحلةٍ تصدم الشُّبّاكَ

المعدنيّ الرقيق للنافذة، من الداخل، مرة تلو الأخرى، في إصرار، لتخرج إلى ضياء الساحة السكران. فتقدّمت منها مُطبقاً براحتي عليها، دون أن أعتصرها، فهدأتْ لبرهةٍ في ظلام قبضتي، ثم أحسستُ بحريقٍ خفيف لم يكن إلّا لدغةً متوقّعة. إذ ذاك أنزلتها في رفقٍ على مسطبة الشُّبّاك الإسمنتية فلم تطِرْ، بل مشتْ دائخةً بخِفّةٍ جسمها الذي فرّج عن احتقانِ القتلِ فيه. أمّا أنا فرجعتُ إلى الحقيبة، وانحنيتُ عليها لأستلَّ ما في جوفها من ثياب، ملقياً بها في كلِّ اتجاه، بتوزيعٍ متساوٍ. لكن الريشة الرمادية ـ التي وجدتُها من قبل بين تلك الثياب، وأعدتُها إلى الحقيبة ـ عَلَتْ على نحو عموديٍّ، من غير أن تميل صوب جهةٍ مّا خارجَ محورِ وقوفي، ونزلتْ متمايلةً في رفقٍ، هادئةً ووديعةً، متأنّيةً كأنّما تُمهلني أن أرافقها في نزولها الدائريِّ إلى حيث ينبغي للمصادفةِ أن تكرِّر فِتْنَتَها.

الفصل الثالث

«دِيْنُو» في الطريق إلى موعده.

ريح خفيفة أسْقَطَتْ مراوحَها في ساحة بيت «حمدي آزادْ»، ذلك النهار الذي تكلَّفت السماءُ فيه مشقَّة الدخول، بغيومٍ رصاصيّة، إلى أقاليم الخريف. وقد هرعت «وَلاَتْ»، بإلحاح من صوت أمها المشغولة في المطبخ، إلى الخارج لتلمَّ ثياباً رطبةً، منشورة على حبل متين من القنَّب، خوف أن تتَّسخ من القطرات الأولى، غير المتَّزنة، لمطر أوائل الخريف، الذي يجرف معه براعمَ من طينٍ ليست إلاّ غبار الصيف العالق بالهواء. والقطراتُ تلك، التي مَسَّ بعضُها - على أية حال - ثياباً بيضاء تفنَّنتْ «كَسْبُو»، طويلاً، في دعكها باليدين ليتألَّق قماشُها، فتْحتْ حنجرةَ زوج «حمدي» على صراخ مختنق في وجه ابنتها التي لم تستطع أن تتفادى اتّهام الأمّ لها بالإهمال، بالرغم من أنها فعلت كلَّ ما في وسع يديها الطويلتين لتلتقط - ذهاباً وإياباً من أول الحبل إلى أوّله - الثيابَ المتجاورة كحماقاتٍ ملوّنة.

مرَّ شهر ونصف الشهر على موت «مَمْ»، تقريباً، حين أزمعتْ قطراتُ المطر الأولى أن تغيظ «كسبو». وقد اشتدّت وتكاثفت عقب انتهاء «ولات» - ذات الفخذين الصلبتين في ثوبها الطويل، الضيق تحت الثديين تماماً، والفضفاض في ما تبقّى - من جمع الثياب المنشورة على الحبل في ملحفة كانت أفردتها فوق أحد الأسِرَّة الضخمة، ثم عَقَدَتْها، على ما جمعتْهُ، من أطرافها الأربعة حتى غَدَتْ صُرَّةً كبيرةً هرولتْ بها إلى داخل البيت.

كانت القطرات تضرب حصى الساحة فيرتفع غبار خفيف مقدار عقدة إصبع، ثم يتلاشى. ومع الفَرْحِ الذي غمرَ النهارَ الراكدَ، برغم ريحه الواهنة، كان في مستطاع الأنوف القوية أن تشمَّ الخلجاتِ الأكثر بُعداً في الطبقة الطينية الشفيفة التي غطتِ الأشياء، وهي الخلجاتُ الملتئمةُ على الغبار الذي تركه الموتى، والنبات، للهواء من أعضائهم. بيد أن تلك الطبقة الشفيفة من الطين انحلَّت، فيما بعد، عن أوراق شجرتَيْ الكينا، وعن حصى الساحة، وأسطح الأسِرَّة الضخمة التي بدت أكثر ألقاً، مشبعة بالرطوبة، تفوح منها رائحة الغراء القوية. وقد التفتت «كسبو»، في الآن ذاك، إلى ابنها «دينو» المُنْكَبِّ على تغليف بعض الدفاتر المدرسية بورق أزرق للوقاية، قائلة: «ينبغي فَكُّ هذه الأسِرَّة حين يعود أبوك»، فرفع «دينو» وجهه إليها بعينيه الخضراوين السارحتين، مجيباً: «إذا لم يكن أبي متعباً نفكُّها في ساعةٍ، بعد المغيب. أمّا سريري فليبق إلى وقتٍ آخر»، ورجع إلى مهمّته بين الدفاتر، مضيفاً: «لا أستطيع النوم في الداخل. الغرف لم تزل خانقة». فأطرقت «كسبو» غير راضية، لأنها لا تريد لمطرٍ ليليٍّ أن يبلّل لحاف «دينو» وفراشه، فتضطر إلى حَلِّ قماشهما ونشر الصُّوف، ومن ثم تنجيدهما من جديد. فالبلل يعفِّنُ الصُّوف ويهري القماش، الذي تذهبُ شمسُ الصباح القوية بألوانه حين يتكاسل أولادها في النهوض، وهي ألوان تختارها «كسبو» بنفسها للنَّسيج الزاهي الذي تفضِّله أملسَ ملتمعاً دون نقوش.

حين عاد «حمدي» إلى البيت، في المغيب المبكر، كانت جَلَبةُ بناته على أشدّها، يتخاصمن على بقايا سيلوفَان شفيف لم يعرف أخوهنَّ «دينو» لمن يعطيه، بعدما أنجز لهنَّ ـ طوال العصر ـ تغليف الكثير من دفاترهنَّ المدرسية، وكتبهن، التي ينبغي حفظها من شرور الأيدي مدى عام، ويمكن بيعها في العام التالي إذا بقيت في حالٍ جيدة. وقد خفَّ ضجيجهنّ بدخول الأب، لكنه لم ينته. إذْ سارع بعضهن إلى الاشتكاء إليه، متعلِّلات بأنّهن سيتعرضن لتفتيش صباحيّ في المدارس، فألقى «حمدي» عليهن نظرةً ضجرةً، وهو ينحني بجذعه ليسوّيَ له مجلساً على البساط الممدود: «هل انتهى السيلوفان من السوق؟» ونظر، حين استوى جالساً، إلى «دينو» الذي بدا شعره طويلاً يكاد يغطي أذنيه، سائلاً من جديد: «ألم يعد في هذه البلاد ورقُ الشيطان هذا؟»، فردَّ

الشاب: «إنهنّ مستعجلاتٌ بناتُك يا رجل. قلتُ لهنّ سأشتري مترين إضافيين غداً»، فانبرت «روهاتْ» شبه منتحبة: «ستستعرض المعلّمة دفاتري غداً»، وكررتْ: «غداً.. غداً»، فهمس الأب، الذي أشعل لفافة تبغ في انتظار عشائه، بصوت بارد: «لا تذهبي إلى المدرسة غداً».

كان ذلك نهاية حوار بين «حمدي» وبناته، برغم احتجاجٍ صامت أبداه بعضهنّ بحركاتٍ من الأيدي العصبية، ومن الأقدام التي رَكَلَتْ دفتراً هنا ودفتراً هناك، فتجاهل الأب ما رآه، وما سمعه، متجهاً بإصغائه إلى زوجهِ «كسبو»، التي خيّرته في هدوء: «أتتناول عشاءك الآن، أم حين تنتهي - أنت ودينو- من فكّ الأسِرّة؟». فرفع «حمدي» حاجبيه سائلاً:

- هل اتّفقنا على ذلك، من قبل؟

فردّت «كسبو»: «إنها تمطر»، وأشارت بإصبعها إلى الساحة، فأجابها زوجها:

- ما همَّ. فلتمطرْ.

فأبدت المرأةُ استنكاراً من جوابه: «والأسِرّةُ؟»، فردَّ «حمدي»:

- ما بها؟

«ستتهرّأ من المطر. ألا ترى؟» قالت «كسبو» فردّ «حمدي»:

- لن تتهرّأ حتى الغد يا كسبو، حتى لو نزل عليها مطر من عظام جَدّي.

بالطبع، سوّت العائلة لنفسها، تلك الليلة، فُرُشاً على أرض الغُرف التي سيطر عليها هواء راكد أغرى البعوضَ باقتحامها. أمّا «دينو» فآثر أن يمدّ فراشه على سريره، في الساحة، تحت الرذاذ الخفيف المتقطّع، الذي لم يكن يهدّد اللحافَ والمخدّةَ ببلَلٍ عميق في يوم هطوله الأوّل. وكان الشاب، إذا انحدرَ القَطْرُ غطى وجهَهُ باللحاف فاستأنسَ بالنَّقْرِ العذب للمناقير المائية على القماش، وإذا توقّف القَطْرُ تأمّل السماء المقسومةَ أقاليمَ شفيفةً وكثيفةً، بحسب أهواء الريح وثقلِ الغيم. وبين لحظات وأخرى كانت تتفتّحُ مساحاتٌ واسعةٌ قليلاً، أو ضيقة قليلاً، للمجرّاتِ الأبعد، فيتألّقُ السوادُ المرصّعُ بنجومه المرتعشةِ في الفراغ العريق، ثم لا يلبث أن يطوي نفسه طيّاً، ليترك للغيم الغرير أن يستعرضَ فتنتَه التي لا تدوم.

غير أن أصواتاً أخرى، غير خَبَبِ القطراتِ على لحاف «دينو»، كانت تترامى إلى أذنيه في الهدوء الصقيل. ففي الجهة الشمالية تحديداً، حيث الحقول المتحرِّرة من البيوت بسبب مجاورتها للحدود السورية ـ التركية، لم ينقطع عويل بنات آوى منذ المغيب حتى الساعة المتأخّرة التي آوى فيها «دينو» إلى فراشه، بعدما انفضّ مجلسُ زائري أبيه الذين أشبع بعضهم بعضاً بأحاديث عن المطر، وذنوب المطر، ومكارم المطر، وضَلالات المطر، وأحابيل المطر، وجَراءاته، وخَبَله. وكان للصوت الحيوانيُّ المتناغم، الموحشِ لما فيه من مُشاكَلَةٍ للنَّبر الإنسانيِّ الموحشِ، ما يبدِّد الكثافةَ التي يستجمع بها «دينو» نفسه مع دَلَالِ السَّكينةِ المأخوذةِ ببَلَلِها الخريفيِّ، فاتّكأ على مرفقيه من خلف ظهره، ورفع رقبته عن الوسادة مصغياً:

بناتُ آوى، من مكامنهنَّ في شِفافةِ الظلام المُطْلَقة، كنَّ يقلِّدن أسلافهنَّ بالحناجر المتوارَثَةِ ذاتها، وكان على «دينو» كأسلافٍ من نوعه، أن يتأمّل بأعماقهِ ـ في لحظة من لحظات الحَذَر الغامضةِ للإنسان ـ ذلك التجانسَ الصوتيَّ المليء بالخلل، لأنه ـ كصوتٍ حيوانيٍّ ـ يُجْفِلُ المكامنَ الراكدةَ التي يجهد الآدميون، إلى الأبد، لإبقائها راكدةً. ثم عاد فأرخى رأسه على الوسادة، مغمضاً عينيه ليتلافى القطرات المتباعدة، البطيئة، التي أصابت أحدَ أجفانه، وجبينَه. وشدَّ الغطاء ـ بعد ذلك ـ على وجهه كلّه، لأن القطراتِ تسارعت، لكن الغطاء ذاته انحسر، في رفقٍ، عن وجهه، فحاول «دينو» ـ دون انتباه ـ أن يشدَّه ثانيةً، فأرعدَهُ صوتٌ خفيض آتٍ من جوار السرير، قرب رأسه: «لماذا لا تريد أن تراني؟».

لم يكن «دينو» في حاجة إلى النهوض ليعرف أن الواقف المتطلِّع إليه من جانب السرير هو «مَمْ». لكنه ـ كأيِّ إنسانٍ آخر يعرف استحالة عودة الموتى إلى ساحات البيوت بأصواتٍ هادئةٍ، متّزنةٍ، وحقيقيةٍ ـ ارتبك أوّلاً، ثم ظنَّ نفسَهُ واهماً، ثم استوى قاعداً ليتأكد، فألفى توأمه يتطلّع إليه بقسماتٍ يُرى القليل منها، مبتسماً (أو ظنَّ «دينو» ذلك)، فيما خرج صوته متحشرجاً بارداً: «أأنتَ مَمْ؟»، فردَّ توأمه الميت: «ومن أكون يا بهلول؟»، ومدَّ يده مداعباً شعر «دينو»، متمتماً: «تعوّدتُ عليكم أن تكونوا أحياء، فتعوَّدوا عليَّ أن أكون ميتاً»، ثم تسلَّق السرير من أحد جوانبه ليستوي جالساً على الفراش، لصق

قدمي أخيه، ودفعهما في رفقٍ، قائلاً: «وسِّعْ لي».

كان صوت «مَمْ» أشبه بطنينٍ في أذني «دينو»، الذي شدَّ ساقيه فالصقهما بصدره، بعدما استند بظهره إلى عارضة السرير الخشبي. ثم عاد الصوتُ ليتخذ هيئةَ نبراتٍ، مُؤتَلِفاً، وله رائحة حَيَّةً: «أظننتني غادرت هذه الساحة؟»، قال «مَمْ»، وأجابَ نفسَهُ: «لا. من المبكّر أن أغادر الآن»، وهزَّ إحدى قدمي أخيه «دينو»، مسترسلاً: «أتسمعني؟ لم أفعل ما فعلته لأغادر هذه الساحة يا دينو». واستدرك استرساله حين انتبه إلى الذهول الذي جَمَّد توأمه، فتمتم: «ما كان قصدي أن أباغتك هكذا. لكن.. أنت تعرف. لا. ليس سهلاً أن نترك كلَّ شيء وراءنا، دفعةً واحدة، ونمضي. أنا متردّد. أنت تعرفني. أنا متردّد. سأغادر فيما بعد، حين أنتهي من إقناع أبي».

ظل «دينو» صامتاً، ملتصق الفخذين بالصَّدر، طوال لحظات أخرى من الصمت غطّت السرير كملاءةٍ مثقوبة يخرقها البعوض. إذ ذاك اقترب منه «مَمْ» أكثر بجذعه، هامساً: «أتريد طاسةَ ماء؟. انت مذهول، وأنا مذهول. فلنتّفقْ على أن نتوقّف عن ذلك قليلاً يا دينو، والأمور ليست في حاجة إلى توضيح دائماً. كلُّ الحكاية أنني أحاول إقناع أبي»، وتوقّف متنفّساً من منخريه بعمق، ليعود إلى ثرثرته: «كنتُ أنا نفسي أتمنّى أن أشمَّ هذه الليلةَ مثلك، من تحت غطاء سريري يا مَمْ. كنتُ أتمنّى أن أعضَّ هذه القطرات حتى الصباح. وأنا أستطيع، بالطبع، لكن الأمر يختلف بين وجودي في الساحة، ووجودك تحت اللحاف. أنا لم أعد خائفاً يا دينو، ولم أعد حَذِراً، لذلك تحرَّرَ مني السريرُ، والمطرُ، والساحةُ، ونحل أمّي. أما أنت يا دينو فالسريرُ ملكك، والمطرُ، والساحةُ، ونحل أمّي، وهذه الليلة أيضاً، لأنك خائف وحَذِرٌ». ورفع «مَمْ» سبّابته إلى فمه مشيراً بالسكوت على أخيه: «اسكتْ». وعاد فابتسم في شحوب الليل: «اسمَعْ أبي يكلّم نفسه في أحلامه. إنه مقتنع بينه وبين نفسه، لكنه يعاندني. شهر ونصف الشهر وهو يعاندني. قلت له: كان عليّ أن أفعل ذلك يا أبي، لأن «ذات الحذاء العسكري» لم تكن لترجع من أجلك إلى كردستان، وتترك بلاد البلاشفة».

كان غموض كلام «مَمْ» هو الحافز الوحيد لفكِّ ذهولِ «دينو»، الذي انجرَّ في ثِقَلٍ إلى مساءلة أخيه: «ألا يكفي أن تحيِّرني بوجودك، لتحيِّرني بكلامك أيضاً؟»، فتمدّد

«مَمْ» قرب قدمي توأمه، متكئاً على مرفقه: «لماذا يحيِّرك وجودي؟ أنا هنا لإقناع أبي».

«أكلّمته؟»، سأله «دينو» في فضولٍ ساخر، لكنه مرير، فردّ توأمه:

ـ أُكلِّمه كلَّ ليلة. لقد عدت توّاً من عنده، فمررتُ عليك.

«ولماذا لم تمرَّ عليَّ من قبل؟»، سأله «دينو» من جديد، فتنهّد «مَمْ» بصوتٍ عالٍ:

ـ أريدُ إشراكَ شخصٍ آخر معي. إنه عنيد.

«وبِمَ تحاول إقناعه؟»، عاد «دينو» سائلاً، فردَّ «مَمْ»:

ـ أن لا يذهب إلى كردستان. إنه ليس صغيراً ـ يا دينو ـ ليُقْدِمَ على مغامرة من هذه.

«لم أظنَّ، قط، أن في نيّة أبي الذهاب إلى كردستان. لم أسمعه. . .» قال «دينو»، الذي قاطعه توأمه في كسل ظاهر:

ـ أبوك مسحور بحذائها. أبوك مسحور. يا للقماش المنكوب . .

«حذاءُ مَنْ؟ قماشُ مَنْ؟ أبي . .»، تمتم «دينو»، فعاجله «مَمْ»:

ـ ألا تعرف شيئاً عن «ذات الحذاء العسكري»، يا أبله؟

فرد «دينو» منفعلاً: «أعرف. أعرف كيف كانت ستلحق بك إلى كردستان»، وانحنى إلى أمام، في اتجاه أخيه: «لماذا كنتَ تسخر منها طوال الوقت، فيما كنتَ ترتِّب معها حكاياتٍ طويلة يا مَمْ؟».

«طويلة؟» تمتم «مَمْ» سائلاً، وكرّر: «أية حكايات طويلة يا أبله؟»، فردَّ «دينو»: «وعودُكما أن تلتقيا في كردستان. لقد أرتني أمانتَك التي بين يديها. أرتني أوراقك المضحكة». فاستوى «مَمْ» قاعداً على طرف الفراش، وهو يسأل «دينو»: «أقالت لك أنها ستلتقيني أنا؟»، فأجابه توأمه: «لا أعتقد أنها كانت ستلتقيني أنا يا أمير». فابتسم «مَمْ» ابتسامة طويلة، قبل أن ينطق كلماتٍ بَلْبَلَتْ «دينو»: «كانت ستلتقي أباك أنت، يا ديك؛ أباك حمدي آزادْ»، واسترسلَ قبل أن يتمالك أخوه شتاتَ أعماقه: «لقد غيَّرتْ رأيَها. بعد سنتين من موافقتها على لقاء أبيك في كردستان، ومباركة أبيها الصامتة التي ملأتْ كل شبر من بيته بالقماش، غيّرت البنتُ رأيها. لقد فاتحتني وحدي بالأمر: «لماذا

أنتقل من الاتحاد السوفييتي إلى كردستان يا مَمْ؟» قالت لي. ظننتها تحبُّ أبي طوال سنتين. بل كانت تحبّه». وتوقّف قليلاً، محدّقاً في عيني أخيه الغائمتين في الظلام: «أأنت تسمعني؟» سأله، فهزّ «دينو» رأسه هزّةً لا تُلْمَحُ.

في هدوء قدّم «مَمْ» لتوأمه حصيلةً مُرْبكةً من حكايته المُرْبكةِ: فالأب «حمدي»، الذي تعلّق على نحوٍ رصينٍ بـ «ذات الحذاء العسكري»، أغدق عليها وعلى عائلتها وفْرةً من الهبات. وقد تعلّقت هي به، بدورها، متّخذةً من ابنته «هيفين» المُتَكَتِّمة مَدْخلها إلى بيت العائلة، ورسولتها إلى أبيها.

«أهيفين، أيضاً. تعرف الحكاية؟» سأل «دينو» توأمَهُ سؤاله الوحيد، وصمت حتى أنهى «مَمْ» كلَّ ما لديه. ومُخْتَصَرُ ذلك أن «حمدي» اتّفق مع «ذات الحذاء العسكري»، تفادياً لإحراجٍ لا طاقة له به كربِّ عائلة، أن تذهب إلى الاتحاد السوفييتي تحت غطاء الدراسة، ومن ثم تلحق به إلى كردستان، التي يستطيع الوصول إليها دون جواز سفر، ويكون ذريعته ـ هو ـ للسفر وجود «مَمْ» هناك، تاركاً مخزن القماش في عهدة «دينو». لكن الفتاة، بحسب كلمات «مَمْ» التي تثاقلت عند هذا الحدّ من الحكاية، نكثت بعهدها، دون أن تبوح بذلك لسواه.

«ولماذا تراجعتْ؟»، سأل «دينو» توأمه، الذي ردّ من فوره:

ـ كَبُرَتْ قَدَمُها يا بُنيَّ. كَبُرَتْ قَدَمُها على النحو الذي تراه أنت، فكَبُرَ عقلُها أيضاً.

«كان حرياً بك أن تخبر أبي» قال «دينو»، فردّ «مَمْ»:

ـ لم يكن في مقدوري أنا فعْلُ ذلك. حرَّضتُ هيفين: «صديقتُك غيَّرتْ رأيها، يا بنت. أوقفي اندفاع أبيك» قلتُ لأختي، لكنها غشّته.

«هيفين غشَّتْ أبي؟» سأل «دينو» توأمه في استغراب، فأجابه «مَمْ»: «غشَّتْهُ تماماً. قالتْ له إنني أعبث بعقلها لتكون الفتاة لي. أتعرف ماذا يعني ذلك؟»، وضرب «مَمْ» على صدره براحة يده، كاتماً صوتَهُ المتحشرج: «لقد ذهبت هيفين بعيداً في هذا. ذهبتْ بعيداً».

«أصدّق أبي ذلك؟» سأل «دينو» توأمَهُ، فردَّ الأخير:

ـ أبوك يصدّق النملة.

«وماذا جرى بينكما، بعدئذ؟» سأله «دينو» من جديد، فأجاب «مَمْ»:

ـ لمرةٍ واحدة سألني أبي: «أحقاً تريدها لك؟» فأجْفَلني حتى أحسستُ بالخَرَس. ولم يكلّمني بعد ذلك إلاّ لماماً. وكنتُ كلّما التقيته في خَلوةٍ أحاول مبادأتَهُ بشرحٍ مّا يبدّدُ الإشْكالَ، لكنه يقاطعني بيده: «لا أريد أن أعرف يا مَمْ». لذلك قرّرت إقناعه بطريقة أخرى.

«وما هي طريقتك الأخرى؟»، سأل «دينو» توأمَهُ، فردَّ «مَمْ» بصوتٍ تخالطهُ الدّعابة:

ـ أن أعبر النهر إلى تركيا، سباحةً.

«يا للحماقة» قال «دينو»، فتمتم «مَمْ»:

ـ ما الحماقة في ذلك؟

«من يستطيع السباحة بعكس مجرى نهر «جَقْجَقْ» الأبله حتى تركيا؟ وماذا عن الجسر الذي يرصدُ المياهَ منه الجنودُ الأتراك؟» سأل «دينو» أخاه في سخرية مبطّنة، فردّ «مَمْ»:

ـ لقد عبرتُ النهر حتى ما بعد الجسر، وعدتُ.

«عُدْتَ؟» تمتم «دينو» مستغرباً، وأضاف: «تعني عُدْتَ ميتاً»، فردّ «مَمْ»

ـ تلك مسألة أخرى.

«دعني أسألك سؤالاً صريحاً يا ممْ. هل حاولتَ إقناع «ذات الحذاء العسكري» بتغيير وعودها مع أبي؟» قال «دينو»، فاحتدم الأخير:

ـ ولماذا لا؟ أكنتُ أترك أبي يرتكب حماقةً لا تناسب عمره يا دينو؟

«هيفين، إذاً، لم تغشّ أبي» قال «دينو»، فهمس «ممْ»:

ـ إنها متعوّدة على الغشّ. إنها تغش حتى لو لم أعرف أنها تغش.

عند هذا الحد خَلَد التوأمان، باتفاقٍ غير معلن، إلى صمتٍ طويلٍ بلّلتْهُ قطراتُ مطرٍ كسولة. وفيما كان النعاسُ ـ المشبع بالهرب من الموقف المُقْلِقِ ـ يقود «دينو» إلى سراديبه الأليفة، تمطّى «مَمْ» في صخب، هامساً: «سأتركك الآن»، ففتح توأمه أجفانه، سائلاً: «أقلتَ شيئاً؟»، فأجابه «ممْ»: «لا»، وزحف حتى حافة السرير، ثم نزل عنه

ليستوي واقفاً على الأرض ذات الحصى، فتقدّم «دينو» بجذعه ليتأكد، عن قرب، من حركةِ أخيه: «أأنت مغادر؟» قالَ، فردّ «ممْ»:

ـ نعم.

«إلى أين؟»، سألَه توأمه، فأجابهُ «ممْ»:

ـ لديَّ جولتي المعتادة.

صمت «دينو» لبرهة، متفكّراً في اختيار سؤال مّا من أسئلة كثيرة راودته، ثم همس: «ما حكاية آثار الفخّ على ساقيك يا ممْ؟». فأحنى «ممْ» رأسه تلقائياً، ناظراً في الظلام إلى ساقيه: «آه..» همس، مضيفاً: «أرأيتها؟ كيف رأيتها؟»، فأجابه «دينو»: «في المشرحة».

«آه..» كرّر «دينو» حروفه المهموسة، وأردفَ: «جرفتُ الكثير من فخاخ الثعالب في طريقي إلى النهر»، فاستغرب «دينو»: «مالَكَ وما للفخاخ يا ممْ؟» قالها، فردَّ توأمه: «حتى لا تقع فيها إذا تتبّعتني»، واستدار يخطو منصرفاً. لكن «دينو»، الذي جثا على ركبتيه فوق الفراش، ألقى على أخيه سؤاله الأخير بصوتٍ عالٍ قليلاً: «أوراقك.. أعني الأوراق التي تركتها مع الفتاة.. أعني ما الحكمة في جُملتك المُكرَّرة؟..»، فالتفت «ممْ» إلى توأمه، قائلاً بنبرةٍ ذات طنينٍ: «إنها حكايتي كلها».

لم تتوقف قطرات المطر الكسولة عن الهطول، بعد انصراف «ممْ». وكانت ضرباتها الرتيبة على الغطاء، الذي شدّه «دينو» إلى ما فوق وجهه، تفتح ثغراتٍ عميقة في الغطاء، وفي جسد «دينو»، وفي الفراش، وفي ألواح السرير الخشبية، ممتدّةً إلى أعمقِ أعماق الأرض ذات الحصى، حيث الجمادُ الراكن إلى انتصاره يسردُ أقاصيصَه المحبوكةَ على الحياة. وكان «دينو» ـ الممزّق بين الفضيحة التي ألقى توأمُه بالليل فيها، وبين نعاسٍ يحاول انتشالَ ساحةَ بيت «حمدي» كلّها بكلاباتِهِ القوية ـ يدور حول نفسه كَنَورجٍ صامت، دون أن يتحرّك جسده، حتى شَعَرَ بالبَلَلِ يخرقُ الغطاءَ فيمسُّ وجهَهُ، وكتفيه، فأدرك أن المطر الذي ظنّه عابراً، في أوّل ميلاد له بعد الصيف الخانق، يعرضُ على المكانِ جدالَهُ القويَّ. فاستجمع الشاب ذو العينين الخضراوين نفْسَهُ، واستجمع الغطاءَ أيضاً مهرولاً بهِ صوب غرفته، ثم عاد إلى السرير فرفع الفراش الثقيل على كتفه

لينجو به أيضاً، فيوفّر على أمّه نواحَها الأكيد.

كان الهواء راكداً في غرفة «دينو» التي خَلَت له بعد موت توأمه، لكنه استلقى في ثِقَلٍ على فراشه الذي مذّه كيفما اتفق، منحدراً ـ برهةً بعد أخرى ـ إلى غيمٍ مرتجفٍ كأنّه عضلٌ مسلوخ، ما لبث أن صار كالشُّباك فجاهد أن يتملّص، لكنّ قوائمه الحيوانية الأربع، ذوات الشَّعر الكثيف، خذلته، فصرخ بصوتٍ ارتدّ إليه مختنقاً كعويل ابن آوى. ولمّا اشتدّت عليه وطأةُ انحصاره، التي شلّتْ رئتيه، انتفض مستيقظاً على نداءٍ رقيق آتٍ من الباب المفتوح: «هيّهْ. . دينو. دينو»، ولم يكن المنادي إلّا أخته «عيشانةْ» بحاجبيها الكثيفين، فتمتم: «أنـا مستيقظ، أنا مستيقظ»، وسحب جسدَه المتهدِّلَ عن الفراش ليستوي قاعداً وهو يسألها: «كم الساعة؟»، فردّت الفتاة: «لا أعرف. لكنك تأخرت على أبي. لقد غادر البيت منذ ساعة، أو أكثر». و«دينو» يمضي مع أبيه، عادةً، كلَّ صباحٍ، إلى مخزن القماش، أو يتأخّر عنه لفترة قصيرة إذا تكاسل في النهوض. لكنه وجد نفسه، ذلك الصباح، متأخّراً ساعتين ربّما، حتى لكأنَّ الظهيرة سبقته إلى مخزن أبيه. غير أنه، على نحوٍ ما، لم يسأل أخته لماذا هي متأخّرة، بدورها، على المدرسة.

كانت السماء غائمةً مختنقةً في عبور «دينو» الشارعَ المشجَّرَ، العريضَ، باتجاه سوق المـدينة، محيّياً أشباحَ من يعرفهم بإيماءة من الرأس، أو تحية من يدٍ مرفوعة، بحسب متانةِ صِلَته بهم أو وَهَنِها. ولمّا دلف، أخيراً، إلى العَرَصةِ المسقوفة، المؤدية إلى الـدرجـات التي ينبغي أن ينزل المرء عليها ليصل إلى مخزن «حمدي»، بادره صبيُّ المقهى: «جلبتُ لك الشاي مرتين، فشربه أبوك»، فاكتفى «دينو» بالنظر إليه نظرةً لا معنى لها، وهو يعبره في اتجاه حديقة القماش النائمة.

لم يتـطلّع «حمدي» إلى ابنه حين دخل الأخيرُ متّجهاً، من فوره، إلى مَسْطبة تراكمتْ عليها لفائفُ قماشٍ محلولة، عرضها أبوه على زبائنه ولم يُعِدْ طيَّها، فأعادَ هو طيَّها ولَفَّها. ولمّا انتهى الأب من حوار قصير مع رجلين بدتْ ملامحهُما مَرِحةً، هَمْهَم من تحت شاربيه الكثّين، متوجهاً بكلامه إلى «دينو»، من غير أن ينظر إليه: «سأل عنك هذا الـ. . .» وأشـار بإصبعه إلى ناحية الباب كأنّما تكفي الجهةُ لتدلَّ على الشخص المقصود، فهزَّ «دينو» رأسه متفهّماً: «أأعطاك شيئاً يخصّني؟»، فردَّ الأب بإيجاز: «لا».

بعد وقتٍ قليل من ذلك التبادل المُقْتَصَد للكلمات بين «دينو» و «حمدي»، خلا جوُّ المخـزن لهما، فاقترب الابن من أبيه، حاملاً أضمومةَ قماشٍ لم ينتهِ من طيِّها، وهمسَ كأنّما يخاطب نفسه: «رأيت مَمْ الليلةَ الماضية»، وتطلّع بعينين مفتوحتين على وسعهما ليرى وقْعَ كلامه على «حمدي»، فاكتفى الأخير بالتوقف لبرهةٍ عن تدوين أرقامٍ وأسماء في دفتره العريض، المُسَطَّر، قبل أن ينطقَ: «أزاركَ أيضاً؟»، فَشُدِهَ «دينو»، حتى أحس بوخزٍ متفرِّق تحت جلد وجهه. ولمّا تمالك نفْسَه، بعد انخلاعٍ، سأل أباه بصوتٍ فيه نبرةٌ من أسى:

ـ ما الذي يجري، يا أبي؟

فرفـع «حمدي» وجهـه إلى ابنه، من مقعده لصق المنضدة، مبتسماً: «أخوك جوج. لم يقتنع قبل موته، وها هو لا يقتنع الآن».

«لم أفهم» قال «دينو»، وقد شتَّتَتْه كلماتُ أبيه، فتمعن «حمدي» فيه: «ما الذي لم تفهمه؟».

«من منكما يحاول إقناع الآخر؟» سأل «دينو» أباه، فطأطأ الأب ناظراً إلى مترهِ المعـدنيّ على المنضدة، قائلاً: «ماذا تظنُّ أنت؟»، فرد «دينو»: «قال مَمْ إنه يحاول إقناعك بالعدول عن الذهاب إلى كردستان».

تراجـع الأب على مقعده حتى مسَّ بظهره الحائطَ، وفي عينيه سخريةٌ ممتزجة بفضـولٍ مّا: «ولماذا أريد الذهاب إلى كردستان؟ حاولت أن أرسله هو فخذلني. أمّا أنا..»، وتـطلّع إلى رفـوف الأقمشـة من حولـه، مضيفـاً: «أتمنى ذلك، لكن لديَّ مسؤولياتي هنا، ولم أعد شاباً على مغامرة من هذه يا دينو».

«وما حكاية جارتنا؟»، سأل «دينو» أباه، الذي بدا نافد الصّبر وهو يردُّ:

ـ كيف أُقنع أخاك؟ إنها أخته، لكنه يلحُّ عليّ كي أقول عكس ذلك.

«أختُ مَنْ؟» تمتم «دينـو» محـدّقاً في أبيه، فاستدرك «حمدي» أن هناك حلقة مفقودة في محاورتهما، فنهض عن مقعده مقترباً أكثر من ابنه: «ألم يذكر لك شيئاً من هذا؟»، فارتختْ شفةُ «دينو» السفلى وهو يتمتم: «شيئاً مِمْ يا أبي؟».

تلفَّت الأب من حوله في هدوء، مستنجداً بالفراغ وبالأقمشة، ثم نقر بأصابعه على

فخذه، وتنهّد: «حاولتُ إقناعه، طوال هذه المدة، أنها أخته، وما عليَّ أن أُقنِعَكَ أنتَ».
فتلمّس «دينو» لنفسه مقعداً بعدما أحسَّ بارتخاء في مفاصل ساقيه، وإذ جلسَ على رزمة من قماشٍ مغلّفٍ بورقٍ متين، سألَ أباه سؤالاً مختنقاً: «أتعني هذه الفتاة التي ترتدي حذاءً عسكرياً؟»، فرمقه الأب مشفقاً على ابنه وعلى نفسه: «متى ستناديانها، أنتَ وأخوك، باسمها يا دينو؟».

«لم أفهم، بعد، يا أبي»، قال الابن، فهزّ الأب رأسه مؤكداً على كلامه: «لو كنتُ في موقفك لما فهمتُ أيضاً. لكن المسألة يا دينو أنني...»، وسحب «حمدي» نفساً عميقاً من هواءٍ أبعدَ من جدران مخزنه: «أنا إنسان. وحين أَقَمْنا منزلَنا، في المكان الذي نحن فيه، ساعدتْنا أمٌ..» وتطلّع مبتسماً إلى ابنه قبل أن يكمل: «أمٌ التي تسمّيانها ذات الحذاء العسكري. نعم. ساعدتنا كثيراً قبل موتها»، وأغضى، مضيفاً: «حدثَ الذي حدث»، وهرب بعينيه من ابنه: «ذلك يحدث، وأنا..»، ثم عاد إلى مقعده وراء المنضدة ليجلس متنهّداً: «ماذا أفعل يا دينو؟ كنتُ..» فقاطعه ابنه محتدماً: «قُلْها يا أبي. قُلْها..»، فنهض الأب عن مقعده محتدماً بدوره: «ألم أقلِ الكفاية؟».

هدوءٌ مَرِحٌ غمرَ الإثنين بعد احتدامهما المفاجىء، فابتسما أولاً، ثم ضحكا ضحكاً خفيفاً دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، قبل أن يبادر «دينو» والده سائلاً وفي عينيه رقّةٌ مكسورة: «أحقاً هي أختنا يا أبي؟»، فأجابه «حمدي»: «وما الفرق يا دينو؟ إذا اقتنعتما أنها اختكما فهي ـ بالتأكيد ـ أختكما».

«وإذا لم تكن أختنا، حقاً؟» قال «دينو»، فردّ أبوه:

ـ هذا ما يريد مَمّ أن يسمعه مني.

«فلْيَسمَعه مَمْ منك، يا أبي»، قال «دينو»، فهزّ «حمدي» رأسه متبرّماً:

ـ لن يغادر بعد ذلك.

«ولماذا لن يغادر؟» سأل «دينو» أباه الذي استرسل:

ـ لأنه سيحاول إقناع الفتاة نفسها بأنني سأنتظرها في كردستان. ألم يحاول إقناعك أنت بأمرٍ آخر؟ يا للمكّار!

«حيّرتني يا أبي. لم أعد أعرف مَنْ منكما يُقنع الآخر» قال «دينو». فردّ «حمدي»:

ـ لا تهتمَّ. المسألة كلُّها أن تقتنع أنت.

«أقتنعَ بِمَ؟»، سأله «دينو»، فأجابه أبوه:

ـ بالذي تراه.

«وما الذي أراه؟» قال «دينو»، فردّ حمدي»:

ـ هذا الذي تراه.

«أنت؟ أمْ شبح مَنْ؟ أمْ ذات الحذاء العسكري التي صارت أختي؟» قال «دينو» محتدّاً، فقاطعه أبوه بصوت مُعاتِب:

ـ للفتاة إسم. للفتاة إسم يا دينو.

«إسمها؟ ألَها إسم؟.. أنا ذاهب إلى كردستان يا أبي» قالها «دينو» على نحوٍ آليٍّ، كأنّما ينتقم من أحد، فبادره أبوه في هدوء:

ـ ولِمَ لا؟ كل شيء مهيّأ على أية حال.

صعد «دينو» الدرجات القليلة من المخزن إلى عَرَصَةِ السوق المسقوفة، ثم اتّجه يميناً إلى الشارع العريض لتقوده خطواته في اتجاه مبنى البريد، ومن هناك إلى الشّجر الظليل الذي يتوسط الشارع المتّجه غرباً، حيث بيتُهم المقذوف ـ هندسياً ـ إلى حيِّز حفرتْهُ المساكنُ في الضَجر الصُلبِ هناك. و «دينو» لم يكن واثقاً، على أية حال، من السبب الذي يحدو به إلى التوجّه صوب البيت، لكن نَفَقاً مَا في فراغ الهواء كان يحدّدُ لجسدِهِ ـ ككتلةٍ ـ عبوره. وقد توقّف مرّةً واحدةً، في المنعطف الذي يشكّله التقاءُ الشارع المُفضي غرباً بالبوّابة القوسية للحديقة العامة، إذْ كانت ألواحُ جليد، من ذلك الصّنف الطويل جداً، متناثرةً في كل مكان، مهشّمةً لم تَذُبْ بعد، فيما بدتْ عربةٌ خشبية، من تلك العربات المستطيلة التي يجرُّها الرجال عادة بدلَ الدّواب، مقلوبة على جنبها، وبقربها «هزيْم» الأخرس، منتصباً بجسده الرياضيّ الضخم غير المتناسق، يشتمُ ويجأر بصراخٍ غير مفهوم. لكن لم يكن هناك أي أثر للسيارة التي صدمت عربته وفرّتْ، حسب ما التقط «دينو» من جَمهرةِ الناس الخفيفة، المُنكبّة على رَفْعِ العربة، وجَمْعِ قطع الجليد أو ما تبقى صالحاً، ومواساةِ الشاب الأخرس الذاهل من شدّة غضبه، المعروف بعنفه على أية حال، منذ كان عاملاً في المبقى المرخّص يجلب الماء من

البشر للعاهرات في صفائح معدنية. وقد انحنى «دينو» بدوره يجمع الجليد المتّسخ ويضعه على سطح العربة التي أُعيدتْ إليها أكياس خيش مبتلّة كانت موضوعة، من قبل، تحت ألواح الجليد وفوقها. وحين انتهى المتطوّعون لمساعدة الأخرس من ترتيب ما قدروا على ترتيبه من بقايا الحمولة الباردة البيضاء، ومسحوا أيديهم المُحمرَّة بأطراف أرديتهم، أو أفخاذ بناطيلهم الواسعة، ناظرين إلى «هَرَيْنْم» نظرةَ مواساةٍ تُعلن للأخرس أنهم فعلوا ما توجّب عليهم دون مِنّةٍ، تقدّم الشابُ من عربته، مفتوح الفم يتأمّل بقايا جليده، ودار نصف دورة من حولها لينحني على أحد أطرافها وينهضَ ـ من ثمّ ـ فتنهضَ العربةُ عن الأرض، أو هكذا بَدَتْ، قبل أن تنقلب ثانيةً على جنبها، وتتدحرج بقايا الألواح الباردة فتغمر أمكنةً لم تكن غمرتها في سقوطها الأوّل.

بالطبع، انفضّ الجمعُ الصغير من الذين بذلوا للأخرس أيديهم، متحسرين على الدقائق التي هدروها، فأكمل «دينو» سَعْيهُ في اتجاه البيت، تحت السماء المُبْهمَةِ، التي كلّما حشدتْ غيوماً كثيفة في جهةٍ منها تلاشتْ غيومٌ في جهة أخرى منها. ولطالما تفنَّن الهواء، منذ الصباح الباكر لذلك اليوم، في تقديم أخاديعه، حتى لم تكن لتمرَّ دقيقةٌ إلاّ تتهيّأ شقوقُ الأرض، والأرواحُ التي تحمل بَلَلَ الليلة الماضية، لمزيدٍ من القَطْرِ، لكنه يحتبس عليها. ولمّا وصل دينو البيتَ، واتّجه من فوره إلى غرفته في الركن الشمالي من الساحة، بالرغم من دنوّ وقتِ الغداء، لحق به صوت أمّه من باب غرفة العائلة: «هل ستتركان، أنت وأبوك، هذه الأسِرَّةَ في العراء حتى يوم القيامة؟»، فالتفت «دينو» إليها مقطّباً حاجبيه: «قد نحتاج إلى أسِرَّتك يوم القيامة يا أمي»، واختفى في الداخل.

غير أن مكـوث «دينـو» في غرفته لم يطُلْ، إذ نادته اخته «عيشانه»، المُكلّفة عادةً بمناداته، أو بتبليغه رسائل شفهية من أبيه وأمّه، كأنّما صوتُها المُغَرْغِرُ، وإطلالة وجهها البشوش يؤهّلانها كرسولٍ لا يتذمّر منه «دينو»، كما لم يكن «مَمْ» نفسه يتذمّر منها. وقد نهض الشاب ذو العينين الخضراوين، حين تناهى إليه صوت أخته، عن طرف سريره المعدني الذي كان يجلس عليه، وتقدّم خارجاً من الباب إلى الساحة، فلامستْ قطراتٌ من المطر غُرَّته أولاً، وزُنْدَيْ قميصه، ثم أنفهُ وظاهرَ قدميه في الخُفّين الصيفيين، فيما كانت الساحة نفسها غارقةً في هدوءٍ مُلْفِتٍ، تاركةً للمطر أن يحلم حُلْمَ يقظته في سكون

مميق. لكن طائرين رماديين حطّا بغتةً ـ قرب شجرتَيْ الكينا، على بعد أمتار منه، مّنْزعتين مرفوعتين، ناسترعياه، لأنهما من فصائل طيور الحقول التي لا تحطّ، عادةً، ي ساحات البيوت أو قرب أسوارها. وقد نفض الطائران ريشهما قليلاً، ثم جَمَدا حدّقين ديه، متأهّبيْن. فأبدى حركاتٍ خرقاء من يديه ليطيرا فلم يطيرا. إذ ذاك تقدّم نهما، ملتفّاً من حول سريره الخشبي المنصوب في الساحة، فالتصق الطائران بالأرض كنهما لم يطيرا، حتى أن «دينو» توقّف على بعد خطوات منهما، ثم حَادَ عنهما مكملاً سيره على شكلٍ قوسيٍّ باتجاه غرفة العائلة، حيث ينتظره غداؤه، دون أن يرفع عينيه عن لطائرين.

لم يكدْ «دينو» يبلغ باب الغرفة حتى برز «حمدي» من وراء الجدار الذي يحجب زاية السّور، قادماً إلى موعد الغداء بدوره، فتمهّل الشاب ليدخل أبوه أولاً، بعد نظرةٍ عابرة تبادلاها، ودخل من بعده، فجلسا من فورهما قرب صَحْفة الطعام التي اكتملت حلقة العائلة من حولها، بينما تزاحمت الصحونُ لتَقْتَطِعَ حصصَها من الدجاج والرز الأحمر المُشَرَّب بالبندورة المطبوخة، وأَنَّتِ الملاعقُ المعدنية في ارتطامها بالصّحونِ الفَرْفُورِيَّة ذات الحواف المتماوجة. وبعد بضع لقمات ازْدَرَدها «دينو»، الجالس بين أختيه «رحيمه» و «روهتْ»، وهو يرفع بصرَهُ اثناءَ المَضْغِ القصير إلى أبيه، ارتفع صوت «هيلين» الصغيرة وهي تسأل أمها: «هل سنوفر شيئاً من الطعام لِمَمْ؟»، فردت «كسبو» متبسمة: «سيبقى، يا حبيبتي، ما يكفي مَمْ». لكن «دينو» لم يَسْتَسِغِ المحاورةَ تلك فدمتم: «الموتى لا يأكلون يا هيلين»، فنهرتْهُ أمّه على نحوٍ فاجأه: «لا تقلْ لأختك كلاماً من هذا يا دينو». فتوقّف «دينو» عن مضغِ لقمته، متحدّثاً في صخبٍ من خلال الطعام الذي في فمه: «ماتَ ممْ»، والتفت إلى أخته الصغيرة كأنما يقنعها بعينيه الغاضبتين: «ماتَ مَمْ، والموتى لا يأكلون مثلنا يا هيلين».

لبرهةٍ بدا ان «هيلين» الصغيرة اقتنعت بكلام أخيها، وهي تحدّق في عينيه الخضراوين، ثم تمتمت بعفوية: «أعطيت مَمْ لقمةً من خبزي، في الصباح، مع ثلاث حبات زيتون»، فحسَر «دينو» بصرهُ عنها، جائلاً بوجهه الخامد على الوجوه الأخرى، فاستوقفته أمّه مبتسمةً: «قال لي مَمْ إنه مرَّ بكَ الليلةَ الماضية...».

نبضَ عِرْقان، بقوّة، في صدغيْ «دينو»، وارتخى فكُّه السفلي قليلاً فكادت اللقمة أن تسقط من فمه فأغلقه، ثم ارتدَّ رأسُه إلى الخلف، فيما تحرَّك فكّاه من جديد، وفي بطءٍ أخرسَ، يكملان مَضْغَ اللقمةَ التي طال طحنُها، ولمّا ابتلعها انفرجت شفتاه عن ابتسامة لم تؤكِّدْها ملامحُهُ، وأدار عينيه على أمه وأخواته هامساً: «بماذا يقنُعكُنَّ أنتنَّ؟»، واستقرَّ ببصره على أبيه: «أظنُّ أن ابنك مَنْ جاء بقبره إلى البيت». ثم نهض وغادر الغرفة حافياً.

كانت قطرات المطر متجانسةً، وواثقةً أيضاً، في هطولها، فكاد «دينو» يهرول ليقطع الساحة في اتجاه غرفته، لكن طائريْ الحقل خفَّفا من خطواته بدورانهما المضحك حول نفسيهما، قرب شجرتيْ الكينا، فتوقّف لصق سريره الخشبي العالي في الساحة، وجعَل ينظر إليهما ساكناً. فسكن الطائران أيضاً بعدما نفضا قنزعتيهما. ثم التفت أحدهما إلى الآخر سائلاً: «ما الذي يتأمّله؟»، فردّ الثاني: «لا يتأمّل شيئاً. بل يتهيّأ للطيران» وضحك قبل أن ينقر الأرض نقرتين بمنقاره. لكن الطائر الذي سأل سؤاله الأول عاد إلى المحاورة: «إنه ليس في حاجة إلى طيران. فلماذا يتهيّأ إذاً؟»، فردّ الآخر: «يتهيأ للطيران لأنه ليس في حاجة إلى طيران، مثلنا تماماً»، فتمتم الأولُ: «أتمزح؟ نحن طائران...»، فقاطعه الثاني: «لا أعني الطيران، بل الحديث. نحن لسنا في حاجة إلى هذا الحديث، ومع ذلك ها أننا نتحادث». إذْ ذاك نفض الأول قنزعته من جديد، مبدياً بعض الازدراء: «هذه ليست المرّة الأولى التي نتحادث فيها. نحن نتحادث دائماً»، فأجابه الثاني: «لكنْ ليس بصوتٍ عالٍ هكذا»، فاستغرب الطائر الأول: «أيّ صوتٍ عالٍ تعني؟ نحن نتحادث، دائماً، بالوتيرة ذاتها». غير أن الطائر الثاني أشار بمنقاره إلى «دينو» قائلاً: «لكنه يسمعنا». فتعجّب الأول: «مَنْ؟» فردّ الثاني: «هذا الشاب، بالطبع. هذا المتهيّئ للطيران»، واسترسل في ضحكة طويلة اهتزّ معها ذيله وصفق جناحاه، ثم دار حول صاحبه دورات مضحكة وهو يردّد: «يا للريش! يا للريش!»، فردّد صاحبه: «يا للريش» وهما ينظران إلى «دينو» الذي بدأ يتأمّل جسده، ويتفحّصه من قدميه الحافيتين إلى صدره البارز من فتحة قميصه غير المُزرَّر، كأنّما يبحث عن ريش نَمَا فجاءةً. ولمّا وجده الطائران على حاله تلك استرسلا صارخين في مَرَح: «يا للجناحين

الطويلين. يا لجناحيه!...»، وهما يتأمّلان ذراعي «دينو» كأنّما نبتَ بدلهما جناحان على جانبيه، فانكبَّ «دينو» بدوره، على نحوٍ آليّ، يتأمّل ذراعيه مذهولاً. وقد ازداد ذلك الذهول حين هتف طائرا الحقل، معاً: «إنهما يخفقان. سيطير الشاب...»، فضمَّ «دينو» ذراعيه على صدره كأنه يحاول لَجْمَ جناحين هَمّا ـ حقيقةً ـ أن يرتفعا به، وارتجف فتناثرتْ عن غُرّته خيوطُ الماء الذي بلّله حتى التصقت به ثيابه. وقد تمالك نفسه، بعد برهةٍ من ذلك، حين رأى الطائرين ينفلتان من المطر مُحلّقين في فضاء الساحة، ثم يختفيان. فعاد يتفحّص جسده، هادئاً، قبل ان ينحني على الأرض، قرب قدميه الحافيتين، فيلتقطَ ريشةً صغيرة غطى أطرافَها الوحلُ الذي فجّرهُ المطرُ سطوراً متداخلةً في ساحة البيت، ثم استدار متجهاً إلى غرفته فدخلها، تاركاً على العتبة، وعلى الحصير الصيفيّ آثاراً من خطوات قدميه المُوْحِلتين. وقد عَمَد، من فوره، إلى فتح حقيبة ثيابه ذات القاع الخشن، وألقى الريشةَ فيها، ثم أحكم إغلاقها وأعادَها إلى مكانها بين خزانة الثياب الصغيرة، الفارغة، وسريره المعدني الذي يُستخدم كَكَنَبة للجلوس أيضاً، داخل الغرفة.

أفصحتِ المزاريبُ عن نفسها، بعد قليل من دخول «دينو» إلى غرفته، فَعَلا خريرُها، ثم هبت ريحٌ ملولةٌ من الباب والشباك المفتوحين تقذفُ برائحة الماء قَذْفاً ككتلةٍ ذات أبعادٍ، فقام «دينو» يوصد الشُبّاكَ، فيما خَلّا البابَ على حاله، وعاد فاستلقى على الحصير، واتخذ وسادةً مَسْنَداً تحت إبطه ليخلدَ إلى شرودٍ مُهيْمنٍ، في الوقت ذاته الذي خلدتِ العائلة، في الغرفة الكبيرة الأخرى، إلى قيلولةٍ أكثر دفئاً بفعل جَلَبَةِ المطر التي تستدرّ النعاسَ، فاستلقى أفرادها كيفما اتّفق، بجذوعٍ مطويّةٍ قليلاً، وتلك هي العلامةُ الحقيقية لأفول الصيف الذي من سِماته أن يبثَّ الفرقةَ بين اعضاء الجسد أثناء النوم، فلا يطيق العضو الواحدُ حرارةَ الآخر. لكن «هيفين»، كما بدا من صوتها، لم تكن تشارك العائلةَ قيلولتها، إذْ كان غناؤها يتردّد مع وقع المطر، خافتاً مرّةً وواضحاً مرّةً، بحسب انتقالها من مكان إلى آخر في الساحة، فقام «دينو» يلقي نظرة ذات فضول، عبر زجاج النافذة، على أخته التي كانت تفتح بالرّفش مجرى صغيراً لتصريف المياه المتجمّعة ـ وهي في ثوبها المدرسي الكاكي الأشبه بثياب الجنود ـ قربَ باب كوخ النحْل امتداداً

حتى شجرتيْ الكينا، حيث تنخفض الأرض قليلاً.

كان شعر «هيفين» الفاحم مبتلاً، وملتصقاً بجانب وجهها، وفمها مفتوحاً تنفخ منه بين لحظة وأخرى على قطرات الماء التي تنحدر على أنفها فتتبعثر القطرات. وحين توقفتْ لتتكىء على عصا الرَّفش، وهي تُعاين المجرى الصغير الذي حفرته، أبطأ المطر ليغدو متناثراً، فرفعتْ وجهها إلى السماء قليلاً وخفضتْهُ، ثم جالت بعينيها على أرض الساحة لتستقرَّ بهما على نافذة غرفة «دينو» فابتسمتْ لشخصه الواقف وراء الزجاج، وغمزته، فتراءتْ له، لأوَّل مرَّةٍ، بهيَّةً بقسماتها الوادعة، ودَّ لو أنه يشعل لها لِفافةَ تبغٍ، في اللحظة تلك، ويضعها بيده بين شفتيها، لأن يديها المبتلتين لن تتمكَّنا ـ بحسب معاينته لهما من مكانه هناك ـ من الإمساك بلفافة تبغ دون أن يتلِفَها البَلَلُ. وعلى نحوٍ مّا اتَّجه إلى الباب فوقف على عتبته، واضحاً للمطر الذي خَفَتَ أكثر فأكثر، وغمز أخته مبتسماً بدوره، كأنّما يبدي لها امتناناً على ما فعلته، ثم أشار بيده إلى جهاتٍ متفرِّقة أخرى تجمعت المياه فيها، في حركةٍ تتَّسم بالدعابة، فرفعت «هيفين» إحدى كتفيها تدليلاً على أنَّ ما قامت به يكفيها دون مزيدٍ. لكن «دينو» أشار بإصبعه إلى السماء فتطلعت أخته إلى أعلى، وعادت فنظرت اليه كأنّما لم تفهم مقصَدَهُ، فهتف بها: «السماء. . .» فتطلَّعت الفتاة إلى الفراغ الرماديّ من فوقها وهي تسأل: «ما بها؟» وانتظرت برهةً قبل أن يصلها جواب أخيها المَرِح: «احفريْها لينحدرَ الماء إلى ساحة بيت الجيران، ونرتاح».

لم ينتظر «دينو» أن يرى وَقْعَ جملته المرحة على أخته. فقد أيقظته كلمة «بيت الجيران» فتطلع إلى بوابة الساحة شرقاً، واتجه إليها بخطوات رتيبة، فيما كانت «هيفين» ترفع صوتها: «سبَقَنا الجيرانُ. هُمُ الذين فتحوا مجرى في السماء إلى ساحة بيتنا». ولمّا وصل «دينو» البوابةَ فتحها وخرج متَّجهاً شمالاً صوب بيت «ذات الحذاء العسكري» الذي يتصل سورُهُ بسور بيت «حمدي»، بانخفاضٍ قليلٍ عنه، وقد عَلَتْهُ قطعُ زجاجٍ كثيرة، ناتئة الأطراف، مزروعة على امتداده لمنع السارقين من اجتيازه. وإذ صار في موازاة البوابة توقف محتاراً، كأنما كان يتوقع ـ مُسْبقاً ـ أن يراها مفتوحةً على وِسْعها. وقد هَمَّ أن

يقرعها بالحلقة النحاسية الثقيلة في وسطها فتردَّد، ومن ثم أحجم عن ذلك، فهو لا يعرف ـ يقيناً ـ ما الذي عليه أن يسألَ إذا فُتحتِ البوّابة. فصار يذرع المكانَ جيئةً وذهاباً مرتبكَيْن ولم يتوقف. من ذلك إلاّ حين لمح اخته «هيفين» تطلُّ بنصف جذعها من بوّابة بيتهم، ناظرةً إليه في فضولٍ وديعٍ، فرفع يديه كأنّما يوقفها عن التحديق فيه: «ألا ترين أنها مُقْفَلَة؟». والتفت بكُلِّه إلى بوابة بيت «ذات الحذاء العسكري»، فرفعت أخته حاجبيها مندهشةً وهي تردُّ: «ولماذا تزعجك بوّابة مُقْفَلة؟»، ثم استدركت مضيفةً: «أتريد شيئاً من جيراننا؟»، فأجابها في توتُّرٍ واضح: «كنتُ أريد شيئاً لو كانت البوابة مفتوحةً»، فأومأت أخته برأسها، مشيرةً إلى البوّابة: «اقرعْها».

هدأتْ حركة «دينو» للحظاتٍ، متأمّلاً ـ هو نفسُه ـ في تردُّده. وكأنّما وجد، بعد ذلك، مَخْرَجاً وهو ينظر إلى أخته، فناداها: «تعالي هيفين». فاقتربت الفتاة حتى صارت على قُرْبٍ منه، فأومأ إليها: «اقرعي البوابَة»، لكنها تمهّلتْ سائلةً: «مَنْ تريد، تحديداً؟»، فردَّ «صديقتك».

ابتسمت «هيفين» كأنّما عرفت، دفعةً وحدةً، سبب تردُّده. وإذْ هَمَّتْ بقرع البوابة أشارت عليه بيدها أن ينصرف، فما من داعٍ لوجوده قربها إذا ما فتح البوّابةَ واحدٌ من عائلة الفتاة، فتفهَّم «دينو» إشارةَ أخته، وعاد أدراجه صوب بوّابة بيتهم، ليقف هناك بوجهه المُثْقَل بالفضول. ولم تمضِ دقيقة على ارتفاع الطَّرقَاتِ النحاسية ـ كذاكرةٍ لها صريرٌ ـ حتى فتحت «ذات الحذاء العسكري» نفسُها البوّابةَ. ولمّا تداولتِ الفتاتان كلماتٍ قليلة، بإشارات كثيرة مَرِحةٍ، اتجهتا صوب «دينو» الذي أمعن تحديقاً في وجه «ذات الحذاء العسكري» المحاط شعرها الخرنوبي الأشعث الطويل، حتى أنها هزت رأسها أمام عينيه حين صارت على مقربة منه، كأنما توقظهما من ثباتهما عليه، فلم يعبأ بحركتها، فلكزته أخته: «أتراها لأول مرة؟»، فأغمض عينيه لبرهة، ثم التفت إلى يساره ناظراً في فراغٍ لا تعيين فيه، وهو يتمتم: «إنها تشبهنا»، واستدار عائداً من البوابة إلى ساحة بيتهم، وسط استغراب الفتاتين، ليتّجه، من فوره، إلى غرفة العائلة. وإذْ دخلها من بابها المفتوح كان الجميع مستيقظاً من القيلولة المُبْكِرَة، فخطا خطوتين صوب أبيه الذي كان يحزم سيور حذائه تأهُّباً للخروج إلى مخزن القماش، وبادره بتعابير باردةٍ من فمه: «حقّاً إنها تشبهنا

يا أبي». وقد توقف «حمدي» عن الحركة لبرهةٍ وهو يتأمّل وجه ابنه. فقطع البرهة تلك صوتُ «كسبو»: «من التي تشبهكم يا دينو؟»، فردَّ ابنها الذي لم يرفع عينيه عن عيني أبيه: «أختنا الجديدة يا أمي. بنت جيراننا. صديقة هيفين»، فانبعثت ضحكةٌ عذبة من فم الأمّ، مديدةً، نزلت كالسطحين على عظام «دينو»، ثم أردفت ضحكتها بكلامٍ مُتمهِّلٍ: «وما الغرابة؟ بالطبع ستشبهكم لأنها أختكم».

في هدوءٍ انسلّ «دينو» من غرفة العائلة، باردَ النظرات والخطى أيضاً، لا فضولَ في قسماته، كأنّما فتحتْ كلماتُ أمّه الغامضة مخرجاً لأعماقه إلى سكينةٍ تلتمع كحجرٍ مغسول. ولمّا بلغ غرفته أوصد الباب من خلفه، فيما علت خطوات أبيه على الحصى المبتلّ وهو يمضي، في اتجاه البوابة، إلى مشاغل قماشه في سوق المدينة.

توقف المطر نهائياً عصر ذلك اليوم، وتشتت الغيم حتى لم يبقَ ما يدلُّ على سطوته غير بَلَلٍ كادت الأرضُ تجفّفهُ بلهفتها الموسميّة. وبسبب الصّفاء الذي تألّق في السماء وفي الأفق المغسولَيْنِ تأخّر المغيب، لكن بنات آوى الليلِ أبكرنَ في اقتحام الحقول، رافعاتٍ أصواتهنَّ قَدْر ما تستطيع الحنجرةُ الحيوانيةُ أن تتباهى بسحْرِ الصوتِ، كأنّما الصوتُ هو جوابُ الله فيهنَّ على كلِّ شيء، طالما أنَّ الله هو جواب الانسان على كلّ شيء، حتى يتّسمَ الوجودُ بِعَذْلِه الغامضِ. وقد تلقّف «دينو» في لهفةٍ عويلَ الحيوانات الصغيرة تلك، الفخورة بالصدى المحبوك لصخبها، في غرفته، التي لم يُشعلْ مصباحَها الكهربائيَّ بعدُ، فقام إلى النافذة يلقي منها نظرةً على الساحة امتدتْ حتى اختفى كلُّ ظلٍّ لشجرتيّ الكينا، وكوخِ النحل، والأسرّة الخشبية الضخمة. ومع سيادة الظلام في تدرُّجه الأوّل اتجه «دينو»، بغريزةٍ لا تخطىء، إلى مكان الحقيبة فتلقّفها من مقبضها، بعدما تحرّى بيده جلدَها الخشن، ومضى خارجاً بها من غرفته

لم يُعِرْ «دينو» برودةَ الهواء التفاتاً وهو في قميصه الصيفيّ، فاتخذ طريقه، في ثقةٍ، صوب بوّابة السور، دون أن ينظر إلى الضوء المندلق كثيفاً من باب غرفة العائلة وشُبّاكها. غير أن صوتاً أليفاً أوقف خطواته، فالتفت إلى الزاوية المعتمة، التي يشكّلُها التقاء السور بجدار البيت، ليجد «مَمْ» وهو يقترب منه في كسل قائلاً: «إلى أين يا دينو؟»، فاكتفى «دينو» بردٍّ لا معنى له: «أوه. أهذا أنت؟»، ثم أكمل سيره ففتح البوّابة.

حين صار «دينو» خارج ساحة البيت، لحق به «مَمْ» فأطلَّ بنصف جذعه من البوّابة هامساً: «دينو. دينو»، فتوقف «دينو» من غير أن يلتفت: «والآن ماذا لديك؟»، قالها متأفّفاً، فردَّ «مَمْ» بنبرة فيها توسُّل خفيٌّ: «ألا تريد أن تصغي إليَّ؟».

«وإلى مَ أصغي؟ ثمتَ أمرٌ لا أحبُّه يجري هنا»، قال «دينو». فاقترب منه «مَمْ» أكثر:

- إنها أمورٌ عادية يا دينو. ماذا لو كنتَ في مكاني؟ ماذا لو التقيت «الرجلَ الكبير» مثلي؟

«أيّ رجل كبير تعني؟»، سأل«دينو» توأمَه، واستدرك فرفع يده اليمنى دون التفاتٍ، كأنّما لا يريد أن يسمع شيئاً: «اعْفِني من حكاياتك يا مم»، وأكمل سيره بعد وقفته القصيرة، فلحق به توأمه سائلاً:

- إلى أين أنت ذاهب يا دينو؟

«الى كردستان» ردّ «دينو» وهو يأخذ نَفَساً عميقاً كأنّما يستعدّ لمشقّات مّا، في الآن الذي كادت يد «مَمْ» الممدودة قليلاً أن تمسّ كتفه مستوقفةً وهو يسأل ذا العينين الخضراوين:

- وما حاجتك إلى هذه الحقيبة؟

«فيها ثيابي» ردّ «دينو» فاسترسل توأمُه:

- أرسل أبوك من القماش إلى كردستان ما يكفي عباءةً لجبال طوروس، وستجد هناك من يُفصِّل لك شيئاً منه.

لكن «دينو» أكمل خطواته كأنّما لا يصغي، فاحتدم «مَمْ» صارخاً: «كيف تتركني وحدي؟ لم أُقنعْ أبي بعد..». فردّ «دينو» في هدوء: «أمامك حياتُه كُلُّها يا مَم، فلا تستعجل».

توقف «ممْ» عن مجاراة توأمه المتجه بخطى هادئة إلى شارع يفضي، في آخره، إلى زقاقات تتفتّح في نهاياتها على حقول الشمال، بيد أنه جازف بآخر جملة يمكن أن يسمعها «دينو»، فقالها بصوت مرتعش: «استعملْ جناحيك يا أخي. استعمِلْ

جناحيك»، فالتفت «دينو» إليه للمرة الأولى منذ خروجه من ساحة البيت، وهو يبتسم ابتسامةً لا تُرى: «ليس الآن يا مَمْ» قالها، وكرّر الكلمات: «ليس الآن»، ثم انحدر اعمقَ في الفراغ، ماضياً يتقدّمُ الظلامَ ويتقدّمه الظلامُ.

على نحوٍ مّا، كانت كل المحاورات التي تجري في البيوت، وفي الشوارع، وداخل الشخص الواحد، مسموعةً ذلك المساء لمن يريدُ أن يصغي إليها، من أدنى المدينة إلى أقصاها. فأصوات المعلّمين، المجتمعين في مبنى فرع الحزب، وسط المدينة، تختلط ـ مَثلاً ـ بصوت «شيرو بابان» الذي يتوعّدُ امرأته بالهرب إلى تركيا إذا خذلته حصّاداته الآلية في العام القادم. ويختلط ما يبوح به «هزيم» الأخرس لنفسه، عن عملٍ خالٍ من حَمْل الجليد، بما يبوح مدير المنطقة العسكري به لنفسه عن مَسْكَن لا يريده مُظَلّلاً بالشجر مثل المسكن الذي يقطنه. وكذلك يختلط صفير العظام في مقبرة «الهلالية» غرباً بصفير العظام في مقبرة «قُدُوْرْ بيك» في الشمال الشرقي. أمّا «ذات الحذاء العسكري» فكانت الشخص الوحيد، ربّما، الذي لا يقول شيئاً لنفسه أو لأحد آخر ذلك المساء، لأنها ظلت مشغولة بالنّظر إلى نفسها في المرآة، منذ العصر، دون أن تبحث ـ حقّاً ـ عن مقارنة بين ملامحها وملامحِ أحدٍ آخر، بالرغم من كلمات «دينو» التي تركت طنيناً غريباً في أعماقها حين همسَ: «إنها تشبهنا».

من ١٩٨٨/٢/٢٠
الى ١٩٨٩/٨/٣

صدر للمؤلّف

كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج أيضاً (شعر)١٩٧٣
هكذا أبعثر موسيسانا (شعر) ١٩٧٥
كنيسة المحارب (يوميات) ١٩٧٦
للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر) ١٩٧٧
الجمهرات (في شؤون الدّم المهرَّج، والأعمدةِ، وهبوب الصَّلصال) (شعر) ١٩٧٩
الجندب الحديدي (سيرة الطفولة) ١٩٨٠
الكراكي (شعر) ١٩٨١
هاتِهِ عالياً، هاتِ النَّفيرَ على آخِرِه (سيرة الصِّبا) ١٩٨٢
فقهاء الظلام (رواية) ١٩٨٥
بالشُّبّاكِ ذاتها، بالثعالب التي تقود الريح (شعر) ١٩٨٧
أرواح هندسية (رواية) ١٩٨٧

SALIM BARAKAT

AL REESH

سليم بركات

البراهين التي نسيها «مَم آزاد»

في نُزهته المضحكة إلى هناك

أو :




مؤسسة بيسان
للصحافة والنشر

السعر: ٤ دولارات